جلال الدين الحمامصي

من معاركنا السياسية



معركة نزاهة الحكم

فبراير ١٩٤٢
يوليو ١٩٥٢

!

الناشر: وديع سعيد

مِنْ معارِكنا السياسيّة

معركة نزاهة الحكم

فبراير ١٩٤٢ - يوليه ١٩٥٢

بقلم

جلال الدين الحمامصي

1957

مقدمة الكتاب

كانت السنوات السابقة على قيام ثورة الجيش فى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، وهى الثورة التى أيدها الشعب تأييدا قويا فاندفعت فى طريقها ، دون اراقة نقطة دماء واحدة ، وبحيث أسماها العالم لهذا السبب « ثورة مصر البيضاء » .. كانت هذه السنوات العشر حافلة بالاحداث السياسية الضخمة والتطورات العنيفة التى شملت كل شيء

شملت العقلية الشعبية، بحيث تطورت من تأييد أعمى لحزب واحد الى تفكير فى إنقاذ الأمة من هذا الحزب الواحد . كان هـذا الحزب الواحد يملك ارثا ضخمة آل اليه بعد جهاد وثورات شعبية ، ولكن كبار الورثة استأثروا بهذا الارث لصالحهم العائلى الخاص ، ... وبدلا من أن يدعم هذا الارث ويزداد نموا، بدأ يتقلص ويتلاشى بحيث أصبحت زعامة الأمة فى أيد لا تحرص على مقومات هـذه الزعامة ، ولا تعبأ بها ، بل اتخذتها ستارا تخفى وراءه كل مؤامرة للرشـوة والفساد والاثراء على حساب الشعب .

وامتدت هذه التطورات العنيفة فشـملت « الملك » الذى أحاط نفسه ــ بدافع من طبيعته الفاسدة ــ بحاشية لا هم لها الا أن تحرك الاحزاب والهيئات السياسية وفقا لاطماعها المادية ، وهدفها تشجيع الرغبات الجامحة التى كانت تسيطر على حزب الاغلبيـة وتدفعـه الى الاثراء واستخدامها فى اثارة الشعب ضده بحيث لا يجد أمامه الا أن يستبدل رضاء الشعب وتأييده ، برضاء السراى وتأييدها ، وأن تجعل من الاحزاب الاخرى أدوات على استعداد لقبول كراسي الحكم وذلك لتهدد بها حزب الاغلبية اذا مافكر فى التمرد وعصيان السراى ورجال السراى ، وبهذه السياسة «مزج» الفساد بين السراى وحزب الاغلبية ، ووقفت أحزاب المعارضة تنتظر الدعوة الى تولى الحكم كلما

فكر حزب الاغلبية فى التمرد وقليلا ما كان يفعل — ولكنه فى هذا القليل كان يدفع الثمن الغالى كلما فكر فى التمرد .. الثمن الذى كان يزداد ارتفاعا كلما ازداد ابتعاد الوفد عن الحكم ، وكلما ازداد جشع رؤساء هذا الحزب الشعبى ورغبتهم فى الثراء غير المشروع .

وليس معنى هذا أن أحزاب المعارضة ظلت صامتة لا تتحرك ازاء هذا التطور فى عقلية زعماء حزب الوفد . بل انها كانت تلجأ فى فترات البقاء بعيدا عن الحكم الى اعلان الحرب على حزب الاغلبية مرات، وعلى السراى بين وقت وآخر .ولا جدال فى أن هذه الحرب كانت تختلف فى شدتها ، فبينما كانت مركزة على حزب الوفد ، لم يكن نصيب السراى منها عنيفا الا فى فترات متقطعة وان كانت قد ازدادت فى السنوات الاخيرة السابقة على قيام الثورة ، فكانت عريضة المعارضة التى اتهمت فيها رجال السراى ، .. وكذلك كان الاستجواب الذى نوقش فى مجلس الشيوخ بشـــأن تصرفات بعض رجال السراى ونزاهتهم مما سأشرحه فيما بعد بالتفصيل .

وكانت أغلبية الشعب تؤمن خلال هذه الفترة بصحة اتهـــامات المعارضة، ولكنها لم تكن مع هذا ميالة الى تأييد هذه المعارضه تأييدا قويا لعدة أسباب :

أولها أن الشعب — أو أغلبيته — لم يكن يثور كثيرا أو قليـــلا لمسائل داخلية بحتة ، ولهذا فلولا ثورة الجيش لظل الحكم الفاسد قائما حتى اليوم .

وثانيها — ان الشعب أيضا — لم يكن على استعداد لان يستبدل حكم حزب الوفد بحكم الاحزاب الاقلية وذلك لانعدام « المحبـــة » بين الطرفين ، ولأن صحافة الوفد كانت قوية فى سيطرتها على الرأى العام الذى كان مستعدا لقبول حجة صحف الوفد واهمـــال حجة أحزاب المعارضة ، ومع هذا فقد لعبت الصحافة دورا كبيرا فى معركة نزاهة الحكم كما سأوضحه فى فصول هذا الكتاب .

وثالثها — وجود قوات الاحتلال فى مصر ، وما كانت تتمتع به السفارة البريطانية من قوة استغلت فى كثير من الاحايين لضرب الاحزاب بعضها ببعض أو لتهديد السراى اذا ما حاولت التمرد على تعليمات السفارة ورغباتها ، بل بلغ من قوة السفارة البريطانية أن استطاعت جذب زعيم الأمة ، ورجل الاغلبية الى ميدان الاسماعيلية فى عام ١٩٤٣ للوقوف تحت العلم البريطانى واستعراض قوات الجيش البريطانى المحتلة !

ولم يكن قبول زعيم الاغلبية لهذه الدعوة الا اعترافا منه بجميل الحكومة البريطانية فى اعادته الى الحكم على أسنة الحراب البريطانية بعد أن حوصرت السراى فى ٤ فبراير عام ١٩٤٢ وأرغم الملك على أن يعهد الى مصطفى النحاس برئاسة الحكومة !

ورابع هذه الاسباب — وأقواها جميعا — هو العنصر النسائى الذى كان يحرك سياسة زعيم الاغلبية ، وفقا لأطماعه وأهوائه . ومهما قال المؤرخون عن أسباب التطورات الخطيرة التى أدت الى هذا التحول فى عقلية زعماء حزب الاغلبية ، .. فانى أجزم ، وأتمسك بهذا الجزم بأن قرينة الرئيس السابق مصطفى النحاس كانت هى العامل الاول ، أو العامل الهام ، فيما تطورت اليه نزاهة الحكم بصورة بشعة . صورة أدت الى قيام الجيش بثورته الكبرى وما جاء فى البيان الذى أذاعه الضباط الاحرار فجر يوم ٢٣ يوليو من أن فساد الحكم هو الدافع الاكبر لقيام هذه الثورة .

ولست أسجل هذا الحكم على قرينة الرئيس السابق مصطفى النحاس مستندا الى اشاعات أو أقاويل أو تهم باطلة .. بل أسجله وأنا مطمئن الضمير بناء على ما لمسته بنفسى خلال الفترة التى عشتها وفديا صميما . وقد سجلته فى هذا الكتاب وخللته مدعما بالبراهين

واذا كان بعض الوفديين قالوا انه لا لوم على الرئيس السابق مصطفى النحاس فى كل ما حدث ، إذ كان مثل الزوج آخر من يعلم ،

بل انه لم يكن يعلم شيئا، الا أنى أقول ان اللوم كله يقع على الرئيس السابق وحده ، لانه كان يستطيع أن يظل كما كان الرجل النزيه الذى يضحى بكل شيء فى سبيل بقاء نزاهته كرجل سياسى فيواجه بذلك رجال السراى وألاعيب الاستعمار بنفس نزيهة راضية مطمئنة فالقول بأنه لم يكن يعلم بما يجرى من وراء ظهره قول لا يستند الى أساس من الواقع ، ·· وقد كان مصطفى النحاس أصـلا رجلا فقيرا · وكانت السيدة قرينته أصلا من عائلة طيبة ولكن فقيرة · وفقر الاول لا يحتاج الى تدليل ، ويكفى انه عندما فكر فى الزواج اقترض من بنك مصر مبلغا من المال يعينه على هذا الزواج · أما فقر الثانية فيكفى أن نذكر انه عندما خطبها الرئيس السابق مصطفى النحاس ذهب والدها الى الاستاذ مكرم عبيد يقول له انه رجل فقير ولا يستطيع أن يجهزها كعروس ، ·· وكان رد النحاس عندما نقل مكرم له هذا الاعتراف ، انه لا يريد جهازا فلديه منزله ويستطيع أن يضم الزوجين معا ·

وتم الزواج على هذا الاساس ···

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

حدث أن تطورت أوضاع الزوجين من تواضع فى المعيشـــة الى ثراء واسع ، والى الاقامة فى قصر مفروش بأفخر الاثاث ، والى مال يصرف بلا حساب ·· فهل بلغت البلاهة بالرئيس السابق مصطفى النحاس الى ألا يلاحظ كل هذه الطفرة وكل هذا الثراء !

ان مصطفى النحاس لم يكن أبلها · ولكنه كان متعاميا ، ولاسباب سأفسرها بتوسع فى الصفحات التالية ·

وكانت هذه النقطة هى بداية معارك نزاهة الحكم فى خلال العشر سنوات السابقة على قيام الثورة · ولم تكن المعارك وطنيـة ، بل كانت معارك حزبية ، ولن أحصى فى هذه المقدمة ما شهدته مصر من المعارك الحزبية ، وانما أكتفى بالاشارة الى واحدة منها وهى معركة

الكتاب الاسود أو كما أحببت أن أسميها دائما « معركة النزاهة » فقد كانت سوابق هذه المعركة ونتائجها نقطة تحول أخرى داخل حزب الوفد وفى السراى • ولعبت السفارة البريطانية دورها الخطير، فأثبتت أنها ما زالت قائمة تحرك السياسة الداخلية وفقا لاطماع الاستعمار ونواياه •

كانت معركة الكتاب الاسود أعنف المعارك التى بدأت فى عام ١٩٤٢ ، ••• وظلت مستمرة لفترة طويلة • وقد بدأت بثورة مكرم عبيد على الاوضاع الداخلية فى الوفد ، وكان أول بادرة لهذه المعركة عندما اعترضت اللجنة المالية بوزارة المالية على طلبات مصطفى النحاس بتقرير ترقيات استثنائية لبعض أنصاره فى الحكومة ، واعترض مكرم • وبالتالى اعترضت اللجنة المالية وأعدت مذكرة بالاعتراض والرفض وأرسلت الى مجلس الوزراء •

ولم يكتف مكرم بذلك بل « أرغم » جريدة المصرى على نشر هذه المذكرة فكانت القنبلة الاولى • القنبلة التى أيدت الشائعات من أن تصدعا كبيرا يوشك أن يقع فى الوفد ، ••• فقد كان الخلاف بين الرجلين — النحاس ومكرم — فى نظر بعض الناس لا يمكن أن يرقى الى أعلى من مجرد شائعات ، اذ لم يكن ممكنا أن تقبل فكرة انفصال الرجلين أو مجرد وقوع خلاف بينهما •

وتطور الخصام بعد نشر هذه المذكرة الى معركة عنيفة بين أصدق صديقين فى السياسة المصرية ••• وأدى هذا التطور الى فصل أقوى رجل فى الوفد من الوزارة أولا ، ثم من الحزب ثانيا كسكرتير عام وكعضو عامل ••• ثم خرجت معركة نزاهة الحكم بعد ذلك من داخل الحزب الى معركة اشتركت فيها مصر كلها •

الاحزاب المعارضة •

السراى •

والانجليز •

أما الاحزاب المعارضه فقد وجدتها فرصة لمحاولة هدم الوفد ثم الاستئثار بالحكم ٠

وأما السراى فقد كانت تتلهف للانتقام من النحاس الذى قبل الحكم بعد محاصرةسراى عابدين بالدبابات البريطانية ثمالقضاءعلى شعبيته والاستئثار بتوجيه سياسة مصر ٠

وأما الانجليز فقد كانوا يرون فى هذه الخصومة المندلعة بين الوفد من جهة والاحزاب والسراى من جهة أخرى أكبر فرصة تتيح لهم ارغام النحاس — زعيم الأمة — على الارتماء فى أحضانهم والاعتماد عليهم دون غيرهم ٠

وهكذا كانت « نزاهه الحكم » هى الاساس فى كل ما جرى داخل البلاد وخارجها واحتدمت المعركة بين المعسكرات التى تمسك بالخيوط المؤدية الى كرسى الحكم ٠

ولقد اشتركت فى وضع الكتاب الاسود ، وطبعه ، وتوزيعه ، اشتركت فيه علىأساس أن الهدف منه هو التمهيد لاقامة حكم نزيه، وتنبيه الشعب الى ما يرتكب باسمه من أخطاء ومخاز ، ولست أشك لحظة فى أن هذا هو أيضا كان هدف مكرم عبيد ٠ ولكن — وللاسف الشديد — ما كاد مكرميرى أن نفوذه وسلطانه بينالاحزاب المعارضة الحاكمة يوشك أن يتقلص ٠٠٠ وما كاد يحس أن القصر لم يعد قادرا على مواصلة تأييده، ٠٠ حتى بدأ ينسى الكتاب الاسود ، وخلافه مع مصطفى النحاس ٠٠ بل بدأ ينسى أيضا كل ما ناله ونال أنصاره — من جبروت مصطفى النحاس وتنكيله بهم واعتقاله اياهم ، وسعى الى عقد — ما أسماه — هدنة مع مصطفى النحاس ، ثم تحققت هذه الهدنة ورضى بها مصطفى النحاس بل لعله هو الذى دفع الى تشجيع العاملين على عقد هذه الهدنة ٠ ليقضى هو أيضا على مكرم بجعله يشطب بتوقيع هذه الهدنة كل ما جاء من اتهام فى الكتاب الاسود ! ٠٠

وبعد هذه الهدنة فتح باب الاثراء والفساد على مصراعيه واندفعت الفوضى الحزبية والاستعمارية والملكية الى داخل البناء تحطم كل ما فيه من أثاث، وتهدم كل مبادىء النزاهة والشرف وأصبحت الصورة الواضحة للذين ظلوا بعيدا عن الاشتراك فى هذه العمليات الهدامة — صورة قاتمة مظلمة ٠

***

وقد يسأل سائل لماذا اخترت بالذات هذه السنوات العشر وهل كانت نزاهة الحكم قبل هذه السنوات بعيدة عن أن تجرح ، وأنا أقول ردا على ذلك أن هذا ليس معناه أن الحزبية قد ركزت نشاطها وفسادها في خلال هــــذه السنوات العشر فقط — ولهذا اخترت ما جرى فيها ماسا بنزاهة الحكم مادة لكتابى — وانمــا لان هــذه السنوات كانت أكثر من غيرها ضلالا ، ٠٠ كما أنها مهدت لقيام ثورة الجيش فى يوليو عام ١٩٥٢ وما حدث بعد ذلك من حل الاحزاب ، واختفاء الشخصيات الكبيرة التى سترد أسماءها فى هذا الكتاب ، والتى لعبت دورا سياسيا خطيرا فى تاريخ مصر الحديث ٠

وقد حاولت فى هذا الكتاب أيضا **تركيز الاضواء على الاحداث «الهامة» — وأكرر الهامة — التى حدثت خلالها ٠ وأنا أقصد بالاحداث ما كان منها متصلا بنزاهة الحكم فقط** ٠ وذلك لان طاقة الاحداث التى وقعت خلال هذه الفترة أكبر من أن يضمها كتاب واحد ٠ صحيح انه قد وقعت خلال هذه الفترة أحداث سياسية بالغــة الاهمية ، وكان الشعب يؤدى دوره العظيم فى معارك القنال وغيرها ، بدافع من وطنيته ، ولكن حزب الوفد كان يستغل هذه الاحداث — بدون علم من الشعب لمصلحة بقائه فى الحكم والاثراء على حساب الشعب المكافح المحارب ٠ ويوم يكتب عن معارك القنال ومحاربة الاستعمار الانجليزى سيغترف المؤرخون بهذه الوقائع ويشرحونها بالتفصيل ولهذا السبب أيضا لم أتعرض تعرضا كاملا لحادث ٤ فبراير على اعتبار

أنه حدث سياسي وتحتاج دراسته والتعمق في أسبابه الى كتاب مستقل ..

***

وهناك نقطة أخرى أريد ابرازها في هذه المقدمة وهي أني حرصت على ذكر الاحداث والوقائع التي لمستها بنفسي والتي أستطيع الوثوق بصحتها كما اخترت الاحداث التي يمكن أن تعتبر نقطة تحول في السياسة الداخلية دون التعرض للاحداث الاخرى التي تقل عنها — في رأيي — أهمية . ومعظم صفحات هذا الكتاب كتب قبل قيام ثورة الجيش، والباقي كتب بعد قيامها — وقد حاولت — بقدر الامكان — أن أربط بين الاحداث بعضها ببعض . وأملي أن يقدم كل من جمع في جعبته الكثير من الذكريات السياسية عن معاركنا الداخليه في خلال هذه الفترة أن يقدم كل ما عنده للناس فان خير ما يؤدي للوطن ، وللذين سيؤرخون تاريخنا فيما بعد — أن تسجل الاحداث واحدا بعد الآخر وفي كتب متعددة تكون مرجعا لأبنائنا وأحفادنا عندما تتاح لهم فرصة دراسة فترة من أخطر الفترات التي مرت بالوطن .

جلال الدين الحمامصي

الفصل الأول

الحادث الضخم

الأسبوع الأول فى شهر فبراير ١٩٤٢ :

كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف من مساء ذلك اليوم ، فأخذت أستعد للنوم ، اذ كانت تلك الليلة ليلة أجازتى ، فقد كنت أعمل طوال الأسبوع بجريدة المصرى حتى الساعة الخامسة صباحا ، وكنت أنتظر بفارغ الصبر ليلة راحتى حتى أنعم بأطول مدة ممكنة من النوم .

وكانت تلك الفترة فترة عصيبة من فترات الحرب العالمية الثانية ، وكانت مظاهرات معينة قد سارت فى شوارع القاهرة تهتف «الى الامام يارومل» ، اذ كانت القوات الالمانية على أبواب الاسكندرية .. فاهتزت الدوائر البريطانية لهذه المظاهرات وان كنت اعتقد انها مدبرة تمهيدا لتدخل بريطانى .

فقد كانت حكومة حسين سرى تواجه انقساما داخليا . وكانت أحزاب الاقليات التى يعتمد عليها فى البرلمان قد بدأت تنقلب عليه وتثير فى وجهه المشاكل . وعندما قامت المظاهرات فى القاهرة التى تردد فيها « الى الامام يا روميل » دعا حسين سرى مجلس الوزراء الى الاجتماع وقال لهم « أن هذه المظاهرات مدبرة . اشترك فى تدبيرها على ماهر والشيخ المراغى شيخ الجامع الازهر ، وكامل البندارى . وتحت يدى تقارير تثبت أن اجتماعات كثيرة تعقد فى عوامة الشيخ المراغى وأن الاوامر بقيام هذه المظاهرات قد صدرت من هذه العوامة . وأنا قادر على قمع هذه المظاهرات ، فهل

توافقون على اصدار الاوامر الى البوليس بقمع هذه المظاهرات ٠

وتردد الوزراء ٠٠

وقالوا نبحث المسألة

وأحس حسين سرى ان المؤامرة تسير وفقا للخطة الموضوعة ، ولهذا قال لهم ٠٠ اذا كان الامر كذلك فأنا مستقيل ٠٠

وجمع أوراقه وخرج ليواجه كيلرن وتتحول الازمة هذا التحــول الخطير الذى بدأ بحادث ٤ فبراير ٠

وكنت اذ ذاك قد بدأت عملى سكرتيرا لتحرير تلك الصحيفة الوفدية وكانت أمنيتى أن أرتفع بتوزيعها الى رقم كبير ، ومن ثم لم أكن أغادر مكتبى بالجريدة الا فترات محدودة من النهار أو الليل لا تتجــاوز الست ساعات جميعا ، أقضيها فى النوم أو تناول وجبات الطعام ، ولكننى كنت أحس فى نهاية الأسبوع أن لبدنى على حقا وأنه لزاما على أن أنال قسطى من النوم ٠٠ النوم لحساب أسبوع كامل ٠

وأمسكت تلك الليلة بكتاب ، ولكنى لم أقرأ منه سطرا واحدا ذلك لأن الكرى كان يثقل جفوني وقد تغلب على رغبتى فى القراءة ٠٠ بيد أنه حدث حادث مفاجىء طرد النوم والرغبة فى القراءة معا ، فقد دق جرس التليفون فى تلك اللحظة ، وكان المتحدث هو صاحب الجريدة ٠٠

ولا شك أن موضوع هذا الحديث كان بداية حدث كبير من أحداث السياسة المصرية ، أو لعله كان مقدمة للتطــورات التى بدأت فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وانتهت فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ٠

عشر سنوات ، وخمسة أشهر ، و ١٧ يوما ٠٠ انها ليست بالفترة الطويلة فى تاريخ الأمم والشعوب ولكنها فترة حافلة بالأحداث فى تاريخ مصر السياسى ٠

كان صاحب الجــريدة قد ســمع أن فى الجو السياسى الداخلى والخارجى معا تطورات هامة ، ولهذا رأى أن ألغى أجازتى فى تلك

الليلة ، وأن أحاول جمع خيوط هذه التطورات :

ولم أتحمس لهذا الحديث فى بدايته .. فقد كان ثمة رقابة شديدة مفروضة على الصحف المصرية ، وكنت أعرف أن صاحب الجريدة ، كغيره من أصحاب الصحف ـ يكره أن ينال أحد محرريه أجازة أسبوعية ، فلعله غير جاد فيما يقول .. ثم كنت مع هذا ورغم غرامى الشديد بالصحافة ـ أحس أن لهذه الأجازة قدسية لا يجوز لأحد أن ينتهك حرمتها ..

ولكن احساسا خفيا دعانى الى أن أتناسى هذا كله ، والى أن أقوم من فراشى فى ليلة من ليالى الشتاء القارس ، متنازلا عن أجازتى التى أعد من أجلها الأيام ، بل الساعات .

ولم أكن حتى تلك اللحظة قد بدأت التفكير « من أين أبدأ ؟ » .. « والى من ألجأ ؟ » .. « وكيف يمكن أن أمد يدى الى الخيط الأول من خيوط هذه التطورات الهامة » .. بل لم أكن أعرف ما هى هذه التطورات وهل مصدرها الخارج ، أم هى نتيجة من نتائج التفاعلات الحزبية فى الداخل ..

لم أفكر فى شىء من هذا كله ، بل تركت الأمر للصدفة والقدر ، ولست أدرى لو أننى كنت فكرت ودبرت ورسمت خطة لجمع خيوط هذه التطورات الهامة أكنت أصل الى نتائج سريعة كتلك التى وصلت اليها بمحض الصدفة ؟

ولكن اليك ما حدث بالضبط ...

توجهت رأسا بسيارتى الصغيرة الى حيث يقيم رئيس الوزراء وقت ذاك الرئيس السابق حسين سرى .. وكنت أعرف عنه أنه يأوى الى فراشه مبكرا ، وأنه يذهب اليه ولو كان فى زيارته بعض الضيوف ، بل كثيرا ما كان يحدث أن يترك ضيوفه ويتسلل من سلم الخدم الى غرفة نومه تاركا الترحيب بضيوفه الى أقاربه .

وأخذت أحدث نفسى وأنا فى طريقى الى منزل رئيس الوزراء : هل

يعقل أن أجده مستيقظا فى هذه اللحظة واذافرض أنه لم يأو بعدالى فراشه ، فهل يعقل أن يستقبلنى فى هذا الوقت من الليل ؟ وهل يمكن أن أنجو من لذعاته وتعليقاته القاسية ــ التى اشتهر بها ــ وأنا أطلب مقابلته فى منزله فى هذا الوقت المتأخر •• ؟

ووصلت الى منزله بالزمالك •• وبدأت المصـادفة تلعب دورها الكبير فورا ودون ابطاء ، فقد وصل موكب اللورد كيلرن ، السفير البريطانى ، الى منزل رئيس الوزراء • ونزل السفير من سـيارته «الرولزرويس» الصفراء ، واتجه رأسا الى البيت ، ولم يطل انتظاره أمام الباب الخارجى اذ أن رئيس الوزراء كان فى انتظاره •

وما كاد السفير البريطانى يختفى داخل المنزل حتى غادرت سيارته وموكبه المكان كأن الأمر كان مدبرا من قبل حتى لا يعرف أحد أن السفير البريطانى يزور رئيس الوزراء فى هذا الوقت المتأخر من الليل ، وهكذا كانت المصادفة هى العامل الذى تطوع وأوصل الى يدى الخيط الأول •

ونظرت الى ساعتى •• وكانت التاسعة مساء •

ثم عدت فنظرت اليها عندما غادر السفير دار رئيس الوزراء •• كانت قد أوشكت أن تشير الى العاشرة ، وعلى هذا تكون المقابلة قد استغرقت ساعة ••

وتابعت موكب السفير بسيارتى فاذا به يعود الى السفارة ، واذ بمكاتب الموظفين تضاء وتدب فيها الحياة •

وعدت الى مكتبى ، وطلبت رئيس الديوان الملكى ، المرحوم أحمد محمد حسنين « باشا » ، وكانت صداقتى به تسمح لى أن أطلبه فى أى وقت •• ولعبت المصادفة دورها الثانى ، فأمسكت بالخيط الثانى اذ ما كدت أدير قرص التليفون بالأرقام حتى سمعت رئيس الديوان الملكى يتساءل فورا : « سراى عابدين ؟ »

ولم أرد فى البداية •••

ولكننى سارعت فقلت : « ولماذا تطلب سراى عابدين فى هـــذا الوقت ؟ »

ولم يكن أحمد حسنين منشرح الصدر فى تلك الليلة كعادته ، ولما عرف أننى المتحدث اليه طلب منى أن أطلبه بعد لحظة لحاجته للاتصال السريع بسراى عابدين ..

قلت : « لعلك تريد أن تعرف ، قبل أن يتم هذا الاتصال ، ما عندى من الأخبار الهامة »

فسألنى : « وما هى ؟ »

قلت : « ان كيلرن اجتمع الآن بحسين سرى فى منزله واستغرق اجتماعهما ساعة »

فأجاب : « ولكن كيلرن ليس فى القاهرة ، لقد غادرها للصيد »

قلت : « ولكنه عاد فى المساء وتوجه الى دار حسين سرى واجتمع به طويلا »

وسكت حسنين لحظات ، ثم قال : « متشكر » ، قالها بلهجة تحمل الكثير من المعانى ..

كان ثمة شىء اذن فى الجو السياسى ، ولكن مهما يكن من أمر هذا الشىء ، أو هذه الاشياء ، فان الرقابة لن تسمح بنشرها ، فلتكن المحاولة قاصرة على نشر نبأ قطع رحلة السفير للصيد وعودته الى القاهرة مساء ، ومقابلته لرئيس الوزراء .. ومع هذا كنت أتوقع أن تعترض الرقابة على نشر هذا الخبر الموجز .

واتصلت بالرقيب العام ، الاستاذ محمد حسن يوسف ، وقـــد أصبح فيما بعد وكيلا للديوان الملكى ، وقرأت عليه ما كتبت ..

وفكر الرقيب العام لحظة ثم نطق بالجملة التقليدية : « لا مانع من النشر » !!

وانفرد المصرى بالنبأ ، أو بعبارة أدق انفرد بمولد حـــدث كان بداية الأحداث السياسية التى تعاقبت على مصر فى السنوات العشر

التالية أو تزيد ، ثم انتهت بطرد الملك فاروق واسدال الستار على عهد أسرة محمد على •

كان حسين سرى قد قرر أن يستقيل، وكان أمر الاستقالة — دون شك — هو مدار الحديث فى المقابلة التى تمت بينه وبين كيلرن فى منزله ، وقد علمت فيما بعد أن حسين سرى قال لاخوته عقب انتهاء المقابلة : « لقدأصبحت استقالتى نهائية » •

واستقال حسين سرى ، وحاول الملك أن يجمع حوله الأحـــزاب السياسية ويشكل وزارة قوميـــة تواجه الأحـــداث المقبلة ، فدعا الزعماء جميعا الى مقـــابلته بقصر عابدين وكان الرئيس الســـابق مصطفى النحاس فى قنا فدعى الى الحضور فورا الى القاهرة •

ورأى الانجليز ان الملك يوشك أن يقضى على أمنيتهم أو مؤامرتهم التى دبروها كى يتولى الوفد الحكم ، فبعث السفير بانذار الى الملك قال فيه : « اذا لم أعلم قبل الساعة السادسة من مساء اليـــوم أن مصطفى النحاس قد دعى لتأليف الوزارة فان جـــلالة الملك فاروق سيتحمل تبعة ما يحدث •• »

وحاول الملك — رغم هذا الانذار — أن يمضى فى تنفيـــذ فكرة تشكيل الوزارة القومية ، ولكن النحاس رفض — ورفض بشدة ، مما جعل الحاضرين يؤمنون فيما بعد ايمانا قويا ، بأن الرجل الوطنى كان على علم بما سيحدث ••

وتم الاتفاق فى نهاية الاجتماع على رفض الانذار ، ووقع الجميع على هذا الرفض ، وكان آخر الموقعين مصطفى النحاس ، ولكنه قبل توقيعـــه قال انه لا يتحمل مسـئولية ما سيترتب عـــلى ذلك من نتائج •• !

وذهب أحمد حسنين بهذه الوثيقة الى السفارة البريطانية ، ونظر كيلرن الى الرد وراجع التوقيعات ووقف عند توقيع النحاس ليسأل مستغربا : « هل أنت واثق أن هـــذا التوقيع هو توقيـع مصطفى

النحاس ؟ » ·· وكانت دهشـــة السفير ممــــا زاد فى التأكيد بأن النحاس كان على علم بالمؤامرة ··

وفى الساعة التاسعة أحاطت الدبابات البريطانية بقصر عابدين، واقتحم كيلرن مكتب الملك ثم كان ما عرفه الجميع من الخضوع للرغبة الانجليزية ، ودعى مصطفى النحاس الى تشكيل الوزارة ·

لم أشهد هذا المنظر المروع ـ منظر حصار عابدين بالدبابات ـ فى بدايته ، ولكننى شهدته فى نهايته ، فقد كنت عائدا الى مكتبى بعد تناول طعام العشاء فاذ بعامل من عمال الجريدة يلقى الى بنبأ الحصار، فركبت سيارتى من فورى الى ميدان عابدين ، وشهدت الحصـــار ، وشهدت ما هو أفجع منه ، شهدت الشعب يقف من هذا المنظر المروع موقف المتفرج ، مع ان الملك لم يكن مكروها فى ذلك الوقت ، ولم يكن قد انغمس فيما انغمس فيه بعدئذ من تبـــذل واستهتار ، بل كانت تصرفاته جميعا تتسم بطابع رعاية مصلحة الشعب ·

ولكن الشعب ·· الشعب المـــرهف الحس ، كان بليدا فى تلك اللحظة بلادة منقطعة النظير ، كان يواجه الاستراليين وهم يحيطـون بالميدان بخوذاتهم وبنادقهم ويتندر معهم ، ويطلق فى آذانهم بعبارات لا تمت بصلة الى هذه الرواية المفجعة التى تمثل فصولها أمامه فى هذا الميدان ··

وعدت الى مكتبى حزينا ، وطلبنى مكرم عبيد ليسألنى عن حقيقة ما يشاع عن محاصرة قصر عابدين ، فقلت له : « لقد شهدته بعينى ، فهو ليس اشاعة »

وقد رد مكرم بكلمة واحدة : « يا حفيظ » ·· وأقفل السماعة ·

وجاءت وفود الحزبيين والموظفين ونهازى الفرص الى جريدة المصرى تسأل عن الأنباء ·· أنباء الوزارة ، من شكلها ، ومن دخلها ؟

أما الحصار ···

وأما الاعتداء على العرش ···

فقد كانت الأسئلة عنهما تأتى على الهامش كأن الحادث مضى فى ذمة التاريخ ، وليس عليهم الآن الا أن يطمئنوا على الوزارة ومن رشح لها ، ومن دخلها ...

وجاءت وفود النواب السابقين ، النواب الذين ظلوا بعيدا عن مقاعد النيابة زهاء خمس سنوات .. جاءوا يسألون عن « موعد الانتخابات » ، وبدأوا يتحدثون عن توزيع الدوائر الانتخابية ويفرضون الفروض بشأن الترشيحات ثم يفكرون على أساس هذه الفروض ..

وأمسك بعضهم التليفونات يطلبون مراكزهم ودوائرهم الانتخابية يستفسرون ويذيعون أنباء عودة الوفد الى الحكم ، بعد أن كاد يقتلهم اليأس من أن تنتهى فترة المجلس بانتخابات أخرى تجريها حكومة محايدة ..

ووقع بعد هذا ما هو أدهى وأمر ، فقد ذهب مصطفى النحاس لأول مرة الى مكتبه وذهب اللورد كيلرن بوصفه سفير بريطانيا صاحبة الدبابات — الى رئاسة مجلس الوزراء ...

وكنت وقت ذاك واقفا فى فناء مجلس الوزراء أشهد الوفود الهاتفة بعودة الوفد الى الحكم بعد الغياب الطويل ، وكانت الجماهير الهاتفة تعلم جيدا كيف جاء مصطفى النحاس الى الحكم ، ولكن هذا لم يكن يعنيها فى شىء .. بل كان الذى يعنيها أن يعود مصطفى النحاس .. وشهدت هذه الجماهير المتحمسة اللورد كيلرن وهو ينزل من سيارته فأسرعت اليه تهتف له وتحييه ..

ثم وقعت الكارثة ، اذ حملته على الأعناق .. ثم كان ختام الكوارث كلها ظهور النحاس وكيلرن معا فى شرفة مجلس الوزراء يتلقيان تحيات الجماهير ..

هذه الأحداث الجسام التى وقعت فى أيام قلائل من الأسبوع الأول لشهر فبراير سنة ١٩٤٢ هى فى رأيى ، كما فهمت ، فاتحة كل

الأحداث الأخرى التى بدأت فى ٢٣ يوليـــو سنة ١٩٥٢ وانتهت بعزل الملك فاروق فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ .

لقد برزت عناصر المؤامرة التى خلقت ٤ فبراير ، ووضح أن مصطفى النحاس كان يعلم قبل هذا التاريخ أن الانجليز سيطلبون عودته الى الحكم ، ولهذا رفض فكرة الوزارة القــومية ، ورفض أن يشترك فى أى اجماع على احباط مؤامرة الانجليز لأنه كان قد وعد بالاشتراك فى تنفيذها حتى النهاية ، ولم يكن توقيعه برفض الانذار ليبدل من مواقيت المؤامرة لأنه وان دل فى الظاهر على الاشتراك فى الرفض فانه فى الواقع لا يعنى خذلان الانجليز واحباط تدبيرهم ، اذ أنهم يملكون رفض هذا الرفض — وهذا ما كان — فقد مضــوا فى انذارهم حتى النهاية — وكانت النهاية أن يتولى مصطفى النحاس الحكم .. !

وكان المعروف ان الاعتذار الذى قدمه الانجليز ، بناء عــلى طلب أعضاء الوفد ، كشرط لاشتراكهم فى الوزارة — قد يخفف قليلا من حدة هذا الحادث الضخم .. ولكن الاعتذار فقد قيمته بعــد كشف المؤامرة أخيرا ومعرفة أن مصطفى النحاس اشترك فيها من البداية ، بل أصبح هذا الاعتذار فصلا أخيرا أضيف الى فصول رواية ٤ فبراير لترضى الجماهير التى لا يطيب لها النهايات المفجعة فيما تشاهد من مسرحيات وروايات .

ولا شك عندى حتى هذه اللحظة فى أن مكرم عبيد لم يكن يعلم شيئا عن هذه المؤامرة النحاسية البريطانية ، بل لقد كشفت الحوادث عن أن مدبرى تلك المؤامرة والمشتركين فى تنفيذها ، رسموا خطة أخرى لابعاد نفوذ مكرم وتأثيره على النحاس ، واحلال عنصر جديد محله حتى ينفسح الطريق أمام الذين يطلبون الثراء عن طريق الحكم وينتهزون فرصة الحرب لتحقيق هذا الثراء ..

لم يكن مكرم على علم بهذه المؤامرة ، ولم يكن قد فقد ثقته بعد فى

مصطفى النحاس ، أو فى وطنية مصطفى النحاس ، ولهذا فكر أول ما فكر فى العمل على ازالة أثر حادث محاصرة قصر عابدين بالدبابات قبل أن تؤلف الوزارة ، ولقد أحس فيما بعد ، وبعد أن قطعت الوزارة شوطا فى عملها ، أن الذين أحاطوا بمصطفى النحاس بدأوا يباعدون بينهما ، ولكن على الرغم من هذا ، وعلى الرغم من نجاح المتآمرين فى خطتهم التى انتهت باخراجه من الوزارة وفصله من الوفد ، ظل مكرم الى وقت غير بعيد لا يتصور أن مصطفى النحاس كان شريكا فى هذه المؤامرة ..

ولمكرم عذره .. فقد كانت العلاقة التى تربط الرجلين علاقة جهاد ، ونضال ، ونفى ، وتشريد ، واضطهاد ، ولم يكن يتبادر الى ذهن مكرم أن الرجل نسى كل هذه السنوات وكل هذه المواقف لمجرد الشهوة فى الحكم ..

ولكن لم تكن فى الواقع شهوة الحكم ، بقدر ما كانت شهوة فى الثراء تستبد بقرينة الرئيس السابق مصطفى النحاس حتى لأكاد أجزم بأن زواج مصطفى النحاس هو العامل التاريخى الكبير الذى كان له أكبر الأثر فى كل تلك الأحداث السياسية التى مرت بالبلاد ..

كانت السيدة قرينته لماحة الذكاء شديدة الطموح ، لا تريد من هذا الزواج كسبا سياسيا ، ولم تكن تنظر الى مهمتها بوصفها زوجة لزعيم سياسى كبير على أنها مهمة وطنية تقتضيها أن تقف الى جوار زوجها وتسنده ، وتدفعه الى مواجهة الأخطار فى سبيل بلاده ، لم تكن تؤمن بشىء من ذلك كله وتعيره أى اهتمام ، ولم تكن ترى الوطنية جوهرة تحلى بها جيدها ورأسها فى المجتمع المصرى .. انما كانت تحب المجوهرات والأحجار الكريمة ذات القيمة الغالية فى سوق البيع والشراء ..

لم تكن الزعامة السياسية مالا يصلح للإدخار ، وهى تحب أن تعد

عدتها للمستقبل وتنظر كل يوم الى قرينها فتجد الفارق فى السن بينها وبينه كبيرا ..

ولم تكن تعى أنه يستحق أن يخدم .. لأن الخدمة الحقة فى نظرها لا تستحقها الا فى الضياع والأراضى الزراعية التى تدر ايردا دسما كل عام .

وهى بعد هذا كله تنظر الى تاريخ زوجها الطويل فى خدمة مصر ، ثم تنظر الى رصيده فى البنك ، فتراه بالقروش والملاليم ..

ولا شك أن مصطفى النحاس كان يحس فى الوقت نفسه أنه رجل تقدمت به السن ، وأن السيدة التى تزوجها جميلة ما تزال فى ميعة الصبا ، وانها تريد الاستمتاع بكل مباهج الحياة ، ولم يكن يملك الا اسمه وزعامته وشهرته الوطنية ، وقد أحس كما يحس كل رجل أن هذا الاسم الرنان ، وهذه الزعامة « المقدسة » ، وهذه الشهرة الوطنية ، لا تساوى فى نظر السيدة قرينته شيئا ، انها كلها فى نظرها بضاعة رخيصة ، تنتهى بنهاية صاحبها .. النهاية المحتومة لكل فرد .. !

ولم تكن السيدة زينب الوكيل تنكر شيئا من هذا كله ، بل كانت تجاهر به وتعلنه فى غير ما تلويح أو تلميح ، فقد أقيلت الوزارة الوفدية فى ختام عام ١٩٣٧ ، وذهب أعضاء الوفد الى منزل مصطفى النحاس ، وأخذوا يتدارسون خطوات كفاحهم المقبل ، وجلست السيدة زينب الوكيل معهم واستمعت الى كلامهم « الاجوف » ! .. ثم انفجرت قائلة : « كفاح ايه وجهاد ايه ؟ .. هل هذا يؤكل أو يشرب ، وماذا يساوى بالجنيهات .. ؟ »

وكانت اللغة جديدة على مسامع أعضاء الوفد ، فقد اعتادوا أن يجلسوا الى السيدة صفية زغلول فى هذه المناسبات ، وأن يستمعوا ، اذا وجدت من واجبها الكلام ، الى أصدق آيات الوطنية والوفاء نحو مصر ، تتحدث بها فى أسلوب كالأسلوب الذى كان يتحدث به سعد

زغلول ،.ولم يسمعوا منها مرة تقييما للجهاد بالجنيهات والقروش !!
واستمع مصطفى النحاس الى حديث قرينته ، ثم ابتسـم ولم يتكلم ، هذا الحادث الذى تحدث به أكثر من واحد من أعضاء الوفد ، كان ايذانا بانفجار الثورة التى اعتملت فى نفسها أربع سنوات أو تزيد ، حين كان الوفد مبعدا عن الحكم ، ثم جاءت حكومة الوفد على أسنة الرماح البريطانية ، فانفجرت الثورة الحبيسة ودمرت ما دمرت من القيم والنظم والأوضاع لتبنى على أنقاضها الثراء الواسع والجاه العريض ٠٠ !

ولسنا نعرف بالضبط دور السـيدة زينب الوكيل فى مؤامرة ٤ فبراير ، ولكن الذى لا شك فيه هو أنها كانت خلال تلك الفترة التى أقصى فيها الوفد عن الحكم تحاول أن تغـير من تاريخ مصطفى النحاس واتجاهاته ، والذى لا شك فيه أيضا أن مصطفى النحاس كان وهو يرى السن تتقدم به ينساق وراء قرينته ، لقد كانت الايام تمر والأسابيع تكر ، والشهور تتوالى ، والسنوات تمضى ، ولا أمل فى الحكم ، ولا رجاء فى أن يأتى النحاس مرة أخرى حاكما ٠٠

وكان قد انقضى أكثر من عام على اقالة الوزارة ، ثم أعلنت الحرب العالمية الثانية ، وبدأت تطرق أذنى السيدة زينب الوكيل أنبـاء الصفقات التى تعقد ، والثراء الذى يتدفق على التجار ، وكان الى جانبها أخوة لم ينالوا قسطا من التعليم ، ولكنهم يرون الفرصـة سانحة لسد هذا النقص ، بانتهاز فرصة الحرب والنزول الى ميدان التجارة لاشباع طموحهم الى الثراء ٠

كل هذه الظروف لعبت دورا خطـيرا فى حيـاة الزعيم الوطنى مصطفى النحاس ، فأذابت كفاحه وجهاده وتاريخه ، ودفعت به فى ٤ فبراير الى الحكم فوق أسنة الحراب البريطانية ٠٠ وأنسته تاريخه وجهاده وذكرته بشىء واحد هو ارضاء زوجته الشابة ٠

هذه حقائق تكتب للتاريخ ، ولو أن أعضاء الهيئة الوفدية كانوا

قد وجدوا من أنفسهم الشجاعة للوقوف فى وجه هذه السيدة لتغير وجه التاريخ ، ولظلت لمصر زعامة وطنية على مدى الأيام ، ولعرف فاروق أنه يواجه رجالا لا تحكمهم سيدات ، ولما نزل الى الدرك الأسفل من الانحطاط والفساد والرشوة ، حتى صار أسوأ مثل للمساوىء فى تاريخ العالم الحديث .

ولقد حاول أربعون نائبا من نواب الهيئة الوفدية ، وكنت واحدا منهم ، أن يقفوا فى وجه السيدة زينب الوكيل ، فعقدوا لهذا الغرض عدة اجتماعات فى بيت مكرم عبيد ، وكان الحماس يدفع النواب الى الكلام فى هذا الموضوع بصورة فاضحة ، ثم تم الاتفاق على أن يتقدم هؤلاء النواب بطلب الى رئيس مجلس النواب لمناقشة بعض تصرفات الوزارة فى مسائل كانت السيدة زينب الوكيل طرفا فيها .

ووقع النواب الأربعون جميعا على هذا الطلب فى حماس واندفاع ..

وقدم الطلب الى رئيس المجلس ، الأستاذ عبد السلام جمعة ، فانتهز فرصة عقد جلسة سرية لمناقشة بعض المسائل العسكرية ، وأمر بتلاوة الطلب المقدم من النواب مما سأبينه بالتفصيل فى الفصول التالية .

ولم تناقش الوزارة الموضوع لأن الغالبية رفضت ، وهذا ليس بيت القصيد فى الموضوع ، بل المهم هو الكارثة التى وقعت فيما بعد وأطاحت بكل أمل فى الحياة النيابية .

فقد انتهت الجلسة ، وبدأت المناورات والاتصالات بالذين وقعوا العريضة ، وتكشف الأمر عن مخاز وفضائح ، منها أن بعض الذين وقعوا طلب المناقشة كانوا من أصحاب المصالح ، وقد اتخذوا هذا الطلب سبيلا الى المساومة ، ومنها أن عدد الموقعين تناقص فى تلك الليلة بالذات وتضاءل الى أن أصبح هزيلا ، فلقد أعلن أصحاب المصالح أنهم سحبوا توقيعاتهم لأنهم كانوا مخدوعين ، وقضيت

مصالحهم فى نفس تلك الليلة ، وقد أدركت فيما بعد لماذا كان هؤلاء المتراجعون هم أكثرنا جميعا حماسا واندفاعا وتحريضا لمكرم عـلى تقديم طلب فتح باب المناقشة فى سياسة الوزارة ، فقد كانوا يعلمون أن هذا هو سبيلهم السريع الى قضاء مصالحهم ، وكانوا يعلمون أن الوزارة لن تقضى لهم هذه المصالح بالسرعة التى يريدونها ، وبالكيفية التى تتم بها مصالح السيدة زينب الوكيل وأشقائها ، الا اذا اتخذوا هذا الموقف الايجابى الحازم ، وقد صـــدق ظنهم ، ونجحوا فى ليلة واحدة فيما فشلوا فيه أسابيع وشهورا •

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل بذلت محاولات جبارة مع من بقى من النواب مع مكرم ، عقب تلك الليلة ، ولم يكن القائم بهـــذه المحاولات مصطفى النحاس ، أو فؤاد سراج الدين ، بل السيدة زينب الوكيل وبعض أشقائها ، فقد بدأت تدعو بعض هؤلاء النـــواب الى زيارتها فى منزلها وتحاول اقناعهم بوسائل دبلوماسية ، يعجز عنها أكبر رجال الدبلوماسية ، ونجحت الوسائل مع البعض ، وفشلت مع الذين أبوا أن يعاملوها أو يستجيبوا لدعوتها ، ولو لم أكن أنا واحدا من الذين طلب اليهم مقابلة السيدة زينب الوكيل ورفضوا ، ما ذكرت هذه الواقعة ، وما كنت أعتقد أن هذه السيدة لعبت الدور الأكبر فى كل هذه الأحداث التى مرت بمصر فى تلك الفترة ، حتى انتهت بطرد الملك فاروق ، ولقد ترتب عـــلى الرفض من جانبى أن فصلت من مجلس النواب فى ليلة واحدة ، وفى مناقشة لم تستمر أكثر من خمس دقائق •

كان الشعب مع هذا كله يعيش فى غفلة عن الأحداث التى تمر به ، لم يتنبه لخطرها على كيانه وكرامته ، واســـتخدم الوفديون المهارة التى عرفوا بها فى تأويل الأحـــداث والترويج لدعاويهم ، فراحوا يهاجمون كل من يتعرض لحرم الرئيس الســـابق مصطفى النحاس من ناحية حساسة ، وهى الانكار أو تصنيع الانكار لأن

تهاجم سيدة ، واستخدمت السيدة بدورها ايمان الشعب بهذا المبدأ « الانسانى النبيل » ، واستغلته فى خدمة أغراضها ، فراحت تندفع فى سياستها وهى واثقة أن هناك ما يحميها ، وهو ذلك المبدأ الانسانى ، ثم وجدت فى زوجها رجلا طيعا ، يعقد مؤتمرا صحفيا يضم أصحاب الصحف ورؤساء تحريرها ، ثم يشرح لهم من أين أتى هذا المال لزوجته ويرد مصدره الى الجواهر الموروثة والهدايا التى أغدقت عليها بمناسبة زواجها ، ثم ما لبثت أن رأت الرقابة التى فرضت للحرب تسخر من أجل حمايتها فلم تتورع عن ارتكاب الأخطاء ، حتى أصبحت فى فترة وجيزة سيدة ثرية ثراء ضخما لها حساب كبير فى بنك ، حل محل حساب زوجها القديم .. حساب القروش والملاليم ، حساب الوطنية والنزاهة والكرامة والجهاد .

وسقط مصطفى النحاس فى الميدان ، ولكن الشعب ظل يسنده عن جهل وايمان بأن النزيه لابد أن يظل نزيها مدى الحياة .

ومن ثم كانت مسئولية الشعب فى هذا الذى حدث مسئولية ضخمة ، فهو مسئول الى حد كبير عن فتح باب استغلال النفوذ على مصراعيه ، وهو مسئول عن هذا الفساد الذى استهوى رجال الحكم ، ثم استهوى الملك ومن أحاط بالملك ، حتى قادوا البلاد الى الهوة السحيقة التى لوثت سمعتها ، بل وقضت عليها .

ولقد حرصت محكمة الثورة خلال محاكماتها للوفديين ، على ابراز هذه الناحية فى صورة واضحة ، فكانت ترى أن الخطأ الصغير الذى ارتكبه حزب الغالبية الشعبية لايقل جرما عن الاخطاء الكبيرة ناهيك بأخطاء مصطفى النحاس والسيدة زينب الوكيل ، وهى من النوع الضخم الكبير ..

لقد أسهم الشعب ، وهذه حقيقة يجب أن يعرفها الشعب ، فى تشجيع النحاس وحرمه على ارتكاب كل هذه الأخطاء ، لأنه أساء الظن بكل الذين اتهموا الرجل وزوجته ، ولأنه أبى أن يحقق أو

يدقق أو يطلب من مصطفى النحاس تقديم الذين اتهموه بهذه التهم «الباطلة» الى المحاكمة ، وقد يلتمس بعض الناس العذر للشعب لأنه لم يكن يتصور أن رجلا كافح وجاهد وضحى فى سبيل بلاده ، ينقلب بين يوم وليلة الى ما انقلب اليه ، وقد يكون لهـذا النفر من الناس بعض العذر فى البداية ، ولكن الوقائع كانت تتكشف يوما بعد يوم ، وكان الشعب يسمع كيف تدفع الرشاوى ، وكيف تلغى الاحكام العسكرية وتعدل وتبدل ، وكان يعلم أن الرجل كان فقيرا ثم أصبح واسع الثراء ، فكان عليه أن يسأل من أين أتى بهذا كله ؟

بل لقد كان بعض الوفديين الذين يميلون الى الرجل يدافعون عنه بحجة أنه لا يعرف ما يجرى وراء ظهره ، وبأن اللوم كله يقع على حرمه ، ولكنهم لم يجدوا من أنفسهم الشجاعة على مواجهة زعيمهم بين أربعة جدران بهذه التهم الخطيرة ، ويطالبونه بوقف هذا الاتجار بأقوات الشعب والثراء على حسابه .

كانت هناك ألف وسيلة ووسيلة ، ولكن بعضهم تملكه الجبن ، والبعض الآخر كان صاحب مصلحة ، والبعض كان قد عرف باب الدخول الى هذا الثراء فدخله ، ولعن الوطنية والتضحية والجهاد ..

وثمة سبب آخر كان يدفع بالشعب الى الوقوف فى جانب مصطفى النحاس ، وهو كراهة حزب الغالبية للأحزاب المعارضة ، وهذا مثل صارخ للتعصب الحزبى ، ومهما يكن الرأى العام فى الأحزاب المعارضة فانها كانت الى حد كبير أنزه من حزب الغالبية ، وكانت أخطاؤها فى الحكم أقل بكثير ، بل انها تكاد تكون معدومة اذا قيست بالأخطاء الجسيمة التى كان يرتكبها حزب الأغلبية وزعيمه وزعيمته .. !!

وفى اعتقادى أن الموقف كان يتغير كثيرا لو أن الأحزاب المعارضة اندمجت فى حزب واحد ، وتناست خلافاتها وتناحرها على المسائل الشخصية ، نعم كان الوضع يتغير كثيرا ، وكان يمكن اغلاق الكثير من الأبواب التى كانت تفتح للمساومات .. فان تلك المساومات

أدت الى اضعاف كل حكومة من حكومات الأقليات وسمحت للملك أن يتلاعب بكل وزارة ، وفى كل عهد ، حتى انقلب حكمه الى ديكتاتورية طاغية لا هم لها الا قضاء مآربه وأطماعه الشخصية .

يقول المتصلون بالملك السابق أن حادث ٤ فبراير ، وموقف الشعب من اللورد كيلرن ومصطفى النحاس هو الذى جعله ينحرف عن سياسته القديمة ، التى جاء بها الى العرش ، ويخرج الى النوادى والكباريهات ليفرج عن نفسه .

ولست أشك فى أن هذا الحادث كان عاملا قويا فى تغيير نظرته الى حياته « كملك شعبى » ، ولكنه لم يكن العامل الوحيد ، فهناك الى ذلك عوامل أخرى ، اذ كان بطبيعته يميل الى الشر ، وكان ناقص التعليم أيضا ، وعندى أن المسئول عن ذلك الى حد كبير هو الرئيس السابق على ماهر ، رئيس الديوان ، ثم الصحافة المصرية بوجه عام ! .

ذلك أنه عندما توفى الملك فؤاد ، كان فاروق فى لندن يتلقى العلم كما كان يقال ، ورأى الرئيس السابق على ماهر أن يعود فاروق الى مصر ، وأن يعتلى العرش ، وأن يحسب سنه بالتاريخ الهجرى ليتفادى النقص اذا حسب بالتاريخ الميلادى ، لأنه لم يكن قد أكمل بعد السن التى يسمح بها الدستور لمن يتولى عرش البلاد .

واندفعت الصحافة تؤيد هذا الاتجاه ، ولم يخرج صحفى واحد على الاجماع ليناقض الرأى ، ويقول ان مصلحة مصر أن يتم الملك تعليمه وأن تزاد الرقابة عليه ، وأن يعد ليكون ملكا صالحا ، بل لقى الرأى القائل بعودته تأييدا اجماعيا ، وبدأت الصحف تروى القصص الخيالية عن الملك الشاب ..

كيف يحب الملوخية وكيف يتقن طهيها .. !

ان الملك يندمج مع عمال السراى ويتبسط معهم فى الحديث ويدخل معهم فى قافية النكت .. !

ان ثقافة فاروق موضع اعجاب الشعب البريطانى ، وقد بهرته هذه الثقافة .. ولست أدرى بل ولا أستبعد أنه لولا التقاليد البريطانية العريقة لقالت هذه الصحف فى غير خجل أن الشعب البريطانى يكاد يتمسك بفاروق ملكا على عرش بريطانيا .. !

ومضت الصحف تغذى الرأى العام بالترويج لفكرة عودة الملك حتى انهارت كل معارضة ، على أنه لم تكن هناك معارضة جدية ، فقد كان كل فرد ينظر الى المستقبل ويضع موضع الاعتبار أن كل ما يكتب ويقال سيعرض على الملك بعد ان يصبح الامر أمره والتصرف تصرفه ..

وعاد الملك الشاب ، فاستقبل استقبالا لم تشهده مصر من قبل .
كان وسيما ، فاندفعت النساء فى تأييده ..
وكان شابا ، فاندفع الشباب فى حبه ..
وكان حزينا ، أو متظاهرا بالحزن ، فأثار عطف الجميع .
وكان الحب الذى يكنه الشعب لفاروق حبا خالصا لوجه الله والوطن .. ولكنه لم يلبث أن قضى على هذا الحب وحوله الى كراهية ، كما يتحول الثلج الابيض بعد العاصفة الى ماء فى وحل ، وكان رجلا لوث سمعة مصر وسمعة العرش ، وسمعة الحكم المصرى .

كيف حدث هذا ، وكيف انقلب الى كراهية ؟ وما هى العوامل التى لعبت دورها فى هذا كله ؟ لا أحد يدرى بالضبط ، ولكنى أرجح أن الكراهية بدأت يوم بدأ يستخدم حقه فى اقالة الوزارة الوفدية ، فقد كان الشعب وفديا يندفع فى تأييد الوفد ، ثم جاءت الاقالة الأولى صدمة لشعور الشعب فى عام ١٩٣٧ ، وبدأت الحرب بين الوفد والسراى وكانت حربا صريحة أطلقت فيها قذائف الشائعات حول الملكة الوالدة نازلى ، وتواترت الأحاديث والقصص تحمل الكثير عن علاقاتها الغرامية .. ثم وقع حادث ٤ فبراير وكان موقف الشعب من تأييد اللورد كيلرن ، والهتاف له وحمله على الأعناق فى

فناء رئاسة مجلس الوزراء نكاية فى الملك وفرحة بعود الحكم الوفدى فانقلب الملك على الشعب ، وكان يتدرج فى انقلابه ، حتى وصل الى الكراهية والاشمئزاز والاستهتار . وأحاطت به بطانة الشر فاستغلت نزعاته الى الشر حتى جعلت منه طاغية جبارا لا يصلح الا للغزل والطرب .. !

هذا جانب الملك .. أما الوفد فكانت الخلافات التى سبقت ولحقت هذه الفترة قد أضعفت قوته ومقاومته .. حتى انفصل عنه الحزب السعدى ، ثم انفصلت عنه الكتلة الوفدية فكثرت الأحزاب وراجت سوقها فى مصر ووجدها الملك فرصة فأخذ يلعب بالوزارات كما يلعب بالشطرنج ليرضى بذلك شراسة خلقه ويحقق أغراضه السيئة، وكان سبيله الى ذلك هو التلاعب بهذه الأحزاب ، حتى اضطر الوفد ازاء الاقالات المتكررة ، وتحت ضغط السيدة زينب الوكيل ، أن يخضع وأن يحنى رأسه للطاغية ، حتى عزله الجيش .

وهكذا نرى أن مسئولية كل ما حدث فى مصر ليست مسئولية فردية ، بل هى مسئولية شعبية وحزبية ونسائية .

فلو أن السيدة زينب الوكيل تناست أطماعها ورغباتها الجامحة فى الثراء ...

ولو أن الأحزاب تناست خلافاتها واندمجت فى ظل أهداف مشتركة لتوقف تيار الجبروت الذى كان يندفع من قصر عابدين .

ولو أن الملك أحس أنه يواجه رجالا وطنيين .

ولو أن الشعب كان يفهم الأمور فهما وطنيا ، لا حزبيا ..

لو أن هذا كله حدث ، ما وقعت مصر فى هاوية الفساد .. ولكانت السنوات التى تلت توقيع معاهدة عام ١٩٣٦ سنوات خير على البلاد،

ولكان طرد الانجليز من أرض مصر فى مقدمة ما يعم البلاد من الخير الذى كنا نهدف له جميعا ..

ولكن كلمة « لو » لا تذكر الا بعد وقوع الكوارث ، فلا يكون لها من مدلول الا .. الأسف .. والحسرة .. والندم ..

الفصل الثانى

مولد الكتاب الأسود

كان مولد فكرة الكتاب الأسود فى بداية الأحداث التى صدرت من السيدة زينب الوكيل ..

ومن الذكريات التى لا تبرح ذهنى ، ذكرى اللحظات الأولى التى ولدت فيها فكرة « الكتاب الأسود » ، أو فكرة الوثيقة التى هزت أركان الفساد فى مصر ، ومهدت الطريق لحركة التطهير الشاملة التى أطاحت بالأحزاب السياسية ، ووضعت الأسس وأرست القواعد لبناء عهد جديد فى مصر .

لم تكن الفكرة عند مولدها فكرة كتاب ، بل كانت فكرة عريضة مفصلة « ترفع » الى ملك مصر ، وكان الملك السابق فاروق يرقب هذا الفساد ويمهد لمحاربته ، أو هكذا على الاقل كنت أتصور الملك فى ختام عام ١٩٤٢ ، وفى خلال عام ١٩٤٣ ، يوم ولدت الفكرة ، ويوم كبرت ، حتى أصبحت كتابا ضخما طبع ووزع فى عهد الأحكام العرفية ، وفى خلال فترة من فترات الحرب الثانية كان الرئيس السابق مصطفى النحاس يحكم فيها مسنودا الى جراب بريطانيا ، وتأييد بريطاني مطلق ، ولم أكن أتصور أن الملك سيصبح فى خلال عشر سنين واحدا من الذين دمغ عهدهم بمجلدات سود تطفح بالمخازي والفضائح واستغلال النفوذ حتى صار « الكتاب الأسود » الى جانبها ضئيلا هزيلا .

ومهما يكن من أمر هذا الانقلاب فى تفكير فاروق ، واتجاهاته والأسباب التى دفعت اليه ، حتى تحول الى صورة شائنة من صور

الفساد ، فالذى لا شك فيه أنه كان فى عام ١٩٤٣ متحمسا لفكرة الكتاب الأسود تحمسا كبيرا وكان يتابع أنباء اعداده ، ويسأل عما تم طبعه ، وعن الاحتياطات التى اتخذت لمنع الحاكم العسكرى من افساد هذه الخطة ، حتى لقد قبل أن تودع صورة الكتاب وملحقاته من الوثائق فى احدى خزائن سراى عابدين الى أن يحدد موعد تقديمه اليه واذاعته على الناس .

هل كان الأمر كراهية للنحاس ولعهد النحاس ، أم انه كان صادقا فى نيته فى مهاجمة العهد لأنه اتسم بالفساد ، ولأنه يسىء الى سمعة الحكم اساءة لاتغتفر ، أم أن الملك السابق كان فاسدا كذلك ثم أراد التظاهر بالقضاء على فساد حكومته ليستر بذلك فساده ، الذى أستطيع أن أقوله على قدر ماأعرف هو أن تأييد فاروق للفكرة يرجع الى أنه كان لا يزال يعيش فى خريف حكمه الطيب ، وأن فكرة محاربة فساد الحكم كانت هى الغالبة على تفكيره

ولم يقف بى الشك فى فاروق وحده ، بل لقد انتقل الى صاحب الكتاب نفسه وكاتبه ، فأخذت أتساءل : ما الدافع القوى الذى حمل مكرم عبيد على اخراج هذا الكتاب .. ؟ ولو أنى سئلت هذا السؤال قبل صيف عام ١٩٤٦ ما ترددت فى الجزم بأن الرجل كان مخلصا فى فكرته وفى اتجاهه ، ولكن وقعت فى صيف عام ١٩٤٦ الكارثة ، فأثارت فى نفسى هذا التساءل .. هذه الكارثة هى التى أعلنها مكرم بالقبلة التى قدمها للرئيس السابق مصطفى النحاس ، وفى اعلانه عن مهادنته « لجميع الأحزاب السياسية » بما فيها الوفد ..

لقد كنت فى ذلك الوقت واحدا من رجال حزبه العاملين .. ولم أكن أعرف شيئا عن اتجاهاته ، لأنى كنت غائبا فى رحلة صحفية بالولايات المتحدة الأمريكية ، وسمعت النبأ أثناء تجوالنا وعند وصولنا الى مدينة شيكاغو .. سمعته من بعض الطلبة المصريين ، ثم

أخذوا يسألوننى فى لهجة ممزوجة بالدهشة والتساءل : « وأين ذهب الكتاب الأسود » .. ؟

ولم أشأ أن أتم رحلتى بل قطعتها وعدت الى مصر ، لأنى كنت أعتبر الكتاب الأسود عاملا له أثره وخطره فى سياسة مصر الداخلية ، وكنت أتوقع أن تظهر نتائجه ولو بعد حين ، وكنت أعتبر نفسى جزءا من هذه السياسة ، فقد كنت اشتركت فى وضع الكتاب الأسود ، وفى طبعه ، وفى تنظيم توزيعه ، بل وفى توزيعه بالفعل أيضا ، ثم اعتقلت بسببه ثمانية عشر شهرا عقب ذلك ، فلم يكن طبيعيا بعد هذا كله أن أرضى بأن يتحطم العمل العظيم على مذبح الأطماع الشخصية .

وعدت الى مصر وذهبت الى الأسكندرية لمقابلة الأستاذ مكرم عبيد ، وطرقت فورا هذا الموضوع الخطير ، وسألته كيف يقف هذا الموقف دون استشارة أحد من الذين ناصروه وضحوا معه ؟

وأجاب بأن هذا العمل يعتبر أحسن « أعماله » السياسية كلها ، لأنه ضرب به الملك ضربة لن ينساها .

قلت : « وماذا فعل الملك حتى تضربه هذه الضربة ؟ » .

قال : « ان الملك لم يعد يعنى بأمر الكتلة الوفدية عنايته السابقة، وأنه أهملها ورفض أن ينصرها فى مناسبات كثيرة » .

وكان الملك فى بداية عهد الوزارات الائتلافية التى شكلها الدكتور أحمد ماهر عقب اقالة حكومة الوفد فى أكتوبر عام ١٩٤٤ يناصر « مكرم » وحزبه مناصرة واضحة مكشوفة على أساس أنهما كافحا ضد عهد النحاس ومهدا لاسقاطه ، وكان هذا التأييد فى حد ذاته سببا فى أن قدم الدكتور أحمد ماهر استقالته أكثر من مرة ، وكان مكرم يعتقد أنه خسر كثيرا من الدوائر الانتخابية بسبب تدخل الدكتور ماهر فى سير الانتخابات ، وأنه لولا هذا التدخل لحصل على أغلبية ، وهذا غير صحيح ، وأغلب الظن أن مكرم كان يعلم أنه يغالط

نفسه ، فقد كان حزبه ما زال حـــديث التكوين لم تكن لديه هــذه العصبيات القديمة التى تكفل له عددا محترما من المقاعد ، والواقع أن مكرم كان لا يزال حتى ذلك الوقت يتخيل نفسه سكرتير الوفد القديم وكان يتحدث كما لو كان صاحب أغلبية سلبت منـــه ، بل كان من الصعب أن تنزع من ذهنه هذه الفكرة ، لتحل محلها فكرة « الجهــاد الجديد » بعدد بسيط من النواب والشيوخ .

وكانت طلبات مكرم لاتنتهى ، وكانت السراى تحاول اجابةالكثير منها بقدر المستطاع حتى أحست انها أوشكت أن تغضب الأحزاب المشتركة فى الوزارة وكانت السراى تحس الى جانب ذلك أنها خدمت مكرم وحزبه كثيرا ، وأن من حق الأحزاب الأخرى أن تنال حقها .

ومن هنــا بدأت **الحكومة** تقف فى وجـــه مكرم ولا تجامله ، وبدأ الخصام ووجد مكرم ، أو خيل اليه ، أن السبيل الوحيد لضرب الملك ضربة « قاضية » هو أن يصالح النحاس أو يهادنه .

وكانت جـــريدة الكتلة فى ذلك الوقت تحتل مكانا مرمـوقا بين صحف الصباح ، فما كاد مكرم يعلن عن سياسته الجديدة حتى انهارت أرقام توزيعها انهيارا وصل الى أربعة آلاف نسخة يوميا ، وكان هــذا الانهيار هو المقياس لحساسية الرأى العام ، فقد كان يقبل على قراءة الكتلة لأن سياستها واضحة محددة معـــروفة ، فلما انهارت هــذه السياسة وبدأت تنتهج سايسة أخرى ، انصرف الجمهور عن قراءة جريدة الحزب ، ولم يقتنع مكرم بهذه النتائج المحسوسة الملموســة ، وتمسك بأن هذا الانهيار راجــع الى ضعف فى التحرير ، ومحـــاربة الحكومة للجريدة فى التوزيع .. وهذا ما أستطيع أن أؤكد أنه غـــير صحيح .

قال مكرم موجها حديثه الى وهو يصف سياسته الجديدة : « لقــد كانت الهاما من السماء ، سترى أى أثر ستحدثه » .

وكنت أرجو لو أن مكرم خاصم الجميع ووقف موقفا يعلن فيه الحرب

على الجميع، الحرب على المفسدين ،والحرب على سياسة السراى،والاحزاب السياسية كلها ، ولست أعنى بالحرب « الهـــدم » ، بل الوقوف الى جانب الشعب فيؤيد ما يستحق التأييد ويعارض ويهدم ما يستحق المعارضة والهدم ، ولو أن مكرم فعل ذلك ، وتحت يده جريدة يومية ناجحة ، لكان وضع حزبه فيما بعد غير الوضع الذى وصل اليه ،ولكانت الحسنات التى حققها هذا الحزب كافية لأن تجعله مع العهد الجـــديد الملاك الوحيد للقضاء على كل عناصر الفساد .

ولكنه لم يفعل ، لأن سياسة الأحزاب فى ذلك الوقت لم تكن تفكر فى العمـــوميات بقدر ما كانت تفكر فى الخصـــوصيات ، ولم تكن الخصومات خصومات من أجل المصلحة العامة بقدر ما كانت من أجل المصالح الشخصية .

ومنذ ذلك التاريخ بدأت أنسحب من الكتلة تدريجيا ، ثم حاولت فى مجلة الأسبوع أن أحفظ لمكرم خط الرجعة ، فأعلنت « أن ســـياسة المهادنة التى رسمها مكرم بالنسبة للوفد والنحاس **كانت تهدف الى فكرة سياسية** ، وأن الواقع أن سياسة مكرم بالنسبة لزعيمه السابق ما زالت هى هى لم تتغـــير منذ فصـــل من الوفد وأصـــدر الكتاب الأسود .. »

وثار مكرم ثورة عنيفة عندما قرأ هذا المقال ، ودعا الحـــزب الى الاجتماع ، وكانت الفكرة أنه يجب أن أصدر بيانا أكذب فيـــه كل ما نشرت فى هذا المقـــال ، وكنت أعرف هـــذا الاتجاه ، فلم أذهب الى الاجتماع ورفضت ما حمله الى رسل مكرم من اصدار هذا التكذيب ، وفى الساعة الواحدة من صباح هذا اليوم أصدر الحزب قرارا بفصلى لخروجى على مبادىء الكتلة ، ولكن على الرغم من هذا القرار لم أقطـــع علاقتى بمكرم ، لأنى كنت أعتقد أنه ما زال هناك أمل فى أن يعود الى سابق موقفه فيحارب الفساد فى كل صوره ومصادره ، ســـواء أكان منسوبا الى فاروق أو منسوبا الى النحاس أو منسوبا الى الأحـــزاب

الأخرى ، لقد كنت آمل أن يعود مكرم الى موقفـــه السابق فيتحقق بذلك حزب مثالى للأمة ، وقدعاد مكرم فعلا ، ولكن كانت هذه العودة بعد أن طرد فاروق وبعد أن حلت الأحزاب وبعد أن أصبح الوضـــع القائم فى مصر غير الوضع القديم الكريه .

وقصة الكتاب الأسود تبدأ فى صيف عام ١٩٤٢ .

وكان مكرم يقضى الصيف فى الاسكندرية ، وكنت فى ذلك الوقت ممنوعا من العمل، تركت عملى فى جريدة المصرى بخروج مكرم من الوفد، وفصلت من مجلس النواب ، ولم يكن هناك مجال لأى عمل صحفى ، واجتمعت فى ليـــلة من ليالى الصيف بأحمد حسنين رئيس الديوان الملكى ، وتحدثت عن فضائح الحكم وكيف بدأت تتراكم حتى أصبحت بحيث يراها ويحسها الجميع الا الشعب ، فقد كان يشكو من الغلاء ، وقلة مواد التموين ، ولكنه مـــع ذلك لم يكن يشك فى أمانة الذين أحاطوا بمصطفى النحاس ويكذب الروايات التى تذكر عن ثراء الأقرباء والأنسباء على حساب قوته وقوت عياله .

وكان الانجليز يرقبون كل هـــذه الفضائح ، ويفركون أيديهم سرورا ، ذلك لأن هذا الفســاد كان لا يعنى الا أن يزداد النحـــاس اندفاعا فى أحضانهم وفى استجابة رغباتهم ، وكلما حاولت السراى أن تلفت نظرهم الى هذه المخازى والفضائح كان ردهم الوحيد هو أنه فى أوقات الحروب تنسى مبادىء النزاهة والشرف .

وقال أحمد حسنين أنه لا سبيل الى وقف هذا التيار .

وقلت : « بل يجب أن تسجل هـــذه المخازى فى وثيقـــة ترفع الى الملك » .

ورد بأنه لن تكون لها قيمة فى الوقت الحاضر ..

وكان أحمد حسنين يعنى أن هذه الوثيقة أو العريضة سترفع الى الملك ثم لا يقوى الملك على تحريكها أو اثارتها ، ثم يكتفى الديوان الملكى بتحويلها الى الوزارة .

على أنه مع هذا لم يكن أمام المعارضة ، أو بعبارة أصح ، أمام الكتلة الوفدية الا هذا السبيل ، ثم اتفق على أن لا تقدم العريضة الا بعد أن يكون الجو مرضيا لعمل ما من جانب السراى ٠

وذهبت الى رأس البر وبحثت الفكرة مـــع مكرم ، فلم يتردد فى الموافقة عليها ، وبادر فى اليوم التالى الى شرفة عشته برأس البر ، ثم جلس يضع الأسس التى ستقوم عليها هذه العريضة ٠

وبدأ مكرم يكتب مقدمة العريضة ، فكانت قطعة من الأدب الرفيع وقد وضح فيها وضوحا لا شك فيه أن مكرم ما زال يحس نحو صديقه القديم بأحاسيس الألم لهذه القطيعة التى نجح خصوم مكرم والوفد معا فى احداثها ، والواقع أن مكرم لم يكن يتصور أن هـــذه القطيعة يمكن أن تحدث فى يوم من الأيام ولا زلت أذكر يوم جلست اليه فى منزله وكان لا يزال وزيرا لمالية حكومة الوفد وكان الخلاف على أشده، ثم طلب من مكرم أن يستقيل من الوزارة فرفض ، وكان مكرم فى ثورة غضبه لا يتعـــرض للنحاس بكلمة واحـــدة ٠٠ ثم دق جرس التليفون وكان المتحدث رئيس تحرير الأهرام ٠٠ ونظرت الى وجـــه مكرم ٠٠ وهو يستمع الى ما يقرأ عليه ٠٠

كانت حركاته وقسمات وجهه تدل على أن شيئا ما قد حـــدث ، شيئا خطيرا أصاب قلب مكرم فحرك أحزانه ٠٠ لقد رأيت الدموع تتساقط من عينيه وكانت أول وآخر مرة رأيت فيها مكرم يبكى ٠٠

وعرفت عقب الحـــديث التليفونى مضمون ما كان يقرأه رئيس التحـــرير ، كان يقرأ دعوة موجهـــة الى الوزراء جميعا ، **عدا وزير المالية** ، للاجتماع فى اليوم التالى بدار رئاسة الوزارة ٠

ولم تزد الكلمات التى نطق بهـــا مكرم ممتزجـــة بالدموع عن « كده يا نحاس » ٠٠

لقد كان مكرم ما زال يأمل فى أن يتحرك قلب صديقه **مصطفى** النحاس وتتحرك فيه ذكرى الماضى ، ذكريات النفى **والاضطهاد** ،

فتشجيعه على مواجهة حرمه واصهاره وأقاربه ، ومصارحتهم بأنه ليس هناك فوق الأرض من يقوى على الفصل بين مكرم والنحاس .

ولكن مكرم كان رجلا طيب القلب ، لقد نسى أن القوة التى كانت تواجهه كانت قوة امرأة سلبت زوجها كل عاطفة نحو غيرها ، لتقصرها عليها وحدها ، وأن الحكمة القديمة التى تقول « **لو أراد الشيطان أن يفصل بين صديقين أوجد بينهما امرأة** » هى حكمة اليوم ، وحكمة كل يوم .

ومع هذا وبعد أن خرج مكرم من الوزارة كان لا يزال يحن الى الرجل ويعطف عليه ويرثى له .

أعود الى قصة الكتاب الأسود فأقول أن مكرم بدأ يكتب مقدمة العريضة ، وظل يكتبها بقية الصيف يغير فيها حرفا ويزيد فيها سطرا ، وينمق فى رثائه لزعيمه وصديقه القديم ، فلما عاد الى القاهرة بعد أن انتهى الصيف كانت مقدمة العريضة هى كل ما كتب ..

وفى القاهرة بدأت الفضائح تتجمع ، وأخذ موظفو الحكومة يختلسون لحظات من ساعات الليل يجتمعون فيها بمكرم ويمدونه بالوثائق والمستندات والمعلومات .

وبدأ مكرم المحامى يرى نفسه أمام قضية كبيرة ، قضية نزاهة الحكم ، فوضع قضايا مكتبه جانبا وبدأ يتفرغ لهذه القضية الكبرى .

قال لى ذات ليلة : « ان العريضة تتسع ... »

قلت : « فلتكن كتابا » .

قال : « وما رأيك فى طبعه وتوزيعه فى نفس الوقت الذى يقدم فيه الى الملك » ؟

وكانت فكرة عظيمة رائعة ، ذلك لأن الرقابة المفروضة على الصحف لم تكن لتجعل للعريضة أية قيمة ، الا اذا أمكن أن يقرأها

الشعب ، وأن يسمع بها الجميع ، وهذا وحـــده هو السبيل لارغام الوزارة على الكلام ومواجهة الحقائق الصارخة التى يحملها الكتاب .
وكان علينا بعد هذه الخطوة أن نشترى المطبعة والورق وأن نختار عمالا يكتمون السر ..

قال : ان العملية ليست سهلة وليست هناك مطبعة عامة تقبل أن تطبع الكتاب قبل أن يعرض على الرقابة والبوليس. وكل هذا معنـاه أن تتسع العملية وأن يشترك فيها عدد كبير .

ودرست فكرة طبع الكتاب على أساس أن يشترك فيه عدد كبير من مؤيدى الكتلة وأنصارها دون أن يعلموا أنهم يشتركون فى طبع « كتاب » لا تحبذه الرقابة .

فكان يكلف البعض بشراء الورق ، من غير أن يعلم « فيم يستعمل هذا الورق » ، ويكلف البعض الآخر بشراء المطبعة ـ من غير أن يعلم فيم تستعمل هذه المطبعة .. أما العمال فرأينا أن نختـــار ثلاثة يرضون بأن يظلوا بعيدين عن ذويهم فترة غير محدودة ، ويقبلون عن طيب خاطر الا يغادروا المكان الذى سيعملون فيه .
وتمت العملية فى فترة قصيرة وبدأ الطبع .
وكانت « الملازم » التى ينتهى طبعهـــا تنقل فى فترات معينة من الليل الى جهات مجهولة لتحفظ فيها .. ولم تكن الكميات المطبوعة توضع فى مكان واحد ، بل كانت توزع فى أماكن متفرقة ، وكان مكان المطبعة يغير من وقت الى آخر ، يوما في الدور العلوى من شقة مهجورة ، ويوما فى بدروم منزل من منازل السكاكينى ثم استقر بها المقام فى عزبة مجاورة لمعتقل الزيتون ، وأخيرا اتخذت مقامها بجوار آلة من آلات الرى تعمل ليلا ونهارا ليغطى صوتها على صوت المطبعة وهى تعمل دون انقطاع .

وكان تقديرنا فى البداية أن يكون الكتاب صغيرا ، ثم أخذ يتضخم أسبوعا بعد آخر بفضل ما كان يتلقاه مكرم يوما بعد يوم من فضائح

كان يحرص كل الحرص على أن يستخرج صورا من وثائقها لتدعم كل ما يكتب ويسجل .

ولكن هذا التوسع فى سرد الفضائح كان سببا فيما وقع فى الكتاب من بعض الأخطاء ، ولقد كانت فكرة أحمد حسنين الاكتفاء بالقليل منها حتى لا يكون ثمة سبيل الى أخذ حقائقها بأى مأخذ مهما قل شأنه ، ولكن مكرم لم يوافق على ذلك لأنه كان مطمئنا الى صحة كل ما يكتب .

وانتهى مكرم من اعداد الكتاب ، وانتهت المطبعة من طبعه ، وهنا طرأت لرئيس الكتلة الوفدية « فكرة » أن يطبع فهرست يسهل على القارىء الرجوع الى محتويات الكتاب ، ولقد كان مكرم دقيقا فى عمله ، فأراد أن يكون الكتاب الأسود دقيقا .

وعارضت فى هذه الفكرة بحجة أن طبع هذا الفهرست لن يتيسر بالمطبعة الموجودة عندنا لأسباب ذكرت فيها أننا لن نستطيع شراء كميات أخرى من الورق ، ولكن أحد الزملاء الذين كانوا يعلمون سر الكتاب تطوع فقال أنه يستطيع أن يباشر تنفيذ هذه العملية فى مطبعة مضمونة ومأمونة من غير رجوع الى الرقابة ، وان الفهرست يمكن كتابته بحيث لا يفهم منه أنه فهرست لكتاب أسود ، وقبل مكرم هذا الاقتراح لأنه كان مقتنعا بضرورة هذا الفهرست ؛ ومتى اقتنع مكرم بفكرة يكون هو صاحبها ، فلا سبيل الى زحزحته عن هذا الرأى .

وطبع الفهرست فعلا ، ولكنه سقط فى يد البوليس .

وكانت الليلة التى ضبط فيها الفهرست ليلة ليلاء ، لم ينم فيها واحد ممن كانوا يعرفون السر ، لا خوفا من اجراءات الحاكم العسكرى وانما لأن هذا المجهود الجبار الذى ظل سرا مكتوما حوالى سبعة أشهر يوشك أن ينهار ويسقط غنيمة باردة فى يد مصطفى النحاس .. المتهم فى الكتاب .

وكان يجب اتخاذ اجراء سريع ..

واتصلت بأحمد حسنين ، وأطلعته على هذه التطورات الخطيرة ، وكانت النسخة التى سترفع الى الملك مكتوبة بخط اليد فعلا ومعها حافظة بالوثائق الأصلية .

ورؤى فى تلك الليلة أن يحدد موعد تقديم العريضة بعد أيام .

وأن تودع العريضة بوثائقها فى احدى خزائن قصر عابدين ، وأن تسلم الى أحمد حسنين فى اليوم التالى ، ثم يتـــولى نقلها الى عابدين .

أما الكتاب فقد رؤى نقل ملازمه من الأماكن التى كان مبعثرا فيها الى مكان مأمون ، لتضم بعضها الى بعض ثم يغلف الكتاب فورا .

وأما التوزيع فقد وضعت خطة بحيث ترســل نسخ الكتاب فى « أقفاص الفاكهة » الى جهات القطر جميعها باسم أعضاء الكتلة ، وبداخل كل قفص تعليمـات تقضى بألا تفتح النسخ الا فى يوم ٣١ مارس سنة ١٩٤٣ ، وهو اليـوم الذى حـدد من قبل لتقديم العريضة وتوزيع الكتاب .

وفى تلك الليلة تم نقل ملازم الكتاب الى شقة سيدة من قريبات مكرم فى مصر الجـديدة تقع فوق شقق مكاتب يسـتخدمها الجيش الانجليزى ، وجمعت سيدات العائلة وكلفن بضم الملازم وتجليدها .

وفى اليوم التالى تسلمت العريضة المكتوبة بوثائقها ، ووضعتها فى سيارتى .. وظللت أسير فى شـوارع القـاهرة أربع ساعات متواليات حتى أيقنت ألا رقابة من البـوليس ، واتجهت رأسا الى منزل أحمد حسنين فى « الدقى » وسلمته العريضة .

وكانت السيدات قد بدأن العمل فورا ، ولكن لا يغادرن المنزل ، وقد قسمن الوقت فيما بينهن بحيث تعمل كل مجموعة ١٢ ساعه باستمرار .. !

وفى مساء ٣٠ مارس ١٩٤٣ كانت أقفاص الفاكهة قد سلمت الى

جميع أعضاء الكتلة الوفدية فى جميع أنحاء القطر ، وفى القاهرة دعى عدد كبير من أعضاء الحزب واطلعوا على السر ، ثم وزعت عليهم قوائم بأسماء الذين سيسلم اليهم الكتاب ، وطلب منهم أن يتسلموا نسخهم فى منتصف الليل من مصر الجديدة ٠٠ على ألا يبيتوا فى منازلهم ٠٠ وأن يبدأوا التوزيع فى الساعة الثامنة صباحا ، وأن يتوجهوا بعد ذلك الى سراى عابدين لانتظار مكرم عند الظهر ٠

وفى الساعة السابعة صباحا غادر مكرم منزله الى مكان مجهول ، على أن يقابل اخوانه فى قصر عابدين فى الموعد المحدد لتسليم العريضة ظهر يوم ٣١ مارس ١٩٤٣ ٠

وتمت العملية ، تمت بسرعة وبدقة لم تكن متوقعة ، ولم تقع نسخة واحدة فى يد رجال البوليس ٠

وكان مجلس الوزراء مجتمعا فى ذلك اليوم ، وعلم النحاس بهذه العملية فلم يتكلم ، ولم يثر ، ولكنه استدعى مدير الأمن العام المرحوم محمود غزالى فلما حضر هجم عليه يوسعه ضربا ٠

وكان البوليس السرى لا يزال يدرس الفهرس الذى ضبطه ويحاول أن يفهم ما المقصود منه ، وعندما علم بنبأ الكتاب ٠٠ حل اللغز ، ولكن بعد فوات الأوان ، وبعد أن كان مكرم يغادر قصر عابدين ، مطمئنا الى توزيع الكتاب والى تقديم العريضة ٠

كانت هذه العملية أضخم عملية سرية تمت فى ظل الرقابة العسكرية ، وفى ظروف قاسية كانت الصحف فيها لا تجسر على أن تذكر اسم مكرم عبيد تلميحا أو تصريحا ٠

ولزمت الوزارة الصمت فى الفترة التى بدأت بتوزيع الكتاب ، وانتهت بهذا الخطاب المشهور الذى أحيلت به العريضة الى الوزارة ، وظنت انها بهذا الصمت تستطيع أن تقضى على الضجة التى أثارها الكتاب ، وكانت تظن أن السراى لن تجرؤ على تحويل العريضة اليها

الا بالخطابات العادية التى لا تتضمن توجيها أو لوما أو طلبا ، اللهم الا مجرد العلم .

فلما تلقت العريضة مصحوبة بهـذا الخطاب المشهور والذى جاء فيه أن العريضة تحوى اتهامات خطيرة عن **نزاهة الوزارة وسمعة الحكم الوطنى** وخاصة لأن مقدمها مكرم عبيد (باشا) كان وزيرا فى الوزارة الوفدية وكان وزيرا عدة مرات ونقيبا للمحامين عدة مرات وقد قدمها بوصفه عضوا فى البرلمان ورئيسا للكتلة الوفدية المستقلة وأن له ماضيا طويلا فى العمل معكم وأن اتهامات كهذه لها خطورتها ، بدأت توعز الى نوابها بأن يتقدموا اليها بأسئلة تنطوى على ما فى هذا الكتاب .. وتقدم النواب بالأسئلة ، ووقف الوزراء يردون بما يشاءون من الأكاذيب عليها ، وبهذا اتسع أثر العريضة وبدأ الناس يتـداولون القصص ، ويتخاطفون الـكتاب لقراءته سرا ومعرفة ما تضمن من فضائح وحقائق .

والآن فلنرجع خطوة الى الوراء لنستعرض اسباب الخلاف بين مكرم والنحاس بوصفه أكبر حدث سياسى فى مستهل هذه السنوات العشر .

الفصل الثالث

قصة الصراع بين مكرم والنحاس

بدأ الخلاف بين النحاس ومكرم منذ اليوم الاول لتشكيل الوزارة الوفدية التى جاءت على أسنة الحراب البريطانية ...

وقال الذين ساروا وراء النحاس وأيدوه فى هذا الخلاف ان سره يكمن فى أن مكرم « حانق » لانه فقد سلطانه القديم فى الوفد ..

ولكن مكرم يرد على هذا الاتهام فى الكتاب الاسـود فيتساءل « ففيم وعلام نحنق وقد كنا فى كل أدوار الخلاف نشفق ونأبى الا أن نشفق ؟

«نشفق من أن ينهار ذلك البناء الشامخ الذى ساهمنا فى تشييده حجرا فوق حجر ، وفى تخليده أثرا بعد أثر » .

وقد كان هذا الرد من مكرم صحيحا وسليما . فقد كنا نرى بناء الوفد ينهار ..وكنا نشفق من عواقب هذا الانهيار على كيان مصر نفسها ، اذ بانهياره ينهار الحزب السياسى الذى واجه المستعمر وواجه مؤامرات السراى ومناوراتها . ومجمل القول أننا رأينا الحزب الذى كان أملنا جميعا آخذا فى الانهيار .

صحيح أن الوفد كان فى خلال توليه الحكم حتى نهـاية عام ١٩٣٧ قد مزج حكمه بفضائح الاستثناءات .. فقد كانت سياسة سعد زغلول أن يولى أنصاره المناصب الرئيسـية ، وجاء مصطفى النحاس وأراد أن يفعل ذلك أيضـا .. ولكنه قصر الترقيـات

الاستثنائية على المقربين من آلانصار دون نظر الى كفاءاتهم .. ومع هذا فلم تكن هذه الاخطاء التى ارتكبت عقب عقد معاهدة ١٩٣٦ خطيرة اذا قورنت بالاخطاء التى ارتكبت عقب تولى الحكم فى٤فبراير عام ١٩٤٢ ...

ولقد عشت فى فترة الخلاف آلوزارى بين مكرم والنحاس ... والذى كتبه الأول فى الكتاب الاسود يعطى الصورة الكاملة الصحيحة لأسرار هذا الخلاف .. فماذا قال مكرم ؟ .

قال .. فلما كنت فى الوزارة واستفحل بيننا ذلك « الخلاف الجوهرى الذى تعددت مظاهره » — على حد تعبيره — أى النحاس — فى كتاب استقالة الوزارة(١) — لم أدخر جهدا فى نصحه وتحذيره مما كنت أراه — ويراه الوزراء أنفسهم ويتهامسون به فى مجالسهم دون أن يجرأوا على الجهر به أمامه — من تصرفات ماسة بمسئولية الحكم بل وبنزاهته فى الصميم ، ولقد كنت بحكم مركزى فى المالية والتموين الهدف المباشر لهذه التصرفات التعسة التى أريد بها أن أن تفتح خزائن المال والتموين للأهل والأنسباء ، حتى لا تفلت الفرصة السانحة ، فتفلت الصفقات الرابحة من أيدى طلاب الربح والثراء ، ولو على حساب الفقراء والجائعين ...

ولم تكن تلك المطامع الأشعبية لترضى — أو لتقدر — أن تصبر ، فتبقى طى الكتمان والاوراق — بل راح أصحابها يرسلون الصيحة بعد الصيحة على مسمع من الكبار والصغار من الموظفين ، متوسلين، متململين ، متوعدين ، فى غير ما اعتداد حتى بكرامتهم الشخصية ، وليس مثل الطمع يامولاى شهوة هى أقوى ما تكون عند صاحبها

---

(١) استقالت الوزارة بعد أن تأكد النحاس أن الملك سيعهد اليه بتشكيلها من جديد .

منها ضد غيره .. فلفرط ما يطمع الطامع فى مال الغير دون وزن أو تقدير تراه وقد اختلت موازين تقديره ، ولفرط ما يصبو الى مطمع عز أن يوجد ، أو اذا وجد عز عليه أن ينفذ ، تراه يجزع بقدر ما يطمع فسيتنفد الجزع ما بقى من صبر ، ويفتح الطمع ما خفى من أمره ...

ومن ثم، فلا عجب اذا لم يطق هؤلاء السادة من الانسباء المتحكمين — أو الحكام غير المسئولين — صبرا على مطمعهم فى الثراء السهل — والجزل — فكان البعض منهم يأتون الى وزارتى المالية والتموين ويصيحون أمام كبار الموظفين أنى اذا أصررت على خطتى فى منع رخص التصدير عنهم — مع أن هذا المنع كان عاما يسرى عليهم كما يسرى على غيرهم — فانهم سيخرجوننى من وزارة التموين ، بل من الوزارة ، أصلا وفعلا ...

وما كنت يامولاى لأشير الى هذه الصغائر وغيرها من مثيلاتها مما سيأتى تفصيله لولا أنها صغائر تدل على كبائر — وأولى هذه الكبائر أن الحكم قد أشرف على الفوضى فى أيدى أشخاص غير مسئولين ، وان الحاكم العسكرى كان هو نفسه محكوما بجماعة من النفعيين ، لا يملك من أمره نفعا ولا ضرا .

ولكننى لم أكن لأعبأ بهؤلاء ، ولا بما وعدوا أو توعدوا ، لولا أن جرثومة الداء كانت قد سرت منهم مع الاسف الى رئيس الوزراء نفسه فكان هو شخصيا يتصل من وراء ظهرى بالمرؤوسين لى أو بجهات أخرى غير مختصة ، ملحا فى اعطاء أنسبائه السكر والارز الخ . عن غير علمى كما حاول رفعته جهده أن يمنعنى من تحقيق جنحة تهريب غزل ضد أنسبائه وتقديمهم الى المحاكمة العسكرية الى غير ذلك من محاولات ، فشفاعات ، فمحسوبيات ، فتعهدات ، فتصرفات ترمى

كلها الى استغلال الحكم لمصلحة الحاكمين ، وتجعل من أسلوب الحكم ألعوبة ومفسدة معا ...

حيال ذلك لم يكن أمامى الا أن أتخير بين سبيلين أسهلهما وعر — اما أن أشترك فى الوزارة أو لا أشترك فى الوزارة — أما حياة الوزير أو حياة الضمير — ولقد آثرت يامولاى هذه الحياة الاخيرة لانها حياة الشرف ولو فى عينى نفسى .. ولكن الله فى عدله ورحمته شاء الا أن يشرف موقفى فى عيون الناس أيضا .. فالحمد لله الذى قضى ولطف وأولانى شرفا ليس بعده من شرف .

ولم أجد بدا اذن ، وقد أعيتنى وسائل النصح والتحذير ، من أن أبرىء ذمتى — بتقديم استقالتى وأعربت له عن رغبتى فى الاستقالة فى فترات متفاوتة بدل المرة ثلاث مرات قبـل خروجى من الوزارة ، وكنت فى كل مرة أؤكد له ما يعرفه من محبتى له وغيرتى على سمعته وانى قد عجزت عن اقناعه باصلاح الحال فما من وسيلة بقيت لى الا أن أستقيل من منصبى، على أن يتخيرهو صيغة الاستقالة ومناسبتها، ووسيلتها ، حتى لا يفتضح أمام أعين الناس ما أمر الله الوفاء به أن يستر بين صديقين كانا مضرب الامثال فى الوفاء والاخاء ...

وهل أنا فى حاجة يامولاى الى التدليل على أنى لم أقصد من وراء استقالتى احراجا بل علاجا ؟ **فما من دليل أبلغ فى ذلك وأقطع من أنى ما كنت أختلى به فى أية مرة من هـذه المرات وأصر على فـكرة الاســــتقالة منه والانفصال عنه ، حتى كانت تأخذنى ذكرياتى فتخنقنى عبراتى ، فأبكى ويبكى ، ثم يعدنى باصلاح الحال فأعدل عن فكرة الاستقالة ... ثم نفترق متوادين متعاهدين ، ولكن الى حين**

أجل الى حين يتسنى للعوامل التى كانت تكتنفه ، وتستهدفه ، أن تفعل فعلها فيه ، فاذا بالرجل يتبدل ، واذا بالعزيمة تتخاذل فتتضاءل ، واذا باللاحق التالى شر من السابق الاول ..

أجل ، الى حين يجدون المستحيل للمستغل ، فالثـراء اللين الهين في متناول اليد والا يحتاج لرخصة من وزير المال ، ليـــدخل فى الرزق الحلال .. والوظائف الضخمة الدسمة ليس بينها وبين ذوى الحظوة ، الا خطوة ، فاذا ما مهد لها الطريق أيضا مع وزير المال — أصبح الاستثناء هو القاعدة،وفتح باب الرحمة لذوى الارحام والهمم القاعدة ... وبهذا يكون الاستثناء فى منطق الوزارة هو الحلال عين الحلال . وأن يكون فى منطق القانون هو أبغض الحلال .

لذلك لم يدخروا وسيلة أو حيلة فى سبيل استرضاء وزير المالية بكل وسائل الاسترضاء ، وبالفعل فقد بذلت معى كل وســائل الاكرام والاغراء من الناحيتين الخاصة والعامه على السواء ، وما كان لى أن أشير الى شىء منها لولا أنها تلقى ضوءا على حقيقـــة الخلاف وتطوراته ، ولولا أن بعض الخادعين أو المخدوعين تعمدوا أن يصوروا من الخلاف صورة شوهاء لا تشف عن حقيقة . ولا ينفذ النظر منها الى خبيئة ...

ولعلهم وقد أعيتهم الحيلة فى تصوير الخلاف للنـاس على النحو الذى ترتضيه لهم المصلحة أو الذلة ، أو فى القليل يشفى الغـلة ، راحوا يتلمسون له علة خلا ما يعرفون عن العلة !

فهل يصورون الخلاف على أن مصدره عداء شخصى بين النحاس ومكرم؟ كلا فمن يصدق مثل هذا العداء المفاجىء من غير ما سبب جدى يدعو الى مجرد الجفاء فما بالك بالعداء بين شخصين صمدت صداقتهمــا لمختلف التجاريب وقاومت كل أسباب العداء طوال بضع وعشرين من السنين ، حتى بلغت مبلغ الاخاء ...

أم هل يصورونه خروجا على مبدأ من مبادىء الوفد أو خلافا على نظام الحكم نفسه ؟ كلا فأين هو المبدأ المختلف عليه ؟ وكيف يخرج على الوفد من أدخل الناس فيه وكانت له اليد الطولى فى اختيـار وتأييد الزعامة عليه ؟ ...

اذن فليصوروه تنازعا شخصيا على السلطة فى الحكم — وما دام الخلاف قد وقع بين الاثنين وهما فى الحكم فلعل فى مظهر الامر مايغنى عن نبش الحقائق ، والتحرى الدقيق للدقائق ! ...

هذا ما صوروه للناس للتضليل ، وقليل من الناس من لا يصل اليه ، أو يسهل عليه التضليل !!

ولكن هل أنا حقا قد جردت من كل سلطان — أو بعض السلطان — فى الوزارة الاخيرة فلهذا غضبت وحنقت ؟ ...

لعل الرد البسيط على هذه السخافة انى اذا كنت قد غضبت لنفسى أو لسلطتى لخرجت من الوزارة أو أصررت على خروجى منها فى كل مرة أتيحت لى فيها الاستقالة وقدمتها فعلا ... أو لخرجت من الوزارة بعد تعيين وزير آخر للتموين احتجاجا على انتقاص سلطتى ... وعلى البواعث المخزية التى دعت الى هذا التعيين ولكن الامر كان على النقيض من ذلك ، فقد ثبت للناس من الوثائق الرسمية أن النحاس باشا هو الذى أخرجنى من الوزارة بعد أن ارتضيت العدول عن الاستقالة عقب أزمة الاستثناءات وقبلت البقاء فى الوزارة طوعا للرغبة السامية التى بدت من جلالتكم للتوفيق بينه وبينى ، ولكنه رفض وأصر على رفضه ، فهو اذن الذى غضب لنفسه لا أنا وهو الذى أراد أن يتخلص منى ليخلو له الجو فيستغل الحكم كما يشاء أو يرخص كما يشاء ، ويستثنى كما يشاء الا أن يشاء الله غير ما يشاء ...

هذا هو المنطق الحق ، وللمنطق دلالته وحكمه .

ولكنى لا أقنع به وحده ، وللوقائع منطق قد يكون أسمع قيلا وأقطع دليلا من كل منطق نظرى .

وحسبى للتدليل على أن النحاس باشا أولانى عند تشكيل وزارته الاخيرة سلطة أوسع من أية سلطة لى فى أية وزارة سابقة أن أذكر الوقائع الآتية :

١ ــ عهد الى بوزارتى الماليه والتموين، وهما محور الوزارة ونقطة ارتكازها فى أى وقت ومن باب أولى فى الوقت الحاضر والحرب ناشبة على الابواب •

٢ ــ كنت مستشاره فى اختيار أشخاص الوزراء ، حتى أنى اعترضت ــ لاسباب لا تمس شخصه ــ على ادخال نسيب له فى الوزارة ــ هو حضرة صاحب المعالى الدكتور عبد الواحد الوكيل بك ــ فقبل منى اعتراضى وسلم بوجاهته(١) •

٣ ــ كنت أنا الذى أشرت وألححت بوجوب الحصول على خطاب من سعادة السفير البريطانى كشرط أساسى لقبول تشكيل الوزارة احتفاظا بكرامة العرش المصرى والاستقلال المصرى ، وأراد النحاس باشا تأخير هذا المسعى الى ما بعد اتمام التشكيل فرفضت دخول الوزارة اذا لم يصدر التصريح البريطانى أولا وقبل كل شىء ، وقد تم ذلك فعلا واشتركت مع موظفين كبيرين من السفارة فى تحرير الخطابين الرسميين المتبادلين بين الحكومتين ، وحضر اجتماعنا رفعة النحاس باشا وأحد حضرات الوزراء (٢) •

٤ ــ ألححت فى وجوب حظر المحسوبية والاستثناءات حظرا تاما حتى لا يعود الناس فيأخذوا علينا ما كان محل نقد ومؤاخذة فى سنة ١٩٣٧ ، وأصررت على أن نضمن خطاب تشكيل الوزارة عهدا صريحا منا بمنع الاستثناءات ، وفعلا قطعنا على أنفسنا هذا العهد الرسمى فى وثيقة تشكيل الوزارة التى رفعت الى مقامكم السامى ، فنصت

---

(١) عند تشكيل الوزارة كانت حرم النحاس باشا فى الصعيد ولم تلحق به الا بعد ان تم التشكيل •

(٢) صرح النحاس باشا فى اجتماع نواب الغربية وشيوخها الوفديين ان الانجليز وثقوا به هذه المرة شخصيا كمصطفى النحاس لا كرئيس للوفد وان مكرما لم يكن مطلعا على اسرار تأليف الوزارة •

على أن الوزارة تيسيرا لعوامل الطمأنينة والعدل والمساواة ستعمل من غير ما ميل أو محاباة أو محسوبية أو مراعاة للوجوه الا وجه ربك ذى الجلال ٠

٥ — عهد الى لجنة من الوزراء وضع خطاب تشكيل الوزارة الذى تضمن برنامجها ، فكان من نصيبى وضع هذا الخطاب وتحريره ٠

٦ — عهد الى النحاس باشا الاشراف على قسم الصحافة بوزارة الداخلية وارشاد الرقيب الى سياسة الوزارة العامة وانتداب بعض المساعدين له ٠

٧ — وضعت سياسة التموين على اختلاف فروعه وموارده ، واقترحها على مجلس الوزراء فأقرنى عليها — ثم أنشأت مجلس التموين الاستشارى وأعدت تكوين اللجنة المشتركة فضممت اليها ممثلى أمريكا وجنوب أفريقيا وحكومة السودان ٠ وكنت أتصل بالسفير البريطانى مباشرة فى هذه الشئون — وكان من عملى أيضا وضع السياسة المالية للدولة كما جاءت فى خطاب الميزانيــة وعرض المشروعات الهامة التى تتضمنها على مجلس الوزراء وتتوجت مجهوداتى المتواضعة فى هذا الصدد بأن أتيح لى الشرف الأسمى بأن أعرض شئون وزارتى المالية والتموين على جلالتكم فلقيت من حسب جلالتكم وتشجيعكم الكريم ما شد من أزرى ، وأعاننى على أمرى ، وأطلق لسانى بالشكر والدعاء ٠

وكان النحاس باشا على علم واطلاع بكل خطواتى فى هذا السبيل فأين أين يامولاى ما زعمه النحاس باشا أو زعموه له من الحد من سلطتى ، وقد كدت أنوء بما حملنى من أعباء ومسئوليات لا يدخل بعضها فى حدود مهمتى ٠

***

كلا ، بل كان جونا صفاء لا يشوبه كدر ، وثقة لا يعروها حذر ، الى أن بزغ شيطان المال بيننا فشاء وقدر ..

ذلك اننا لم نكد نستهل عهدنا فى الحكم متصافين ، متضامنين ، حتى بدا لأهل النحاس باشا وأنسبائه أن يغتنموها فرصة لطلب الثراء ، على يدى صديق النحاس فى الضراء فكيف فى السراء ..

فجاءنى بعض هؤلاء الأنسباء يطلبون لانفسهم بالاشتراك مع ألصق الناس بالنحاس باشا الاذن بتصدير كميات هائلة من الزيت والجلود يكسبون من وراء تصديرها أكثر من نصف مليون من الجنيهات وأيد النحاس باشا نفسه هذا الطلب وألح فيه ، ولكننى انتهيت بعد بحث الى رفض الترخيص لهم بالتصدير بل والغاء الرخص القائمة التى منحت فى عهد سابق لمعامل الزيت وتجاره — ثم تلت هذه المحاولة محاولات أخرى كان النحاس باشا نفسه يشترك فيها حاولا اعطاءهم السكر والارز الخ . من وراء ظهرى — ولما كان الخير يبدأ بأهله فلم يشأ النحاس باشا أن ينسى شخصه منفردا ، كما لم ينسه مزدوجا ، فذهب يسعى مسعى موفور الثمر — وان يك غير مشكور الاثر — لاستدرار الخير الوفير من وقفى عبد العال والبدراوى بسمنود منتفعا من التنظر عليهما رغم لفت نظره الى ما يصح وما لا يصح صدوره ، من رئيس حكومة فى مثل هذه الشئون — واقترنت هذه المساعى جميعها بمسعى خطير جدا آخر هو محاولة منعى من السير فى تحقيق جنحة تهريب الغزل ضد بعض أنسبائه وكان قد بدأ التحقيق فيها قبل وزارتنا — كل هذه الاسباب متلاصقة متلاحقة ، وغيرها مما أريد به أن يسعف المال — وقد أسعف الحال — أثارت الخلاف بيننا ونفخت فيه .

حينئذ ، وحينئذ فقط ، بدأ النحاس باشا وأهله يقلبون ظهر المجن للصديق القديم الذى أراد للحكم ولهم خيرا ، ولو أننا فيما

يظهر اختلفنا حتى على معنى الخير ، فقــد فهموه شخصيا ماديا ، وفهمته وطنيا ومعنويا ...

حينئذ بدأ الشيطان يوسوس فى صدره أن أنظر الى مكرم يمنع عن أهلك الخير ، ويمنع عنك حتى سمعة الخير ... ، فلم يكتف بمنع خيرات التموين عن الاهل والأقربين ، بل راحت الجرائد تلهج باسمه فى حماسة ، ولو فى غير كياسة ، انه هو الذى أنقذ البلد من المجاعة وضمن لها المؤونة والتموين ...

حينئذ ، وحينئذ فقط ، نبتت فكرة الدس فى الصحافة ضدى ، ثم تلتها فكرة التخلص منى كوزير للتموين ـ وأخيرا لما لم يملك ضدى الدس ، أو يثمر معى الدرس ، استقر الرأى على اخراجى من الوزارة أصلا .. ولكن الناس لم يقيموا وزنا لما قال أو فعل النحاس ـ اذ لم يعد هو النحاس فراح الوفديون شبانا وشيبا يهتفون لمكرم النزيه !

يا للشعب ما أصفى نفسه ، وأدق حسه ، فقد ألهمته غريزته الى أسباب الخلاف فجمعها فى كلمة واحدة «مكرم النزيه» .. ولما كانت النزاهة فى وقت ما وقفا على رئيس الوفد ... فليفصل اذن مكرم من الوفد سكرتيرا ، ثم عضوا ، وليمح اسمه ورسمه من الصحافة والبرلمان ، ومن أذهان العباد ، بل ومن تاريخ الجهاد ! ...

ولم ؟ أليس النحاس باشا حاكما عسكريا عاما ، يأمر فيفزع منه البشر ، أو فيفزع اليه القدر ! ..

وفيما يلى ياмولاى بيان موجز لتلك المراحل التى مرت بها عقلية النحاس ومن الى النحاس ـ حينما بدأوا يتنمــرون لى ، ويأتمرون ضدى ، لاستمساكى بنزاهة الحكم :

الدس فى الصحافة

بدأت مرحلة الانقلاب الاولى فى الصحافة ، وعلى الصحافة ٠٠٠ فان الصحافة كانت تعنى اذا ذاك — كما تعنى الآن — بشئون التموين فتنشر الشيء الكثير عن الاجراءات التى اتخذها أو سيتخذها وزير التموين ازاء المهربين أو المختزنين أو لتوفير مؤونة الشعب ولباسه ، ولكن هذا النشر الطبيعى عن وزارة هى أولا وقبل كل شيء وزارة للجمهور لم يرق فى أعين الأهل والأنسباء الذين منع عنهم وزير التموين خيرات التموين ، وصفقات التموين ، ولم يكتف بذلك بل راح يحقق معهم فى مخالفاتهم ضد التموين ٠٠٠

وكانت اليد التى غللتها عن اقتناص المال هى هى التى امتدت أولا بالدس ضدى كوزير للتموين والمـــال ٠٠ فاســـتدعى بعض الصحفيين الوفديين الى الباخرة نحاسن واتصـــل بالبعض الآخر وصدرت اليهم الاوامر مشددة بأن لا يكتبوا مقالات أو أخبارا تنطوى على الاشادة بوزير التموين أو الثناء على جهوده ، وأن لا تبرز أحاديثه وأن لا يشار اليه كمجاهد كبير أو صغير !(١) ٠

انزعج أصحاب الوفدية ومحرروها لهذا التطور الخطير والمفاجىء — ولم يكن أحد منهم حتى ذلك الحين يعلم بما هنـــالك من علل ومعللات — فأفضوا الى بمخاوفهم على وحدة الوفد وروابط الصداقة

---

(١) قال النحاس فى اجتماع نواب الغربية تبريرا لهذه الاوامر من غير ذوى الامر ان السيدات لهن حساسية اكثر من الرجال وان بعضهن زرن منزله واعترضن على الاشادة بذكر مكرم فى الصحف الوفدية وتساءلن اين اذن الرئيس الجليل واين جلائل اعماله ٠٠٠ ولهذا صدرت الاوامر للصحف ممن لا يعصى له امر بان يعدا للمجاهد الكبير واحاديثه ومشروعاته ٠

التى لم يفصم عراها الزمن بين رئيس الوفد وسكرتيره العنام ، وكان المساكين يحاولون التوفيق ما استطاعوا بين الأوامر الجديدة والتقاليد القديمة .. ومن طريف ما يذكر فى هذا الصدد أن وزارة المالية كانت قد أرسلت الى الصحف بيانا عنوانه (بيان رسمى من وزارة المالية) يشير الى رفع سعر قصب السكر لمصلحة المزارعين ، فنشرت جريدة المصرى البيان فى مكان متواضع من الجريدة تحت عنوان : « **بيان من المجلس الاستشارى للسكر** » ثم نشرت البيان بحروفه كما ورد لها وفى مستهله : « جاءنا من وزارة الماليةما يلى » .. وهكذا وفقت المسكينة ما أمكن التوفيق بين العنوان والبيان ، وبين الوقعية والواقع !

وكان من بين الكتاب الوفديين الذين أبت وفديتهم ورجولتهم، أن يطيعوا الاوامر الصادرة ضد سكرتير الوفد حضرتا الاستاذين جلال الدين الحمامصى فى « المصرى » واحمد قاسم جودة فى « الوفد المصرى » ، وقد لقى كل منهما الجزاء وفاقا باخراجه من البرلمان !! ... وكان اخراجا له مظهره الفاضح ، وثمنه الفادح ، ودفع الثمن كله أو جله رئيس الحكومة شخصيا وبالذات — اذ بذل المسكين نفسه فى ذلك اليوم وأيما بذل ، فى سبيل الظفر بجعل وأيما جعل ! — هو أن يحمل الى بيته رأسى قاسم وجلال على طبق .. حتى ولو ظل قابعا فى البرلمان الى ما بعد منتصف الليل ، فأطبق الظلام وانطبق(٢) .

---

(٢) ظل مصطفى النحاس فى مجلس النواب فى تلك الليلة حتى الساعة الواحدة صباحا الى ان وافقت الاقلية الوفدية على فصل جلال الدين الحمامصى وقاسم جودة ، وكانت هذه الجلسة اطول جلسة عقدها البرلمان خلال حكم النحاس الملىء بالاحداث السياسية الضخمة .

وفى ذات يوم جاءنى حضرة الاستاذ محمود أبو الفتح ، « صاحب المصرى » وقال لى انه بات طوال ليله قلقا مما حدث له ، وقص على ما دار بينه وبين أهل النحاس باشا من حديث لا أرى من اللياقة ذكره ، ثم استطرد الى ما جرى له مع النحاس باشا نفسه بعد ذلك ، فقال ان رفعته أرسل يطلبه الى مينا هاوس وأمره بأن لا ينشر أى خبر عن أى وزير من الوزراء فى العامود الذى تنشر فيه استقبالات « الرئيس الجليل » ولا فى العامود المجاور له ، بحيث لا ينشر تحت الرئيس الجليل ، ولا فى جواره أية اشارة الى وزير من الوزراء ! ..

وكانت الحكمة من هذا الأمر الجديد غير خافية عليه ولا على . فان الجرائد الوفدية كانت تنشر بين الحين والآخر أخبارا عنى تحت عنوان « المجاهد الكبير » فى عامود مجاور ، فأراد النحاس باشا أو أريد له أن يمنع هذا التقليد الشكلى الذى جرت عليه الجرائد سنوات عديدات ، فأطلق المنع وعممه على الوزراء جميعا حتى لا ينفضح ما كان مفضوحا من غرض ومن مرض ! ...

وفعلا نفذت الاوامر بدقه متناهية، فمنذ ذلك الوقت حتى خروجى من الوزارة لم يكتب خبر ما عن وزير ما فى هذين العامودين المقدسين ،ولا بجوار « الرئيس الجليل » ولا تحته ، ورغم أن التشريفات الملكية نفسها بما لها من مقام سام كانت ولا تزال تنشر على رأس عامود ثم يليها أو يجاورها أى خبر عن عباد الله الوزراء أو المستوزرين ، أو غيرهم من أفراد الشعب الأمين .

وما كان المجال ليتسع يامولاى للاسترسال فى تحليل هذه العقلية الجديدة التافهة وما ترتب عليها من أمثلة تافهة كالتى ذكرتها ، لولا أن هذا التحليل النفسانى يفسر الكثير مما خفى عن الناس وما يعانيه الشعب من آثار حكمه فقد اقتنع الرجل ـ أو

أقنعه المحيطون به — انه قد أصبح الحاكم بأمره وأن حلفاءنا الانجليز يؤيدونه فى هذه المرة لشخصية مصطفى النحاس — لا كرئيس لهيئة سياسية أو حكومية — وقد صرح هو بذلك كما رأينـــا فى احدى الولائم التى أقامها له بعض الشـيوخ النواب الوفديين — فلم يكن بدا من أن ينتفع هو وأهله من هذه الفرصة الذهبيه التى قد لا تسنح فيما بقى من العمر — والدوام لله ٠ولم يكن بين أنصاره رجل يخشى الحاشون مقاومته ونفوذه الشخصى والسياسى عليـــه الا مكرما ، فحاولوا استرضائى المرة بعد المرة فرفضت ٠٠٠

ماذا ؟ هل يأبى مكرم ويتكبر ، ويمنع عنا وعنك جنه الدنيا وقد أعطيت الكوثر ، وأنت أنت الزعيم الاكبر ٠٠٠ من هنا ومن هنا فقط تولدت فى صاحب الرفعة عقلية مزدوجة عقليـــة الارتفاع ، وعقلية الانتفاع !!!!

أما الانتفاع فقد أشرت اليه اشارة موجزة فى هـذا التمهيد ، وسيأتى التفصيل — ومعه الدليل — فى القسم الثـانى من هذه العريضة ٠

أما الارتفاع — ولو فى غير رفعة — فهو الذى ذكرت بعض الامثلة عليه فيما تقدم ، وهو الذى يلمحه الناس ممـــا تنشره الصحف لوزرائه من أحاديث فى هذه الايام ، فما من أحد منهم يجرؤ أن يتكلم عن شأن من شئون وزارته ، مهما تكن تفاهته ، الا ويقدم له بمقدمة فحواها انه لم يفكر أى تفكير ، ولم يدبر أى تدبير الا بناء على تعليمات الرئيس الجليل ، أو ارشاده ويذهب البعض فى الملق الصغير الى حد القول بأنها أوامر صدرت من رئيس الوزراء الى معالى الوزير ٠٠٠

وكان السم قد سرى الى نفس النحاس باشا قبل خروجى من

الوزارة ، وحسبى أن أضرب على ذلك مثلا من أمثلة كثيرة لايتسع لها المقام ... فقد حدث أننى قابلت سعادة السفير البريطانى وتحدثت معه بحضور مستشاره الاقتصادى فى شئون التموين وما نرجوه من معاونة الحليفة فى نقل المواد الضرورية — الغذائية والزراعية — الى مصر عن طريق البحار فوعدنى جنابه خيرا ، واتفق أن أقيمت فى مساء ذلك اليوم وليمة فى وزارة الخارجية حضرها سعادة السفير ، فلما لمحته واقفا مع النحاس باشا ذهبت اليهما وقلت للنحاس باشا أرجوك يا باشا أن تشكر السير مايلز فقد وعد أن يبذل كل جهده معنا فى شئون التموين وبدأ السفير يرد على التحية بما تقتضيه المجاملة فاذا بالنحاس باشا يسحبنى من يدى الى ركن من أركان الغرفة قبل أن ينتهى السفير من كلامه ... وقال لى وعلائم الخجل مرتسمة على وجهه أرجوك يا مكرم أن لا تنسى ذكر اسمى فيما تنشره الصحف عن هذه المقابلة ، فأجبت وأنا أشد منه خجلا — وكان خجلى له علم الله لا لنفسى — وقلت له كن مطمئنا يا باشا فما أنا بحاجة الى تذكيرك بالاشادة بذكرك وأنت تعلم والناس يعلمون أنى لا أترك فرصة تمر من غير أن أشيد بفضلك ... وهذا فعلا ما كان !

فهذا وغيره من قبيله يفسر بعض التفسير ذلك الموقف المضحك الباكى الذى وقفه البرلمان — من غير ما مناسبة — صارخا بأعلى صوته « أنا وحدى دون أى وزير آخر كنت المسئول عن شئون التموين » !!! ..

ولعل أبلغ وأقطع دليل على حقيقة الخلاف بينى وبينه هو تعيين وزير تموين جديد وتعديل الوزارة تبعا لذلك — وما أحاط هذا التعيين من ملابسات ومساومات ، واقدام واحجام وتوسل وزجر، وكر وفر ...

ذلك أن الدس فى الصحافة لم يشف لهم غليلا ، ولم يغن عن رخص التصدير فتيلا ··· فوزير التموين ما زال العقبة الكؤود فى تموين الأهل والأنسباء ··· فما من سبيل لاتقـــاء شره الا بالاقصاء ، بعد أن عجز عن جلب خيره كل تهديد وكل اغراء ···

وان مولاى ليـــذكر أن الوزارة أعلنت فى خطـاب تشكيلها — كجزء من برنامجها — أنها ترى لأسباب تمت الى المصلحة العـامة الغاء الوزارات الثلاث — التموين والشئون الاجتماعية والوقاية — واسناد أعمال هذه الوزارات الى الوزراء القائمين — التموين لوزير المالية والوقاية لوزير الاشغال والشئون الاجتماعية لوزير الصحة

كان هذا فى ٦ فبراير فى خطاب تشكيل الوزارة المرفوع الى سدتكم العلية ولكن ما كاد يمضى شهر او بعض شهر حتى اعلن النحاس باشا فى خطاب العرش بتاريخ ٣٠ مارس ان الوزارة ترى لازدياد التبعات اعادة الوزارات الثلاث الملغاة !

كانت دهشة ، وكانت همهمة ، بين النواب والشـيوخ الذين فوجئوا بهذا الانقلاب من النقيض الى النقيض ··· ترى ما الذى جعل الأسود أبيض والأبيض أسود فى نظر الوزارة نفسها وفى الظروف نفسها فجعلتها تعيد اليوم ما فاخرت بالغائه بالأمس!

هل زادت التبعات فعجز الوزراء الثلاثه عن مواجهتها ، كل فى وزارته ؟ ؟

من سوء حظ النحاس باشا ، كان الامر على عكس هذه الدعوى، وباعترافه هو نفسه ···

ففى التموين — كان التوفيق فيه قد بلغ أوجه فى ذلك الوقت، ووقف النحاس باشا فى خطاب العرش يشيد بأعمـال الوزارة فى التموين ، وكيف أنها أنقذت البلاد من المجاعة وكان الوزير القائم

بشئون التموين عند القاء خطاب العرش لا يزال مكرم عبيد ، ...
وكان الثناء عاما بين الناس وفى الصحافة على جهوده ، بل كان له الشرف الأعظم أن حظى بعطف المليك وتقديره السـامى لجهوده المتواضعة فى التموين بالذات — فما الذى دعا اذن الى تغيير وزير كسب كل هذه الخبرة وحظى بكل هذا التوفيق ، ؟؟ لا شك أن الذى دعا الى التغيير هو شىء غير مصلحة التموين ... فلنفتش عن .. السبب ! !

والوقاية ؟ لم تحدث قبل خطاب العرش غارات تستحق الذكر — بل كانت تكون منقطعة لسوء حظ النحاس باشا — نعم لسـوء حظه هو وحسن حظ البلد ، لانه لو صادف حصول غارات شـديدة فى ذلك الوقت لغطت موقفه وبررت دعواه أن التبعات قد ازدادت، فى حين أنها نقصت بفضل الظروف نفسها ...

وكذلك الحال فيما يختص بوزارة الشئون الاجتماعية فلا تبعات ولا يحزنون !

اذن ، اذن ، لم يكن الغرض من هذا الانقلاب المفاجىء الاشيئـا واحدا ، هو — التخلص من مكرم عبيـد وزيرا للتموين ، لانه كان مستمرا فى التحقيق ضد الأنسباء الكرام فى تهمة تهريب الغزل رغم الرجاء والاستعطاف حينا والتهديد حينا آخر ولأنه وقف فى وجه صفقات التموين التى أريد عقدها لاشباع الشبعانين من قوت الشعب المسكين ...

ولو أنى فى حاجة الى دليل آخر غير ما قدمت ، ففيما يلى الدليل القاطع الجامع المانع ...

عاد النحاس باشا بعـد خطاب العرش بأيام فأعلن فى مجلس الوزراء انه يرى انتداب الوزراء الأصليين للوزارات الثلاث : عثمان

محرم للوقاية ، عبد الفتاح الطويل للشئون ، ومكرم عبيد للتموين ... فقرر ذلك مجلس الوزراء وأعلن فى الصحف ...

ماذا جرى اذن لدعوى ازدياد التبعات ؟ ... ولماذا الاعادة بعد الالغاء ، ثم الاكتفاء بالانتدابات ؟ . لماذا كل هذا الكر والفر ، ولماذا الالغاء فالابقاء ، فالعود الى اجراء هو فى حكم الالغاء ؟؟

ثم لو أن الامر كان متعلقا بمصلحة البلد ومصلحة التموين والوقاية — **فلماذا ظللنا منتدبين للوزارات الثلاث منذ أواخر مارس الى النصف الاخير من مايو** — أى قرابة الشهرين وشئون التموين لا يصح الانتظار عليها يومين فما بالك بشهرين .

كلا لم يكن للمصلحة العامة أي شأن بعيد أو قريب فى مسألة تغيير وزيرالتموين ، بل كانت المصلحة الخاصة هى الهدف الأول والأخير وكانت المساومات معى هى العلة الوحيدة فى الاقدام والاحجام ، والتقديم والتأخير .

ولهذه المساومات قصة طويلة تتعلق برخص التصدير وبجنحة الغزل وسأذكر هذه التفصيلات فى حينها منعاً للتكرار ، وحسبى الآن أن أقول أن النحاس باشا نظرا لموقفى من أهله فى هذه المسائل جاءنا فى اواخر مارس قبل اجتماع مجلس الوزراء وأعلنا انه عرض على جلالتكم أمر اعادة الوزارات الثلاث فتفضلتم بالموافقة ، فكانت قنبلة ألقاها على غير انتظار ومن غير مقدمات ، واعترض وزير العدل متسائلا لماذا لم يؤخذ رأى مجلس الوزراء فى مسألة أقرها مجلس الوزراء من قبل ، وانضم اليه الوزراء الحاضرون ، وكان الخلاف بينى وبين النحاس باشا معروفا لبعضهم فأدركوا الغرض من هذه الحركة المفاجئة ، أما أنا فاكتفيت بتسجيل احتجاجى على هذا التصرف فى شكله وموضوعه لان فيه اعتداء على اختصاص مجلس الوزراء

واعتداء مقصودا على وزير التموين بالذات ليتخلص منه للاغراض المعروفة ، فأجاب النحاس باشا « انت مش موافق ونحن موافقون » وأمر السكرتير العام بالبدء فى جدول أعمال المجلس ...

« نحن موافقون » — ألقى النحاس باشا هذه العبارة فى وجه وزرائه فى الوقت الذى كانوا يعترضون ! ...

لم يسعنى ازاء ذلك الا أن أقدم استقالتى ، وتضامن معى فى الاستقالة وزير المعارف (١) اذا لم يعدل النحاس باشا عن هذا القرار ، وقال معاليه لى ان النحاس باشا لم يكتف بذلك بل عندما توسط الوزراء لديه منعا للأزمة وكان هو منهم صاح فى وجههم « اللى مش عايز منكم يتفضل يطلع من الوزارة »! .. وانه لا يرتضى لنفسه هذه الاهانة ...

ولم يسع النحاس باشا ازاء هذه الاستقالة الا الخضوع ، خشية الفضيحة ، فجاءنى بعض الوزراء كما جاءنى أمين عثمان باشا وأخبرونى انه قرر انتداب الوزراء الثلاثة لوزاراتهم وانتهى الامر فى الظاهر ...

أما فى الخفاء فكان شيء آخر ... فقد اجتمعت بالنحاس باشا وأهله فى وليمة غداء أقامها لنا صديق للطرفين .. وبعد الغداء خلونا للتفاهم وقيل لى بصراحة أثناء التعاتب ان السبب فى محاولة تغيير وزير التموين هو اصرارى على تقديم حضرات الأنسباء للمحاكمة فقلت انى انما أحقق القضية بواسطة الرجال الفنيين وانى سأنظر الى المسألة كقاض لا كممثل للاتهام فاذا تبينت البراءة حفظتها ، والادانة قدمتها ، وسمحت للمحامين عن الأنسباء — وكان

---

(١) الرئيس السابق نجيب الهلالى .

أحدهم زميلى وصديقى الاستاذ فريد زعلوك — بتقديم المذكرات والحضور فى التحقيق .

سكنت مخاوف الخائفين قليلا بناء على هذا التوكيد منى ، وقيل لى فى اجتماع التعاتب هذا أنى « عبيط » وأنه وزير المعارف الذى تضامن معى قد ذهب واعتذر وانه قد انضم اليهم هو والوزراء جميعا الذين يدعون أنهم أصدقائى .

فكان ردى بسيطا ، انى اذا فقدت صداقة النحاس فى سبيل ارضاء ضميرى ، فلا يهمنى بعد ذلك أية صداقة أخرى .

تلطف الجو بعد ذلك بين النحاس باشا وبينى فى انتظار تصرف النهائى فى جنحة الغزل .

وفى هذه الفترة عاد النحاس باشا وأهله يسترضوننى بكل وسائل الاسترضاء والمجاملات الخاصة والعامة فحمدت الله على عودة الصفاء ، بل وعملت على توثيقه ، راجيا أن لا تتكرر المحنة ولاتتكرر أسبابها ولعل الناس يذكرون مانشرته الصحف فى حينه وكيف وقف النحاس باشا فى البرلمان يحيينى بكلتى يديه ويهنئنى على خطاب الميزانية تهنئة حارة .

وكذلك فى هذه الفترة عاد يستشيرنى حتى فى شئون وزارته الخاصة فكنت أنا الذى أشرت بتعيين المحافظ الحالى بالاسكندرية عندما استشارنى فى الامر بينى وبينه ، وكذلك كلفنى بشئون أخرى خاصة بوزارة الداخلية ، وكنت كذلك مطلق اليد فى عملى فى وزارتى المالية والتموين ، فما من أمر يعرض على مجلس الوزراء أو على رفعته كحاكم عسكرى الا ويقر فى حينه .

أين اذن وعلى أى أساس بنيت تلك الخرافة التى أذاعها النحاس باشا بعد خروجى من الوزارة لكى يبرر ما لا سبيل الى تبريره ..

وهي انيغضبت للانتقاص من سلطتي ، في حين أني منـذ تكوين الوزارة ــ وحتي بعد ظهور الخلاف بيننا في العمل ــ بل وبسبب هذا الخلاف نفسه كنت على الدوام محل استرضاء وثقة وثناء ٠٠٠ لاني كنت محل الرجاء !

ولكن الرجاء عاد فانقطع ٠٠ لان الداء عاد فرجع ! ٠٠

ذلك أن التحقيق أثبت إدانة الأنســباء وفتشت مخازنهم في القاهرة والاسكندرية فلم يوجد بها الغزل الذي ادعوا أنهم خزنوه ولم يهربوه ! ٠٠٠

عندئذ عاد النحاس باشا المسكين يفكر في اخراجي من وزارة التموين قبل ضياع الوقت ٠٠٠ وكان أول خبر وصلني من هذه النية نقلا عن أحد الأنسباء المقربين جدا الذي صاح في وجه موظفي التموين أن النحاس باشا سيخرجني من وزارة التموين ، ولذلك فانه عندما ذهب المفتش المنتدب ليفتش مخزن الاسكندرية قيـل له ان المفتاح مع الاستاذ احمد الوكيل في مصر ٠٠٠ وانهم يطلبون مهلة لاستحضار المفتاح منه ! ٠٠٠ ولعلها أول حادثة من نوعها في تاريخ التجارة حديثا وقديما أن يكون لمعمـــل فرع في بلد أخرى كالاسكندرية ومخزن للبضاعة ولا يكون المفتاح مع رئيس الفرع ولا مع المخزنجي بل مع مدير المعمل في القاهرة ٠٠٠

أحس المحقق هذا التلاعب وأثبته في تقـريره فأصدرت أمري بكسر المخزن عنوة ، فلما كسروه لم يجدوا فيه البضاعة التي ادعوا تخزينها فيه ، بل وجدوه قاعا صفصفا ، كما وجدوا مخزن القاهرة أيضا أفرغ من فؤاد أم موسى ٠٠٠

لم أجد بدا اذن حيال هذه الأدلة المادية القاطعة ــ وبعد الاطلاع على تقرير موظفي التموين المثبتة للادانة ــ من أن أثبت رأيي بالموافقة

على احالة القضية على النيابة العسكرية — ولكى لا أتهم بالتعسف أو التعنت أمرت فى الوقت نفسه باحالة الاوراق على حضرة المستشار الملكى لاخذ رأيه .

وفى اليوم التالى صدر القرار بتعيين الوزراء الجدد ومنهم وزير التموين

ولو أنى كما يدعون أردت الاستئثار بالسلطة وغضبت لانتزاعها منى لقدمت استقالتى من الوزارة بناء على هذا التعيين الجديد الذى لم يقصد به الا التخلص من سلطتى ، ولكنى لم أفعل واكتفيت بتحذير النحاس باشا من عواقب تعيين وزير جديد للتموين ، لا خبرة له بطبيعة الحال بشئون التموين — فى وقت من أشد الاوقات خطراً على التموين وفيه تحتاج البلاد الى كل ذى خبرة ومران .

ولكن النحاس باشا والوزراء معه كانوا يقولون انهم يعتمدون على ارشادى للوزير الجديد وقال عثمان محرم باشا متحمسا — وكنا مجتمعين فى منزله عند البحث فى تعيين الوزراء الجدد — « مكرم باشا يبقى يعلم الوزير الجديد » !!

وهكذا ابتدع فى الفقة الدستورى الجديد منصب « معلم وزير » ... ولاخطر بل هناك كل الفائدة فى التفريق بين العلم والعمل ، على أن يتحقق الأمل ويا له من أمل ! ..

ومن ظريف مايذكر فى هذا الصدد أن معالى على باشا حسين وزير الاوقاف — اذ ذاك — ولم يكن واقفا على سر الالهة لأن النحاس باشا كان مبيتا النية على اخراجه (١) — تدخل فى أثناء المناقشة واعترض

---

(١) طلب النحاس باشا الى على باشا حسين ان يستقيل ولم يستقل هو من تلقاء نفسه ، وقد بنيت الاستقالة على أسباب صحية وحقيقتها اسباب مشرفة للوزير، لانه لم يكن مرنا مع النحاس باشا فى اغراضه ومحسوبياته فى وزارة الاوقاف .

فى صراحة القاضى النزيه على تعيين وزير جديد لا خبرة له بشئون التموين وقال بكل بساطة لماذا نبحث عن وزير جـــديد للتموين ولدينا مكرم وقد وفقه الله كل التوفيق فى عمله وأصبحت له خبرة واسعة فى العمل فى حين أن تعيين وزير جديد قد يضر بمصلحة التموين ولا مانع من الاكتفاء بتعيـين وزيرين للوزارتين الآخرين ولـكن النحاس باشا أجاب قائـلا لا بد من تعيين الثلاثة لانه وعد بالثلاثة ! (٢) .

لم يمض وقت طويل حتى تلت هذه الأزمة أزمة الاستثناءات ، وحسبى فى هذه النظرة العامة ان أشير الى ملابساتها التى أدت بعد مسألة الرخص الى الأزمة الفاصلة بين النحاس باشا وبينى .

ومن المدهش أن يقف النحاس باشا فى البرلمان بعد ذلك ويقول ان مكرما تخير مسألة الاستثناءات خصيصا للخـروج من الوزارة . ونسى أو تناسى انه هو الذى أخرجنى ولم أخرج من تلقاء نفسى! .. ولكنها ظاهرة غريبة فى الرجل منذ أن تفاقم الخلاف بينـه وبينى فقد أصبح جريئا وجريئا جدا فى تناسى الوقائع .. ولعل له فى ذلك بعض العذر فالسلطة التى بيده تسمح له بالتناسى والنسيـان ولا تسمح لغيره بالنسيان ...

ولقد سمح النحاس باشا لنفسه أن ينشر على الناس أثناء قيام أزمة الاستثناءات بمحاضر مجلس الوزراء ، دون أن يستأذن المجلس

---

(٢) كان النحاس باشا يقول انه وعد بتعيين الوزراء الثلاثة فى ظرف ١٥ يوما من خطاب العرش ولكنه لم يقل لماذا انتظر بدل نصف الشهر شهرا ونصف شهر ... ولماذا صدر قرار مجلس الوزراء بالانتداب من غير توقيت معين ولا تحديد ... ولماذا قال لامين عثمان الذى ابلغنى انه عدل نهائيا عن فكرة تعيين وزراء جدد ... ولكن ماذا يجدى التفسير فيما لا يحتاج الى تفسير .

فى ذلك ، بل ودون أن تعرض على أقوالى لمراجعتها واقرارها — وهو حق أولى للوزير كما هو حق أولى للنائب أن يطلع على المضبطة ، التى تتضمن أقواله قبل اقرارها من المجلس .

ولكنه حسنا فعل ، فالمحضر كان صحيفة اتهام له ، ودفاعا عنى رغم ما حذف منه وهذب فيه وفيما يلى واقعتان خطيرتان أغفلهما المحضر أو حذفا منه حذفا : —

١ — كانت أول عبارة افتتح بها النحاس باشا الجلسة قوله : « **كل منكم حر فى ابداء رأيه » وأثبتت هذه العبارة فى المحضر الذى نشر على الناس أما الذى لم يثبت أو فى القليل لم ينشر ، فهو ما** أردف به هذه العبارة اذ قال « **ولكنى أخبركم أنكم اذا أخذتم برأى وزارة المالية فانى سأتخلى عن الحكم** » .

هذه العبارة التى كان لها أثر حاسم فى موقف الوزراء الآخرين وفى اعطاء أصواتهم والتى لا أشك أن سكرتير عام المجلس قد أثبتها فى محضره لانها استثارت ردا منى عليها اذ قلت انه من الاولى أن أتخلى أنا عن منصبى فى الوزارة لانى صاحب الاقتراح المقدم بمنع الاستثناءات — هذه العبارة وما تبعها من رد عليها لم يشر اليهما أصلا فى المحضر المنشور بالجرائد — ولا شك أن النحاس باشا — ذلك الرجل الأمين فى النقل الى حد التفصيل الممل فى أحاديثه وخطبه — وقد رأى أن الامانه فى النقل تقتضى حذف هذه العبارة الخطيرة من المحضر أو من الصحف كما رأى أنها تسمح له بنشر أقوال لى — وأنا الطرف الآخر فى الحديث دون اطلاعى عليها فراجعها هو بالنيابة عنى ! .. هذا فضلا عن أنه نشر المحضر كله بدون اذن مجلس الوزراء وهو صاحب الحق فى نشر مداولاته السرية بحكم القانون .

٢ — وهناك ما هو أبلغ وأقطع فى معنى الخوف من صحة النقل حتى لا تفتضح حقيقه الأزمة للناس — وهو الخوف الذى ساور النحاس باشا وما زال يساوره حتى الآن وأملى عليه جميع تصرفاته المخيفة والخائفة معا !

فقد أشار النحاس باشا فى المحضر حسبما نشرته الصحف الى ما أذيع عن أنسبائه ورخص التصدير، فرددت على ذلك طويلا وقلت ان ماأذيع قد نتج عن تصرفاتهم هم وتصرفاته هو فى مسائل الترخيص وأثبت فى المحضر ما حصل من رفعته ومنهم فى مسائل الزيت والسكر والأرز كما أثبت حديث كامل باشا صدقى معى بشأن ما حاوله النحاس باشا من استصدار رخصه منه لأنسبائه بتصدير الى الشام ، الى آخر المأساة المتعلقه برخص التصدير — وكان كلامى فى مواجهته هو وفى مواجهة الوزراء ولم يرد أحد بكلمة واحدة على ما أثبته فى المحضر — ولكن جميع أقوالى هذه التى تنصب على صميم الازمة قد اختفت بسحر ساحر من المحضر المنشور مع أنها تستغرق صفحتين منه على أقل تقدير ... وقد تحايل النحاس باشا على عدم نشرها فى المحضر تحايلا لا يليق به فمهد لنشر المحضر بعبارة يؤخذ منها أن النشر قاصر على مسألة الاستثناءات ، ثم أثبت كلامه هو فيما يختص برخص التصدير ولم يثبت ردى عليه .

ولقد نشر هذا المحضر على أثر نشر مذكرة اللجنة المالية بمنع الاستثناءات فى احدى الصحف بناء على طلبى ، وما بى من حاجة الى ذكر السبب الذى دعا الى هذا النشر فقد أشير اليه فى كلمة تمهيدية مع المذكرة — ذلك أن الصحف كانت قد نشرت فى اليوم السابق بيانا موعزا به من رياسة مجلس الوزراء ، (وقد نشرته الصحف جميعا بنصه واعترف النحاس باشا بأنه هو الذى أمر بنشره) وجاء فى هذا البيان أن مجلس الوزراء رفض مذكرة اللجنة المالية باجماع آراء الوزراء عداوزير المالية وان أسباب هذا الرفض

تتلخص فى كيت وكيت ! ..

ولعلها أول مرة فى تاريخ مصر السياسى أوعز فيهـــا رئيس الوزراء الى الصحف بنشر عدد الاصوات التى أعطيت تأييدا لقرار مجلس الوزارء وتفنيدا لرأى أحد أعضائه فضلا عن نشر أســـباب القرار التى أبديت فى مداولات المجلس ...

لم يكن لهذا النشر الذى أعلن على الناس خذلان الوزير المختص واجماع آراء الوزراء ضد رأيه ــ لم يكن له الا حكمة واحـــدة هى احراج مركز الوزير أمام الرأى العام والزامه بتقديم استقالته .. اذ لا يتصور أحد أن رئيس وزارة فى مصر أو فى انجلترا أو غيرهما يطلع على الجمهور ببيان لا تمهيد ولا سابقه له ويقول فيه أن المجلس قد رفض باجماع الآراء رأى الوزير المختص ثم يبقى هذا الوزير لحظة فى مركزه ! واذا لم يخرج الوزير من تلقاء نفسه فان صدور مثل هذا البيان للناس من مجلس الوزراء يعنى تصريحا لا تلميحا « تفضل فاخرج » ! ...

كانت هذه هى النتيجة المنطقية المترتبة على هذا الاعلان ولكنى تفاديا للازمة ونتائجها الخطيرة رأيت من واجبى كوزير للمالية أن اكتفى بالدفاع عن رأى اللجنة المالية حتى لايقال ان رأيهـــا قد بلغ من السخف أو الضعف مبلغا أدى الى رفضه باجماع آراء الوزراء عدا وزير المالية المختص ... فأمرت بنشر المذكرة من غير ما تعليق عليها ردا على البيان المسبب الذى نشرته الصحف لمجلس الوزراء وبذلك تخيرت أهون السبيلين منعا للازمه سيما وأن المذكرة لم تتضمن الا بحثا اقتصاديا بحتا فى وجوب منع الاستثناءات المطلوبة وغيرها من غير ما تعريض بمحسوبية أو تعرض لسياسة .

بيد أن الذى يدعو الى التساؤل حقا ــ وهو تساؤل يذهب بنا الى حد العجب ــ هو موقف النحاس باشا منى عقب ذلك ، فلقد

كان مفهوما أن يرد على نشر المذكرة المالية التى لم تنشر الا ردا على بيانه المختصر ـ كان مفهوما أن يرد عليها بنشر المحضر المفصل لمجلس الوزراء وأن يكتفى بهذا الرد الذى حسبه مفحما وأقنع نفسه بأنه لمصلحته ! .. ولكن الامر الذى لا نفهمه أو من العسير فهمه على غير العارفين هو أن النحاس باشا وقد كانت له الكلمة الاخيرة فى النقاش لم يقنع بذلك بل أبى الا أن يخطو الخطوة الفاصلة بينى وبينه فطلب استقالتى أو اقالتى ! ...

عجبا ! .. فلم تكن مضت ثلاثة ايام على جلسة مجلس الوزراء الخاصة بالاستثناءات حينما وضعت استقالتى تحت تصرف رئيس الوزراء فأبى هو والوزراء قبولها ، فما الذى حدث فاستوجب هذه الطفرة من النقيض الى النقيض ؟ ..

علام وعلى من اعتمد لاتخاذ هذه الخطوة الجريئة ؟ وأى وحى استوحى فأوحى ؟ لعل فى الأمر سرا أو فى السر أمرا ستكشف الايام عن خبيئته ...

ومهما يكن من أمر ، فقد انتهزها النحاس باشا فرصة يحاول فيها اقالتى حتى لا يفتضح أمره باستقالتى .. وذلك لان الاستقالة تحمل معنى الاحتجاج على تصرفاته — وفى هذا كشف له — فى حين أن الاقالة تبرزه للناس غاضبا لا خائفا ، شاكيا لا مشكوا ...

الخوف من افتضاح أمره هو السر كل السر فى محاولة تعمل الأزمة بالاقالة اذ لا يغطى سوء القالة ، الا الاقالة ، أو الاذعان لتكليفه اياى بالاستقالة !

وليس أمعن فى معنى الاقالة من الاستقاله الجبرية ، وبخاصة اذا سبقتها استقالات اختيارية فرفضت ...

ولئن كان الواجب المقدس يمنعنى يامولاى من الافاضة فيما دار حول السعى لاقالة هذا الضعيف من محادثات ومقابلات ، ومحاولات

تسود لها وجوه وتبيض وجوه .. فما من شيء يمنعني بل كل شيء يدفعني الى أن أدعو الله وهو خير حافظ أن يحفظكم لمصر ملكا يحوطه الشرف ويخدمه الشرفاء ، ومصريا هو للوطن صخرة النجاة وقبلة الرجاء .

ولما لم يجد النحاس باشا سبيلا دستوريا الى اقالة الشرفاء النزهاء ، عمد الى وسيلة دلت على حنقه وضعفه معا ، **فأقالني ببلاغ من سكرتيرية مجلس الوزراء ! وأعلنت الصحف بيانا من هذه السكرتيرية جاء فيه ان رئيس الوزراء قد دعا جميع الوزراء عدا وزير المالية لحضور جلسة مجلس الوزراء الذى سيعقد فى ذلك اليوم !.. وهكذا كانت الاقالة بقدر المقيل !**

وكانت الروح التى أملت عليه محاولة اقالتى من الوزارة هى هى التى دفعته الى اقالتى من الوفد ، وهى كالاخرى لا تكلفه كثيرا الا بلاغا من سكرتارية مطواعة ...

وليس من حقى أن أعرض على مولاى تصرفات حزبية الا ما كان منها ماسا بمصلحة الدولة ، ومتصلا بالغرض الذى أرمى اليه من القسم التمهيدى للعريضة ، وهو ابراز الازمة فى لونها الحقيقى وتعليل ما سبقها وما لحقها من اجراءات لم يقصد بها الا التستر على ما خفى ، ما كان منه وما بقى !

واذا كان النحاس باشا قد بيت النية على الغدر بى فى الوزارة فرفض استقالتى وحاول اقالتى ، فما من شك أن هذه كانت نيته المبيتة لى بعد خروجى من الوزارة كسكرتير للوفد وعضو فيه وللاسباب وللاغراض عينها .

وكان النحاس باشا قد أعلن أبان اشتداد الازمة الوزارية انه سيخرجنى من الوزارة والوفد معا ، ظنا منه أنه سيلقى من

الشعب تأييدا لموقفه ، اعتمادا على ما له من سلطة الحكم ، وسلطة الوهم ... ولكنه فوجئ أية مفاجأة حينما دعيت الهيئة الوفدية للاجتماع عقب خروجي من الوزارة ورأى الشباب الوفدى وأعضاء اللجان يحملوننى على الأعناق فى النادى السعدى هاتفين « لمكرم النزيه » ثم رأى ويا للعجب مما رأى أن هذه الحماسة البريئة الصادقة قد سرت من الشباب الى الشيوخ والنواب ، فحيونى جميعا تحية ما أكرمها ، واقفين هاتفين !

وان أنس لا أنس موقف النحاس باشا في تلك الساعة الرهيبة ... فقد كان قابعا فى احدى غرف النادى مترقبا ما سيكون ، وسمع الهتاف بأذنيه ، ولعله أدرك أن الحال غير ما كان يتوقع من حال ، وإن كان الانصار هم بعينهم الانصار والوفد هو بعينه ... ولكن ما أبعد الشبه بين الليلة والبارحة !

لو أنه فطن لأيقن أن هذه الهتافات المتفجرة فى حضوره ، ورغم حضوره ، ان هى الا صدى للرأى العام ، وان هى الا أصوات منذرة تعقبها زمجرة ! ...

ولكنه هو ومن معه حسبوا أنهم قد يتغلبون على الطبيعة ، بالاصطناع والصنيعة فخدعوا أنفسهم وليسوا هم أول الخادعين المخدوعين الذين خدعتهم الخديعة ! !

دخل النحاس باشا قاعة الاجتماع مهزوما ومهموما فوقفت محييا ولكنه لم يرد التحية ثم اضطر نزولا على طلب الهيئة الى مصافحتى، وانتهى الامر بأن تعاهدنا على الامتناع عن طرح أسباب الخلاف عليها كما أنكر رفعته أمام الهيئة أية نية أو رغبه له فى المساس بمركزى فى الوفد ، وأصدرت سكرتارية الوفد بيانا بهذا المعنى وبما تم فى الاجتماع من تفاهم على الاحتفاظ بوحدة الوفد رغم الاختلاف فى الحكم ...

ولكن ما أسرع ما لفظ الرجل وعده ، فنقض عهده .. ولما تمض بضع ساعات على ما أخذ به نفسه !

ففى مساء اليوم نفسه حاولت احدى الصحف أن تنشر أن الاتفاق تم بين رئيس الوفد وسكرتير الوفد وأن النواب طلبوا الى عندما دخلت القاعة أن أجلس فى محلى المعتـــاد كسكرتير عام للوفد ، فحذف الرقيب عبارة « ســكرتير الوفد » ، حيثما وردت ، كما حذف عبارة « المجاهد الكبير » فى صحيفة أخرى !! ولمـــا تحريت الامر علمت انه قد صدرت تعليمات بهذا الحذف من معالى الاستاذ محمود غنام وزير التجارة بايعاز من رفعه رئيس الوزراء ... ولما خاطبت وزير التجارة فى ذلك قال انه سيعمل على تهدئة الحال !!

ولكن ما الذى كدر هذه الحال بعد الذى حـــدث من تصافح وتصالح .. ولم يكن قد صدر منى أو من غيرى شىء فى المسافة بين النادى والدار ، وفى السويعات بين الليل والنهار ! ... كلا بل هى نية الغدر بالزميل القديم ، والسبق الى الاخراج قبـــل الاحراج !

وحسبى أن ألخص بعض ما تلا خطوته الاولى من خطوات لو أنها اتجهت ضدى وحدى لهان الأمر، ولكنها اتجهت ضد الحريات العامة والمصلحة العامة فى شتى مناحيها .

بدأ النحاس باشا بمحاولة محو اسمى من الصحافة فأمرها بأن لا تنشر شيئا منى أو عنى مهما يكن بريئا أو بعيدا عن السياسة ، وفى الوقت نفسه سمح لبعض جرائده أن تتهجم على موقفى منه دون أن يسمح لى حتى بحق الرد أو التصحيح ، الذى اعتـرف به لكـل خصم فى كل عهد من العهود .

وذهبت به الجرأة الى حد منع الصحف من نشر خطاب كريم تفضل بارساله الى حضرة صاحب السمو الامير عمر طوسون ذاكرا لى ما

أديت من خدمات متواضعة لبلادى ومتمنيا لي التوفيق فى خدمتها خارج الحكم وكذلك منع نشر رسالة كريمة من رجل من كبار الدين والتقوى هو فضيلة الشيخ أبو الوفا الشرقاوى .

ولم يكفه ذلك بل أصدر التعليمات مكتوبة الى الرقيب بحظر كل اشارة الى البرقيات التى ترد من الخارج وفيها بعض الثنـــاء أو التقدير لمكرم ...

وما دام رفعته قد سمح لنفسه بمنعى عن الرأى العام ، فليس أهون من أن يمنع الرأى العـــام عنى .. ولذلك صادر عدد كبيرا جدا من البرقيات التى كانت ترسل الى من مختلف نواحى البلاد ، ومن كثير من الهيئات والجماعات،حاملة لىرسالة التقدير والتشجيع من أبناء هذا الشعب الكريم الذى يتميز عن كثير من الشعوب بدقة حساسيته ، وسلامة غريزته .

وليس مثل الاستبداد سيدا ينفر من كل شرك فى الســيادة ، فيستبد بالمستبد نفسه حتى يصبح الاستبداد لديه ميلاواستعدادا ومن ثم تراه يسير فى طريقه المرسوم خطـوة فخطـوة ، واطرادا فاطرادا ...

وهكذا انزلق النحاس باشا من استبداد الى استبداد ، فتدرج من رقابة الصحف الى رقابة منزلى ، الى رقابة رسائلى البرقيـــة ، الى رقابة مواصلاتى التليفونية ، وانتهى به الأمر الى فرض الرقابة على البرلمان نفسه ! ...

غير انه رأى تمهيدا لخطته فى البرلمان وفى الوفد أن ينقض عهدا آخر ــ وما أسهل التعود على نقض العهود ! ... فراح يجمع الهيئة الوفدية البرلمانية مجزأة فى ممثلى كل مديرية من المديريات ويشرح لها أسباب الخلاف، ناسيا ما قطعه على نفسه من عهدصريح فى اجتماع

الهيئة الوفدية فى النادى السعدى ، وناسيا أن الحكم فى القضاية الادبية لا يفرق فيه بين الغياب والاغتياب ..

كان النواب والشيوخ يخرجون من هذه الاجتماعات وهم حيارى لا يدرون هل كان النحاس باشا يدافع عن نفسه أو ضدها ... كما كانوا يروون عنـــــه من الأقاصيص ما كنت أمتنع عامدا من روايته ، حرصا على كرامته ...

وقد أعلن رفعته فى هذه الاجتماعات انه هو — من بادىء رأيه — قد فصلنى من سـكرتارية الوفد ، وانه سيقـاوم بكل وسيـلة ترشيحى لنقابة المحامين ، فأرسلت اليه خطـابا مذكرا اياه اننى انتخبت سكرتيرا عاما للوعد باجماع آراء الهيئة فى نفس الجلســة التى انتخب هو فيها رئيسا للوفد ، وانه فيما يختص بنقابة المحامين فليس لأية حكومة عسكرية كانت أو غير عسكرية أن تتـدخل فى انتخابات طائفة كريمة مثقفة كطائفة المحـــامين فتعبث بحريتهم وكرامتهم .. ولكنه لم يتفضــــل بالرد على .. وجاءنى رده فى البرلمان على غير توقع وانتظار ! ..

وكان البرلمان قد أجرم فى حق النحاس جريمة لا تغتفر ، فقرر مجلس الشيوخ فى حضور وزير العدل شـــكرى على ما أبديت من خدمات للبلاد كوزير للمالية والتموين ، فصفق الجميع لهذا القرار بالاجماع وصفق معهم وزير العدل غير مدرك الا بعد أن استدركه أن فى الأمر وزرا .. وكان استدراكه فى مجلس النواب حينما هدد النحاس باشا نوابه بالتخلى عن الحكم اذا ما اشتركوا مع الشيوخ فى التقدير والشكر .. فاستبعد رئيس المجلس الاقتراح بشكرى دون أخذ الاصوات عليـه من المجلس ... ولكنى رأيت أن أكون كريما ، وللكرم ثمنه ... ثم ما لبث وما لبثنا حتى رأيناه فى آخر الجلسة ينقلب فى غير مناسبة من الوجوم ! الى الهجوم ويعلن بصدد

طلب تأجيل استجواب التموين انه هو وحده دون أى وزير آخر كان ولا يزال المسئول عن شئون التموين ! وهكذا رضى وأرضى !

ثم تلت ذلك جلسة الاستجواب المقدم من حضرة النائب المحترم فكرى أباظه بصدد الاستثناءات فأصر على نظر الاستجواب فى نفس الجلسة رغم طلب المستجوب بيانات ورغم اكفهرار جو الحرب واقتراب الخطر من الاسكندرية ولكنه صاح فى وجه كل معترض صيحة كشفت عن حقيقة أمره ، وخبيئة سره قائلا انه متهم وأن الحكومة متهمة وانه لا بد له من الرد على هذا الاتهام ! ...

متهم ! ... نعم هذا هو مفتاح السر ، وأصل الشر ... وهذه هى العقلية التى تسلطت عليه فجعلته يحاول التسلط على كل شىء فى البلد لكى يخفى وقائع التهمة ، وأدلة التهمة ، ولكى يقطع ألسنة الاتهام فى الصحافة ، أو فى البرلمان ، أو فى المجتمعات . وأخيرا فهناك ممثل الاتهام والمطلع على الأسرار والأساليب ، هذا قبل غيره يجب أن يحاط بسياج من حديد ...

عقلية المتهم هذه تجلت أيضا فى القرار الذى أصدره أو استصدره من هيئة الوفد ، فمكرم واخوانه من شيوخ ونواب فصلوا جميعا من الهيئة التى كانت تنتمى اليهم أكثر من انتمائهم اليها ، لا لسبب الا لأنهم « اتهموا » رئيس الوزراء بالتفريط فى حقوق البلاد !..

هنا أيضا المتهم يتكلم ، والمتهم يتظلم ، وياويل العدالة اذا كان المتهم هو الذى يحكم ويتحكم !!

فهل من عجب — وتلك عقلية المتهم — أن يحاول عند أول فرصة تتاح له أن يتخلص من ممثل الاتهام بفصله من وظيفته كسكرتير للوفد ، ومن هيئته كعضو فيها ؟ .. وقد سنحت له هذه الفرصة فى استجواب الاستثناءات ، فما كدت كممثل للاتهام ألفت نظره الى واقعة بريئة أشار اليها فى دفاعه مبينا له أن هذه هى نقطة

البحث ، حتى هاج وماج وصاح فى ألفاظ ضــاقت المضبطـة عن بعضها ببعضها ، فقال انى فصلتك من سكرتاريه الوفد وانى كذا وكذا وأنت كذا وكذا ، الى آخر ما قال مما يدعو الى الرثاء لحاله ، أكثر من التأذى بأقواله ...

استمر الحال على هذا المنوال ، وتفاقم الاعتداء على الحريات جميعا فى سبيل الاعتداء على حرية مكرم فى الكلام ، كما ساءت حالة الحكم وتفشت المحسوبية والمحاباة فى أســوأ مظـاهرها بين الموظفـين والأهلين ، وامتـــد الفساد والعبث الى التموين وغيره من المرافق الحيوية ، ثم تعرضت البلاد لويلات الحرب ولم تجـــد من الحكومة الوقاية أو العناية الكفيلة بحماية الارواح والحقوق — وفى هـــذا الحين وفى وسط هذا الضيق قامت الحـــكومة بفرض الضرائب غير الرسمية على الاهلين باسم مشروع البر ، ثم راحت تنفق النفقات الجسيمة فى شراء السيارات للوزراء وأتباعهم وفى مظاهر الترف التى سيأتى الكلام عنها فى خلال هذه العريضة — حيال هذا كله رأيت وبعض اخوانى من النواب أن نتقدم الى المجلس بعريضـــة نطلب فيها مناقشة هـــذه التصرفات ، دون أن نلجـــأ الى طريق الاستجواب وقلنا فى صريح اللفظ اننا لا نبغى احراجا بل علاجا .

وقد أردنا أن نكون أمناء للنظام الحزبى فاتصلت بحضرة سكرتير عام مجلس الوزراء وطلبت اليه أن يرجو من رفعة النحاس باشا عقد الهيئة الوفدية لمناقشة العريضة فيها قبل تقديمها الى البرلمـان ، عسى أن نقنع الحكومة بأخطائها فتعالجها ، أو نقتنع بخطــأ مأخذنا عليها فنعدل عنها ، من غير ما حاجة الى مناقشته البرلمان .. ولكنه رفض عقد الهيئة قائلا أمامكم طريق الاستجواب فى البرلمان .

ولم يكن بد اذن من تقديم العريضة الى البرلمان لمناقشتهـــا ، ولكن حدث قبيل الجلسة المحددة لتقديم العريضة أن اجتمع رئيس

مجلس النواب فى غرفته ببعض الوزراء ، ثم افتتحت الجلسة فاذا برئيس الوزراء يقف ويطلب جلسة سريه لالقاء بيـــان عن الحالة الحربية ، وانعقد المجلس فى جلسة سرية وألقى رئيس الوزراء بيانه واذا برئيس مجلس النواب يفاجئنـــا بالاعلان من منبر المجلس أن عريضة موقعا عليها من ٣٦ نائبا قد قدمت اليه بطلب المناقشة فى بعض المسائل وانه بهذه المناسبة يعرضها على المجلس ويتلوها عليه ... وبعد تلاوتها لفت سعادته نظر المجلس الى ما له من حق فى مناقشة العريضة أو استبعادها وسأل عما اذا كان المجلس يوافق على استبعاد العريضة فوافق الانصار المتحمسين صـــائحين، رغم احتجاجنا بمخالفة هذا التصرف الغريب لاحكام الدستور واللائحة .. فكان احتجاج ، وكان لجاج ، ولكن لم تكن هناك مناقشـــة بل استبعدت كل مناقشة ، وفقا للتقاليد النيابية الحديثة التى ابتدعها مصطفى النحاس ومن الى مصطفى النحاس ، لحماية مصطفى النحاس

خرجنا من هذه الجلسة السرية وقد كسب النحاس باشا المعركة فالعريضة قدمت فى السر ، وتليت فى السر ، واستبعدت فى السر : وكان الله بالسر عليما ...

بقى اجراء آخر ، هو أن يفصل مكرم من الوفد من غير ما مناقشة أيضا ... ورغم أنى وزميلى المحترم راغب بك حنا طلبنا تأجيل الجلسة الى الغد لوفاة قريبة لى ولمرض زميلى ، فان الوفد اجتمع فى تلك الليلة نفسها وفى غيبتنا ، ومن غير اخطارنا بالتصميم على الاجتماع ، واتخذ الاعضاء المساكين قرارهم دون أن يسمعونا ، فشرفونا ولم يشرفوا هيئتهم بل ولا مطاولاتهم بمظهر المناقشه أو الموازنة بين الطرفين ، ولكن النحاس باشا كسب ولا شك المعركة وقد فاز ممثل الاتهام من الادلة بأسباب التهمة وأسانيدها ، ولو بين أربعة جدران اذ أن « للحيطان آذان » !!

وكانت مساومة مفضوحة ، ولعبــــة مكشوفة تلك التى جعلتهم يعلنون فى قرارهم انهم ســـــينظرون فى أمر النواب الذين وقعوا على العريضة فى جلسة أخرى ... فما بين الجلسة والجلسة تبذل الهمة لانها المهمة ، وقد إنتهت ويا للاسف الى خاتمة محزنة توسلوا اليها بوسائل من مثلها ، تدل الدلائل على أصلها ! ..

ومن أروع ما يذكر فى هذا الصدد أن حضرات الشيوخ والنواب الذين ثبتوا معى فى الدفاع عن النزاهة والشرف أرسلوا الى النحاس باشا استقالة مسببة وقعوها بامضاءاتهم احتجاجا على قرار الوفد الذى صدر ضد زميلى وضدى ، وفيما يلى نص هذه الاستقالة :

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا

يتشرف الشيوخ والنواب الوفديون الموقعون على هذا بأن يقدموا الى رفعتكم إستقالتهم من الهيئة الوفدية التى ترأســـونها وذلك احتفاظا منهم بوفديتهم الأصيلة واستمساكا بالمبـــادىء الوفدية الخالدة التى ساهموا فيها وجاهدوا لها منذ أن شكل الوفد برئاسة زعيمه الخالد سعد زغلول .

وقد رأينا من مصلحة الوطن والوفد معا أن نبادر باتخاذ هــذه الخطوة بعد أن اقتنعنا بأنكم خالفتم مبادىء الوفد السامية فى الحكم وفى الوفد معا بحيث أصبحت حقوق بلادنا وكرامة رجالنــا فى خطر داهم لن ينقذها منه الا رحمة الله ودماء المخلصين من أبناء هذا البلد الامين .

ولقد عاهدنا الله أن نجاهد جهاد البررة الاوفياء لمبدأ الوفد الامين لكى نبقى على البقية الباقيه من فكرة الوفد السامیــة التى أزكاها سعد ويحييها اليوم أبناء سعد .

وتفضلوا رفعتكم بقبول فائق الاحترام

القاهرة فى ١٢ يولية سنة ١٩٤٢

السيد سليم نائب البوها • محمد فريد زغلوك نائب سنطا • اسماعيل محمد فواز عضو مجلس الشيوخ • زكى ميخائيل بشارة عضو مجلس الشيوخ • عبد الله محمد فواز نائب أولاد حمزة • ميشيل رزق عضو مجلس الشيوخ • جلال الدين الحمامصى نائب الصحراء الغربية • الدكتور فهمى سليمان نائب محلة روح • أبو المجد الناظر نائب أرمنت • نجيب ميخائيل بشارة نائب قوص • حسين الهرميل نائب محلة مرحوم • لبيب جريس نائب صنبو • محمد عثمان عبد القادر نائب أبو حماد شرقية • الفريد قسيس نائب مركز المنصورة أبو الغيث الاعور نائب أبو جرج • مهنى القمص نائب ديروط المحطة • جورج مكرم عبيد نائب أولاد عمرو •

ولكن الحكومة الخائفة الواجفة جافت حتى من نشر هذه الاستقالة وذهب بها الخوف الى ما هو شر منه وهو تشويه الحقيقة وتزييفها فى قرار أصدرته هيئة الوفد التى يرأسها رئيس الوزراء ومن أعضائها أكثر الوزراء فقد جاء فيه أن الوفد قد قرر فصل الاعضاء السبعة عشر الذين ذكرت أسماءهم دون أن يشير القرار الى هذه الاستقالة بكلمة واحدة ، ودون أن يسمح للصحف بالتنويه عنها •

وأشد من ذلك وأدهى أن القرار أشار الى فصلهم بناء على أنهم اتهموا رئيس الوزراء وزملائه بالتفريط فى حقوق البلاد مع أن من بين هؤلاء الاعضاء بعض حضرات الشيوخ الذين لم يشتركوا فى التوقيع على العريضة التى اشتملت على الاتهام بالتفريط فى حقوق البلاد ، اذ أن هذه العريضة قدمت لمجلس النواب لا لمجلس الشيوخ

وزيادة فى التمويه ، والسبك والحبك ذكر القرار أسماء حضرات الاعضاء من غير ألقاب دون أن يشير الا أنهم شيوخ أو نواب !! ••

وهكذا ارتضى النحاس باشا لنفسه ولزملائه أن يوهم الناس فى غير حق أن هؤلاء السادة لم يستقيلوا بل فصلوا فصلا وكان فى

مقدوره لو توخى الامانة فى ذكر الوقائع أن يقول ان الوفد قد قبل استقالتهم .. اما أن يقول هو والهيئة التى يرأسها انهم فصلوا — وهم يستقيلون قبل الفصل — وانهم جميعا اتهموه بالتفريط مع أن بعضهم أعضاء فى مجلس الشيوخ ولم يتهموه ولم يوقعوا العريضة بهذا الاتهام — فهذا هو الزيف بعينيه وانى لا أتشرف بعرضه كمثل واحد من الامثلة العديدة التى ستأتى الاشارة اليها ليكون محل تقديركم السامى .

هذه يامولاى نظرة عامة الى أسباب الخلاف الوزارى ونتائجه حتى خروجى من الوزارة ومن الهيئة السياسية التى يرأسها رئيس الوزراء ، أما ما تلا ذلك من مساوىء الحكم والعبث بالحريات على اختلاف أنواعها فسيأتى الكلام عنه ضمن القسم الثانى من هذه العريضة وهو القسم الذى سيتناول تفصيل الوقائع والادلة عليها منذ أن دخلت الوزارة حتى الآن .

ولقد عنيت بذكر أسباب الخلاف وملابساته وتطوراته فى هذا القسم الاول من العريضة حتى تكون الحقيقة بأكملها ماثلة أمام نظر جلالتكم السامى فتتبينوا العوامل الظاهرة والخفية التى أدت بالحكم الى سوء المصير ، وانى فيما يتعلق بى لم أكن الا الفريسة الاولى لهذا الانقلاب الخطير ، فلم أكن متجنيا ولا معتديا ، بل ناصحا ومشيرا ، وكان الفريسة التالية هى الحكم نفسه وقد ساء مصيرا ..

لم أتعجل اذن المعارضة ، كما قال البعض وقد شوهت الحقائق .. بل على العكس فقد كنت متمهلا فوق تمهل ، متحملا فوق تحمل ، وحسبى أن أعدد هذه الحقائق فى ايجاز ..

أولا — ظللت فى الوزارة شهورا أنصح وأحذر ، وأرجو وأنذر ، دون أية جدوى ، فتمهلت ثم تمهلت ...

ثانيا ــ قدمت استقالتي بدل المرة ثلاث مرات ، كنت أقدم ثم أحجم عسى أن يصلح الله الحال ، وتحملت في هذا السبيل كل دس وكل صغار ولكنني تمهلت ، ثم تمهلت ٠

ثالثا ــ حاول رئيس الوزارة اقالتي فحماني الله منها ، فاستقال وأخرجني من الوزارة ٠

رابعا ــ كان من حقي أن أغضب لكرامتي ، ولكني تمهلت وارتضيت أن لا أدلي ببيان عن أسباب الخلاف أمام الهيئة الوفدية ٠ وارتضى هو ذلك ، مع الفارق بين المعتدي والمعتدى عليه ٠

خامسا ــ نقض هو هذا العهد فأدلى بأسباب الخلاف أمام الشيوخ والنواب الوفديين بين مديرية فمديرية ورغم ذلك تمهلت ثم تمهلت

سادسا ــ فرض الرقابة الخانقة على الصحف في كل ما يتعلق بي ، فلا نشر مني أو عني في الوقت الذي سمح لجرائده فيه بأن تحبذ موقفه وتشوه موقفي فتمهلت ثم تمهلت ٠

سابعا ــ صودرت البرقيات الواردة لي وأحيط منزلي بالجواسيس وروقبت حركاتي ومواصلاتي التليفونية فتمهلت ثم تمهلت ٠٠

ثامنا ــ فصلني من سكرتارية الوفد ، بقرار صادر منه في غير اختصاصه وطلبت اليه عرض الامر على الوفد وهو الهيئة المختصة فرفض ، ورغم ذلك تمهلت ٠٠٠

تاسعا ــ تدخل في أمر ترشيحي لنقابة المحامين ليحاربني حتى في مهنتي فتمهلت ثم تمهلت ٠٠٠

عاشرا ــ منع مجلس النواب من شكري على خدماتي واعتدى على كرامتي بألفاظ جارحة غير لائقة فتمهلت ثم تمهلت ٠

حادي عشر ــ وأكثر من هذا وأشد فانه رغم خطر الحرب واقترابه من داخلية البلاد أصر على الكلام في استجواب الاستثناءات رغم

الحاحنا عليه فى التأجيل ، ولما أن جاء دورى فى الرد عليه فىاليوم التالى وقيل ان الخطر قد تفاقم وانه لذلك لم يحضر الى المجلس أبت علينا وطنيتنا أن نستغل الظرف الدقيق لمصلحة الاستجواب فارتضنيا ، وقلبوا التأجيل الى تنويم ، ومع ذلك تمهلنا ثم تمهلنا ...

ثانى عشر — منعنى واخوانى النواب من مناقشة تصرفاته فى الهيئة الوفدية ، وعمل على استبعاد عريضة المناقشة بعد تلاوتها فى جلسة سرية ، مخالفا فى ذلك كل قانون وكل عدل ، فتمهلت ثم تمهلت ...

ثالث عشر — فصلنى واخوانى من الهيئة السياسية التى شرفناها فشرفتنا ، وتم هذا الفصل المزرى فى غيبتنا دون أن تسمع لنا أقوال ، فتمهلنا ثم تمهلنا .

رابع عشر — وأخيرا حاربنا حتى فى تكويننا وفى مباشرة حقوقنا النيابية ، بل وفى الاستمتاع بحريتنا الشخصية ، فهل يقول قائل بعد ذلك اننا تعجلنا المعارضة ، أم أننا تمهلنا الى أبعد حدود التمهل ، وتحملنا الأذى والاضطهاد فوق طاقة التحمل ! ..

على العكس يامولاى ، فاننى لأتهم نفس بأننى تمهلت عليه أكثر مما وجب التمهل ... ولى فى ذلك عذرى ، أستمده من حنايا صدرى ، وقد غلبنى شعورى على أمرى ...

أليست هى صداقة العمر ؟ وأليست هى ذكريات غاليات صحبتنا فى النفى وفى الأسر ، وفى الهزيمة وفى النصر .. فهل من عجب اذا ما أشفقت وامتد بالاشفاق حبل الصبر ؟

الفصل الرابع

الفرصة الضائعة

وكانت السراى قد بدأت تفكر فى اتخاذ اجراء نحو الوزارة عقب تقديم الكتاب .

وبادر السفير البريطانى فاجتمع بالملك ليقول له انه ينبغى التجاوز عن مبادىء الأخلاق فى وقت الحروب . وفى وسط هذا الجو المسموم استقال احمد حسنين رئيس الديوان الملكى استقالة مسببة رفضها الملك بخطاب آخر .

وتقدم كيلرن بانذار حاسم « لا تغيير » ..

وفرح الوفديون بالانذار .. وبدأوا يحسون أن أيدى الانجليز وحرابهم ما زالت تسندهم ، فانقلبوا الى الهجـوم ، وبادروا الى استصدار قرار بفصل مكرم عبيد من مجلس النواب لأنه كان أسوأ مثل كنائب كما سأبين فيما بعد .

وأعقب ذلك فتح أبواب المعتقلات لتضم الذين عملوا على اخـراج الكتاب ، فاعتقلت فى ابريل ١٩٤٣ واعتقل مكرم بعـد فصله من مجلس النواب .

هذا الكتاب الأسود كان أكبر حدث من الأحداث السياسية فى هـذه الفترة من تاريخ مصر . وقد وضح للعـالم مدى ما ارتكبه المستعمرون فى حق مصر ، بالاصرار على أن تبقى فيها حكومة فاسدة مفسدة ، لأنه فى أوقات الحروب لا يصح اقامة أى اعتبار لأى مبدأ من مبادىء النزاهة والشرف !

لقد أدت المعارضة واجبها ، فأيدت الأحزاب الأخرى عريضة الكتلة الوفدية ، وفعلت السراى ما كان فى استطاعتها أن تفعله ، ولكنها تفادت محاصرة عابدين بالدبابات مرة أخرى ، فقد كان الانجليز دون شك على استعداد لأن يكرروا العملية الوقحة ثانية ، أما مجلس النواب فقد كان الموقف فى يده ، وكان يستطيع أن يلعب دورا هاما فى هذه الأحداث ، وأن يغير مجرى التاريخ ، كان فى الامكان أن ينقل الوفديون ، من أعضاء البرلمان ، الحكومة الى داخل الهيئة الوفدية ، وأن يناقشوا مصطفى النحاس رغم أنفه فى هذه الفضائح ، بل كان فى امكان أعضاء الوفد أن يضيقوا دائرة الحساب فيجعلوها قاصرة على أعضاء الوفد القلائل ، ولكنهم لم يفعلوا ، ومضت حرم مصطفى النحاس فى خطتها للثراء .

والواقع أنه كان مستحيلا على غالبية الوفديين أن يحاسبوا رئيسهم لأنهم كانوا أنفسهم فى حاجة الى من يحاسبهم ، ولم تكن زينب الوكيل بغافلة عن هذا كله ، ولهذا سهلت للنواب الذين يريدون شيئا أن ينالوه . ولكن الذى لا شك فيه أنه كان بين أعضاء الهيئة الوفدية من لم تلوثه هذه الجرائم ، ولكنه لم يكن من الشجاعة بحيث يواجه جبروت الرئيس ، وابتسامات حرم الرئيس ، وهؤلاء لا يعفيهم الجبن من المسئولية ، وهم فى الواقع شركاء فى الجرائم التى وقعت .

ان محاضر جلسات مجلس النواب التى سجلت مناقشات وقائع الكتاب الأسود ، وهى ملك التاريخ الآن ، حافلة بأسوأ ما مرت به الحياة النيابية من أكاذيب وقرارات ، والذى يقرأ التاريخ الذى كشفت عنه محاكمات محكمة الثورة ، ويراجع محاضر مجلس النواب فى الفترة التى تلت صدور الكتاب الأسود ، وانتهت بطرد مكرم عبيد من مجلس النواب ، يحكم فورا بأن الحياة النيابية فى مصر ،

في الفترة التى حكمت فيها الأغلبية ، كانت صورة فاضحة لما كانت عليه هذه اللعبـــة النيابية التى أضعفت فى الشعب روح المقـاومة وجعلته يفكر فى ذاته قبل أن يفكر فى بلاده .

هكذا كان زعيم البلاد ...

وهكذا كان برلمان الأمة ..

وهكذا كان رجالات مصر ..

وكذلك كان الشعب يشهد كل ذلك صامتا ، راضيا ، بل كان ينقد بشدة أولئك الذين يحاولون أن يكتشفوا الأسرار ، بحجة أن التعرض للسيدات لا يتفق مع العرف والتقاليد ، ومعنى ذلك أنه لا ضير أن تضيع سمعة الحكم ونزاهة الحكام فى سبيل أن نبقى عـــلى عرف سخيف أو تقليد قديم .. وهو الا نتعرض لسيدة انتقل اليها حكم البلاد ، وفتحت لها خزائن الدولة لتغترف منها ما تشاء .

وهذا ما حدث فعلا ..

بل حدث أخطر من هذا ، حدث أن أصبح البرلمان يسير بوحى من الانجليز ، فقد أحست الوزارة أن أحمد حسنين وراء الكتاب الاسود وأنه كان أحد العاملين على اصداره وتوزيعه ، فبدأت تهاجمه ، وتوعز الى بعض النواب أن يتقدموا بأسئلة ليلوثوا بها سمعة الرجل .

وغضب الأستاذ فكرى أباظة من هذا الاتجاه ، وأنذر النـــواب بأنهم يشعلون نارا لا بد أن تصليهم ويصيبهم شيئا من لظـــاها ، ورفض رئيس المجلس الأستاذ عبد السلام جمعة السماح للأستاذ فكرى أباظة أن يستمر فى هذا الكلام ، وانتهى الأمر باخـراجه من المجلس بالقوة .

وسمع الانجليز بهذا الذى يثار فى مجلس النواب ، وعلموا أن الملك يوشك أن يحمى رئيس ديوانه باتخاذ قرار حاسم ، فذهب

سير والتر سمارت ، السكرتير الشرقى بالسفارة البريطانية ، الى مجلس النواب ، وأرسل يستدعى الأستاذ عبد السلام جمعة ، ثم نبهه الى الخطر الذى يترتب على استمرار المجلس فى محاولة تلويث سمعة رئيس ديوان الملك ٠

وعاد الأستاذ عبد السلام جمعـــة الى قاعة المجلس ، وطلب من النواب أن يستمعوا اليه ٠

وصمت المجلس وساد السكون ٠٠

وانطلق الأستاذ عبد السلام جمعه بصوته الجهورى يقـــول : « حضرات النـــواب المحترمين ، عنت لى فكرة ٠٠ هى أن توافقوا حضراتكم على رفع كل ما دار من مناقشة حول رئيس ديوان الملك من محضر الجلسة » ٠

وصمت المجلس مرة أخرى ، ولكن حضرات النواب قالوا بعـــد لحظات : « موافقون ٠٠ موافقون »

ومرت الأزمة ، ولكن بعد أن جرحت الحياة النيابية فى الصميم ، اذ لم يسبق أن دخل أحد ممثلى الاستعمار الى دار النيابة ٠٠ دار الشعب ـ ليشير على رئيس النواب باتخاذ اجراء معين ٠٠

ولقد خضع رئيس النواب ٠٠

وخضع النواب لرغبات الانجليز ٠

وكان فى استطاعة النواب أن يطلبـــوا تأليف لجنـــة للتحقيق ، ولكنهم جبنوا ولم يفعلوا ٠٠

وكانوا يستطيعون أن يطلبوا من النحاس احالة مكرم بعد رفع الحصانة البرلمانية عنه الى النيابة لتحقيق هذه الوقائع ومحاكمته ، ما دامت هذه الوقائع التى تضمنها الكتاب الأســـود كاذبة كلها ، ولكنهم جبنوا ولم يفعلوا ٠٠

وكان أعضاء الوفد يستطيعون أن يناقشـوا النحاس فى هـذه الوقائع ، وأن يطلبوا منه أن يزيح السيدة زينب الوكيل من ميدان الاتجار بقوت الشعب ، وأن يمنعها من التدخل فى شئون الحكم ، ولكنهم جبنوا وخشوا أن يفصلوا من عضوية الوفد ، فيضيع نفوذهم وتضيع الفرص فى الثراء السريع ..!

لقد كانوا يعلمون قوة تأثير السيدة زينب الوكيل على رئيسهم ، وكانوا يعرفون أن كل محاولة من هذا القبيل لن تنجح ، ومن ثم آثروا السكوت ، ورضوا بالذلة والهوان حتى لا يفقدوا عضـوية الوفد ، وتناسوا أن المضى فى هذه السياسة الفاسدة لابدأن ينتهى بهم جميعا الى أسوأ نهاية .

وقد حدث .. وأصبحوا بعد قيام الثورة ساسة قدماء لا قيمة لهم ولا وزن ، فى عهد قام للقضاء على الفسـاد بكل أنواعه ، وحل الوفد .. الحزب الذى كان يمثل الأمة والشعب ، لأنه لم يكن حزبا جديرا بالبقاء ، ولأن أعضاءه أبوا أن يجعلوه قويا .. هؤلاء الأعضاء خرج منهم فيما بعد الأستاذ أحمد نجيب الهلالى ليصبح رئيسـا للوزراء وليقود لجان التطهير ضد فساد الحكم .. ترى ماذا كان يمكن أن يكون عليه حال الوفد لو أن الأستاذ نجيب الهـلالى وغيره من أعضاء الوفد ضربوا ضربتهم الكبرى فى عام ١٩٤٢ وأيدوا مكرم فى دفاعه عن نزاهة الحكم ومهاجمة الفساد الذى تغلغل فيه .

ولكنهم تأخروا .. تأخروا عشر سنوات .. وكان نزولهم الى الميدان بعد فوات الأوان .

وكما قلت من قبل ، فقد بادرت الوزارة الوفدية فأوعزت الى نوابها بأن يوجهوا الى الوزراء أسئلة معينـة تدور حول ما جاء فى الكتاب الاسود من اتهامات ، ووقف الوزراء فى المجلس يجيبون

على هذه الأسئلة اجابات كانت تقابل بالتصفيق الحاد ، ثم يتقدم النائب السائل فيعلق على الاجابة بتعليق يكشف فيه عن الرضاء الكامل بهذه الاجابة التى أكدت « نزاهة الحكم الوفدى » .

وهكذا مضت التمثيلية فى طريقها،وأفسحت الصحف صفحاتها للأسئلة والأجوبة دون أن يكون لصاحب الكتاب الاسود أى حق فى الرد أو التوضيح . ولما كانت الاسئلة فى مجلس النواب من حق السائل والمسئول فقط ، فلم يكن فى استطاعة مكرم أو أى عضو من أعضاء الكتلة الوفدية أن يتكلم أو يتدخل فيما هو من حق السائل والمسئول وحدهما .

ووجد مكرم أن الوضع يتطلب أن يتقدم الى الميدان باستجواب مفصل .

واستعدت الحكومة ونوابها ، لا لمناقشة الاستجواب فحسب ، بل لاتخاذ الاجراء الاخير بالنسبة لمكرم بعد أن فصل من الوزارة وسكرتيرية الوفد ، وعضوية الحزب ... وهذا الاجراء هو الفصل من عضوية مجلس النواب ...

وبنفس الأسلوب الذى ردت به حكومة الوفد على أسئلة النواب، نوقش استجواب مكرم . ثم اجتمع المجلس فى ٢٣ مايو عام ١٩٤٣ وأصدر قرارا أشار فيه الى أنه يعتبر مكرم عبيد أسوأ مثل للنائب منذقامت فى البلاد الحياة النيابية سنة١٩٢٤ ، وجاء فى هذا القرار:

بعد سماع ما ألقاه حضرة المستجوب عرضا وتعليقا على الموضوعات التى أثارها فى استجوابه المبنى على كتابه الاسود .

وبعد سماع الردود والاجابات التى أدلى بها حضرات الوزراء عامة وحضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا خاصه : شرحا وتعليقا وبيانا وتحديدا لما ورد على لسان المستجوب فى استجوابه وعلى كلام المستجوب فى كتابه .

وبعد الاطلاع على المستندات والمكاتبات والوثائق الخاصة بهذه الموضوعات التى سبق أن سارعت الحكومة الى ايداعها مكتب المجلس حتى يطلع عليها من يشاء .

يسجل المجلس ما تبين له من الحقائق والملاحظات الآتية :

أولا — أن الحكومة قد سارعت الى مناقشة الاستجواب فورا بمجرد تقديمه ، وكان رفعة رئيس الحكومة قد صرح قبل ذلك فى المجلسين عقب أن أبلغت اليه العريضة من ديوان جلالة الملك أى منذ أكثر من شهر ، بأن الوزارة ترحب بكل سؤال أو استجواب يوجه اليها عن أى موضوع وارد فى العريضة وفى ذلك الكتاب ، وانها مستعدة للادلاء بالبيانات القاطعة الحاسمة المؤيدة بالادله والمستندات ، بل زاد رفعته على ذلك بأن دعا المعارضين والانصار على السواء أن يدخلوا هذا الباب الذى فتحه لهم على مصراعيه ، رغبة منه فى تنقية الجو فى أقرب وقت مستطاع — ومنذ ذلك الوقت أجابت الحكومة على ما يقرب من أربعين سؤالا ومع ذلك فقد ظل مكرم باشا ناكلا عن أداء واجبه البرلمانى فى ميدانه الاصلى ، وأخيرا ، وبعد أساليب عدة استجمع مكرم باشا كل قوته وشجاعته فتقدم باستجوابه بعد مطاولة ومماطلة ، وتلكؤ ظاهر وتردد عجيب ، شأن كل من يشعر بحرج مركزه وفساد قضيته وضعف حجته .

ثانيا — ان مكرم باشا قد التجأ « مع الأسف الشديد » فى استجوابه وفى عريضته وفى كتابه الاسود الى الزراية بالحكومة الشعبية الوطنية وتجريحها بصفة عامة ورفعة رئيسها زعيم البلاد بصفة خاصة — تجريحا باغيا ظالما ، مستخدما فى سبيل ذلك سلاحين كلاهما شر من الآخر ، وهما سلاح الاختلاق ، وسلاح المسخ والتشويه .

ثالثا — ان الحكومة قد وضعت الامور فى نصابها فكشفت عن

وجوه الزيف والفساد فى شتى الدعاوى، وبسطت الوقائع الصحيحة مؤيدة بالمستندات الحاسمة ، التى تثبت اثباتا قاطعا سلامة تصرفاتها واستقامة نهجها فى معالجة الشئون العامة والخاصة .

رابعا — ان مكرم عبيد باشا الذى أصبح يتهجم على زعيمه وعلى الوزارة الحاضرة فى جرأة معدومة النظير، لم يترك زعيمه ولم يستقل من الوزارة بمحض اختياره ، بل انه ظل حريصا الحرص كله على البقاء فيها والدفاع عنها الى آخر وقت حتى أخرج منها اخراجا وأقصى عنها اقصاء ، وآية ذلك انه وقف فى المجلس فى ١٩ مايو ١٩٤٢ أى قبل فصله من الوزارة بأيام وصرح فى جرأة وثبات وعقيدة وحماسة ظاهرة : « ان مسلك كل وزير فى هذه الوزارة انما يرتكز على النزاهة المطلقة » . فهل كان فى ذلك صادقا أو كاذبا وهو فى هذه الساحة الرسمية المقدسة ؟ أن المجلس ليسجل أسفه اذ يرى رجلا قد تنكر لماضيه ، وتناقض حتى مع نفسه ، فسولت له أهواؤه أن ينقلب من النقيض الى النقيض ، ولا شك أن هذا مسلك أقل مايقال فيه انه يتنافى مع الصدق والنزاهة والامانة، وصحة الحكم على الناس والاشياء .

ان الكتاب الاسود لم يكن صالحا للعرض على البرلمان طبقا لاحكام الدستور واللائحة والتقاليد البرلمانيه ، فاضطر صاحبه الى تعديله وتهذيبه حتى يصلح للظهور بشكل استجواب يطرح على المجلس ، وهو بالتالى لم يكن يصلح لان يرفع الى مقام صاحب الجلالة الملك تحت اسم عريضة ، لانه فضلا عن كونه مليئا بالالفاظ النابية الجارحة التى لا يليق أن ترفع الى مقام الملك ، فانه قد انطوى على أمور مكذوبة أو مشوهة وما كان يليق أن يرفع الى جلالة الملك الا الصادق من البيانات والصحيح من المعلومات والسليم من كل تحريف وتزييف .

ولهذا كله يقرر المجلس القرارات الآتية :

أولا — يستنكر المجلس استنكارا شديدا المسلك الشائن الذى سلكه مكرم عبيد باشا سواء أكان ذلك فى طريقة تسويده كتابه وتلفيق ما فيه ، أم فى طريقة نشره بدل تقديم استجواب مهذب الى البرلمان الذى هو الجهة المختصة ما دام الامر بين نائب والوزارة. وما دام النظام البرلمانى قائما فى البلاد ومادامت المسئولية الوزارية الصحيحة قائمة على أساس من الدستور : **ويعتبر المجلس أن مكرم عبيد باشا أسوأ مثل للنائب منذ قامت فى البلاد الحياة النيابية** سنة ١٩٢٤ : ذلك لان الواجب الاول على كل نائب ألا يتحرك فى الشئون العامة الا والصدق المطلق رائده ، وخدمة المصلحة العامة وحدها قائدها ، فلا يستسلم للاحقاد تغله ، ولا لشهوة الانتقام تسيره، فيعتدى طائشا على الابرياء، ويلوث عابثا الامناء ، شفاء للغل والحزازات الشخصية على حساب سمعة البلاد ، ومصلحتها العليا .

ثانيا — يستهجن المجلس التهمتين الطائشتين اللتين جعلهما مكرم باشا محور دعايته ، وغاية القصد من استجوابه ، وهما تهمة استغلال النفوذ ، وتهمة عدم نزاهة الحكم ، وما فرعه عليهما من جميع التهم الاخرى الواردة فى الاستجواب أو العريضة أو الكتاب الاسود .

ويقرر المجلس عدم صحة هذه التهم جميعها .

ثالثا — يعلن المجلس من جديد ثقته التامة بحضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء وحضرات أصحاب المعالى الوزراء ، هيئة وأفرادا .

كما يعلن المجلس أسفه الشديد لما نالهم على يد مكرم عبيد باشا من بغى ظالم وتجن أثيم وهم خدام الشعب المخلصون .

وهكذا ظن مجلس النواب انه بهذا القرار قد « مسح » كل التهم

التى وجهت الىحكومة الوفد ، .. بل انه حرص على أن يمسح عن «أعضائه » التهم الموجهة اليهم فختم قراره بأن ألبسوا أنفسهم وسام الشرف اذا قالوا انهم هم خدام الشعب المخلصون والوطنيون الامناء الصادقون .

ومضت الايام ...

والنحاس يفكر فى الخطوة التالية ، الخطوة التى تريحه من رؤية مكرم فى الميدان السياسى ...

واجتمع مجلس النواب فى ١٢ يونيو من نفس العام وقرر فصل مكرم من عضوية المجلس ...

فقد تكلم رئيس المجلس فى بداية الجلسة فقال :

بعد أن صدر قرار ٢٣ مايو الماضى الذى فصل فى استجواب مكرم باشا وما تضمنه كتابه الاسود كان لزاما على مكتب المجلس أن ينظر فى أمره على ضوء هذا القرار فعقد ثلاث جلسات وتباحث فى القرار من جميع النواحى طبقا لروح الدستور وما تقتضيه صيانة الحياة النيابية من العبث ، والمحافظه على كرامة العضوية ، تلك الكرامة التى تأبى الاساءة الى سمعة البلاد ومصالحها العليا بسوء قصد وبغير وجه حق ، وانتهى الامر بالمكتب الى اتخاذ قرار باقتراح يقضى بفصل حضرة النائب المحترم مكرم عبيد باشا نائب قنا من عضوية المجلس وهاهو ذا القرار سيعرضه النائب المحترم عمر عمر وكيل المجلس على حضراتكم .

حضرة النائب المحترم عمر عمر ــ أتلو على حضراتكم نص الاقتراح الذى وضعه مكتب المجلس لتصدروا ما ترونه بشأنه وهو :

« بما أن المجلس قد سجل فى قراره الذى أصدره بتاريخ ٢٣ مايو سنة ١٩٤٣ على حضرة النائب المحترم مكرم عبيد باشا انه

سلك مسلكا يتنافى مع الصدق والنزاهة والامانة وصحة الحكم على الناس والاشياء، والتجأ الى سلاح الاختلاق ومسخ الوقائع وتشويهها

وبما أن المجلس قد قرر استنكاره الشديد لهذا المسلك الشائن واعتبر أن مكرم عبيد باشا أسوأ مثل للنائب منذ قامت فى البلاد الحياة النيابية فى سنة ١٩٢٤ اذ استسلم للاحقاد وشهوة الانتقام واعتدى على سمعة الابرياء على حساب سمعه البلاد ومصلحتها العليا

وبما انه كان منتظرا بعد هذا القرار أن يفكر مكرم عبيد باشا فى المعانى التى تستخلص وأهمها أن وجوده بالمجلس أصبح وضعا غير طبيعى لكنه لزم الصمت فوجب أن يتخذ المجلس قرارا فى هذا الشأن وأن يعرض مكتب المجلس عليه وجهة نظره فى الامر ٠

وبما أن مكرم عبيد باشا لم يصبح بعد قرار ٢٣ مايو سنة ١٩٤٣ جديرا بشرف النيابة عن الأمة ويتعين فصله من عضوية المجلس بالتطبيق للمادة ١١٢ من الدستور ٠

لذلــــك

يقترح المكتب على هيئة المجلس فصل نائب قنا مكرم عبيد باشا من عضويته ٠

الرئيس — أسفر أخذ الرأى عن الموافقة على فصل سعادة مكرم عبيد باشا من عضوية المجلس بأغلبية ٢٠٨ أصوات ضد ١٧ صوتا

وبما أن العدد الواجب توافره هو ثلاثة أرباع المجلس أى ١٩٨ صوتا ، وقد زادت عن هذا العدد ، فيقرر المجلس فصـــل حضرة نائب قنا مكرم عبيد باشا ويعلن خلو الدائرة ٠

***

أما الخطوة التالية والاخيرة ، فقد كانت اعتقال مكرم عبيــد فى

السرو ـ بالقرب من مدينة المنصورة ـ حيث انضمت اليه السيدة قرينته ...

ومن المعتقـــل ... أنتقل مكرم الى الوزارة ، عندما نجحت السراى بعد محاولات جبارة فى اقالة مصطفى النحاس فى ٨ اكتوبر عام ١٩٤٤ . وأقول محاولات جبارة لان السفارة البريطانية كانت تقف فى وجه أى محاولة لابعاد مصطفى النحاس عن الحكم .. وليس المجال مجال سرد هذه المحاولات ...

ومن الواضح أن معركة الكتاب الاسود كانت أشد معارك نزاهة الحكم عنفا ، اذ امتلأت المعتقلات بالذين اشتركوا فى وضع أو توزيع هذا الكتاب . بل كان مجرد ذكر اسم الكتاب فى أى حديث بين اثنين كافيا لان يدفعهما الى المعتقل . كان الارهاب الوفدى بالغ العنف بحيث بدأ الشعب يحس بمدى الجريمة التى يرتكبها هـذا الحزب السياسى الكبير ... ومن الطبيعى أن يحس الشعب بهذه المرارة وهو يشهد مصرع مثله الحزبية العليا ، ويراها وهى تنهـــار أمامه مثلا بعد الآخر !!

الفصل الخامس

أشجع سـياسى

وفى المعتقل ، وقد قضيت ثمانية عشر شـهرا بين أسـواره ، التقيت بالبكباشي أنور السادات ، وكان قد جردمن رتبته العسكرية وكان قد سبقني الى الاعتقال ، وجاء اعتقاله بناء على طلب الانجليز ، ولا جدال في أن تجريده من رتبته العسكرية واعتقاله ، وهو ضابط من ضباط الجيش ، كان دليلا على أن هناك أحداثا توشك أن تولد داخل صفوف الجيش نفسه .

كانت كراهية ضباط الجيش ولاشك متجهة فى البداية الىالانجليز وكان الملك عقب حادث ٤ فبراير يحرص على أن يقضى هذا اليوم فى ناديهم يجتمع بهم ، ويسـهر معهم ، ثم يؤدى فريضة الجمعـة مع جيشه في مسجد من مساجد ألماظة .. وكان الضباط يحيطون بالملك ويدينون له بالولاء فقد كان رمز البلاد ، وكان الألم يحز فى نفوس الضباط لأن الفرصة لم تتح لهم فى يوم ٤ فبراير ليثوروا ويؤدوا واجبهم فى الدفاع عن هذا الرمز ..

وكنت أجلس الى أنور السادات فى ساعات النهار نتحدث فى كل شيء ، ولمست فيه الجلد على الكفاح والقدرة على كبت عواطفه ، وكنت أعلم أن اعتقاله وطـرده من الجيش سبب له متاعب عائليـة وآلاما تعصف بالجبال ، ولكنها لم تعصف به هو ولم تحركه .. بل جعلته يلتزم الصمت ، ويفضل الاستماع الى ما يقال له ، ثم يتناقش بالقدر الذى يسمح به لنفسه .

كان ذلك فى ابريل سنة ١٩٤٣

والتقيت به بعد ذلك مرات ، خلال فترة هربه من المعتقل ، وفى اليوم الذى اغتيل فيه أمين عثمان ، فقد حضر الى مكتبى فى جريدة الكتلة عقب حادث الاغتيال ، وجلس يتحدث الى ، ثم استمع الى سكرتير التحرير وهو يقص على نبأ الاغتيال ، فلم يعلق عليه ، واكتفى بالاستماع .. وطلبت الى محكمة الجنايات بعد ذلك بأشهر فشهدت بأنه كان معى فى دار الكتلة وقت الحادث ، وهذا هو الواقع فعلا ، ثم برىء أنور السادات ، وقامت الثورة فوجدت أنور السادات واحدا من التسعة الأوائل ، وعرفت فيما بعد قصة كفاحه وقصة جهاده ، وقصة اشتراكه فى كل عمل يتطلب التضحية والكفاح ضد المستعمر ، وقد تطور هذا الكفاح فاتسع مداه ومجاله حتى شمل فاروق ، ثم كان أنور واحدا ممن قرروا عزل الملك وطرده ، ثم عضوا فى محكمة الثورة يحاكم الساسة الذين أفسدوا أو اشتركوا فى افساد الحكم ..

فيلم سينمائى طويل ، حوادثه تتتابع أمام عينى الآن ، وأرى صورة من ميلاد حركة الجيش ..

لم يكن أنور الضابط الوحيد الذى كره الانجليز ، وان كان القدر أراد أن ينكشف أمره فيطرد ، ويجرد من رتبته ، ويعتقل ، ويشرد

ولم يكن أنور الضابط الوحيد الذى تطورت كراهيته للانجليز حتى شملت كراهية الملك ، بعد أن تطورت علاقة الملك السابق بالجيش كما تطورت علاقته بالشعب ، فأصبح كارها ومكروها من كل منهما ، ثم ضرب الجيش ضربته فوجد لها الصدى الكبير فى نفس الشعب ، وأيده تأييدا اجماعيا لم يجد الملك حياله الا أن يحنى رأسه ، **يقبل العزل ويغادر مصر** الى حيث لا رجعة ..

***

كان الملك قد استطاع فى ٨ أكتوبر من عام ١٩٤٤ أن يتخلص من

حكم النحاس ، وأن يدعو أحزاب المعارضة الى تولى الحكم وأجريت الانتخابات فهرب الوفد من المعركة ·

وفكر مكرم أول ما فكر فى تشكيل لجنة لتحقيق ما جاء فى الكتاب الأسود من فضائح حكم النحاس ، ثم شكلت اللجنـــة وانتهت من تحقيقها ·· وبعثت بتقريرها الى مجلس النواب ، لأنه صاحب الحق فى محاكمة الوزراء ·

وجاء ايدن الى مصر فى نهاية الحرب ،فطلب من أحمد ماهر رئيس الوزارة ألا يحاكم النحاس ، لأنه الصديق « المدخر » للامبراطورية البريطانية ، ولست أعلم على وجه التحقيق ماذا كان رد أحمد ماهر على هذا الطلب ، ولكن الذى أعلمه أن مجلس النواب كان قد شـــكل لجنة خاصة لمراجعة تقرير اللجنة ، وأن هذه اللجنة كانت فى بداية تكوينها متحمسة لاظهار الحقيقة حتى لقد بعثوا الى بالأستاذ عـــلى أيوب رئيس اللجنة يطلب الى الاستقالة من عضويتها لأنى أكتب فى الصحف وتناولت الاتهامات الموجهة الى النحاس ، ووجودى فى اللجنة يفقدها صفتها كلجنة تحقيق ويجعلها لجنة اتهـــام ، وقبلت الطلب وانسحبت من اللجنة ·

وقد جاء فى خطاب استقالتىمن اللجنة : « أولانى المجلس الكريم ثقته واختارنى عضوا فى اللجنة التى تألفت لتحقيق التهم الموجهة الى الوزارة النحاسية الأخيرة · ولما كنا جميعا نحرص على أن يجرى هذا التحقيق وفقا لأسمى مبادىء العدل ، وأن نوفر لمن يتنـــاولهم التحقيق من أعضاء الوزارة المذكورة جميع أسباب الثقة والطمأنينة فقد رأيت من الأفضل أن أتنحى عن عضوية هذه اللجنة خشية أن يسبق الى وهم رفعة النحاس باشـــا انى مضغن عليـــه لما أسلف من العدوان على حريتى فى آخر وزارة له ،وان ذلك قد يكون له أثر فى تصرفى معه فى التحقيق ·· »

لقد كنت اعتقد أن أمر لجنة التحقيق كان جـديا ، وانه لم يكن تمثيلية ، ولكن الواقع ان اللجنة ما كادت تبدأ اجتماعاتها ، وأخذت تنظر ما أمامها من اتهامات ٠٠ حتى أخذت تطيل البحث ٠٠ وأخذ عدد الجلسات يتناقص ٠٠ ولم تلبث أن توقفت عن الاجتماع ووضع التقرير على الرف ٠٠

هل كان ذلك نتيجة لتدخل أنتونى ايدن وزير خارجية بريطانيـا ، وطلبه من أحمد ماهر عدم محاكمة النحاس ؟

لا أريد أن أظلم الرجل فأقول أن هذا هو الواقع ، فقد قتل أحمد ماهر قبل أن يقدم تقرير لجنة التحقيق الى البرلمان ٠

بل انى لأميل الى القول بأن أحمد ماهر رفض فى حديثه مـع أيدن الموافقة على وقف محاكمة النحاس ، فقد تولى الحكم فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ وكان عليه ان يدير دفة المعـركة الانتخـابيه ، وكان فى صراع دائم مع السراى بسبب اصرارها على أن يكون هناك توازن بين الأحزاب المختلفة ، وعطفها الكبير على حزب الكتلة لأنه الحزب الذى تحمل عبء الكفاح فى عهد النحاس وأصدر الكتاب الأسود ، وأعتقل عدد كبير من رجاله وشبابه ، وقد هدد أحمد ماهر بالاستقالة أكثر من مرة نتيجة لهذا التدخل ٠

وانتهت الانتخابات ، واجتمع البرلمان ، ثم طلب الحلفاء من مصر أن تعلن الحرب على المحور حتى يتسنى لها أن تشترك فى مؤتمـر سان فرانسسكو وتصبح عضوا مؤسسا فى هيئة الأمم المتحدة ٠

ولقد كان من رأى أحمد ماهر منذ بداية الحرب العالمية أن تشترك مصر فيها ، وكان شجاعا ، فواجه مجلس النواب وحده وأخذ يتكلم ويدافع عن رأيه تسع ساعات ، ولكنه لم ينجح فى اقناع النـواب بفكرته ، لقد كانت شجاعة أحمد ماهر مضرب الأمثال ، وكان يحب أن يواجه الأمور بصراحة ٠٠ وقد بلغـه ذات يوم وهو فى مكتبه

برئاسة مجلس الوزراء أن طلبة الجامعة مضربون **وأن الاضراب موجه الى الحكومة** ، فترك مكتبه وركب سيارته بلا حرس ، ولا ضجة ، ولم يقل لأحد انه متجه الى الجامعة ٠

ودخلت سيارة رئيس الوزراء الى فناء الجامعة ، واستمع الى الطلبة وهم يهتفون بسقوطه ، وخرج من باب سيارته ووقف على سلم الجامعة وواجه الطلبة الثائرين عليه ٠

وساد الصمت ، وأخذ الطلبة يفركون أعينهم وهم لا يصدقون ، كأنهم فى حلم ، ولكنه لم يكن حلما بل كان حقيقة واقعة ، ان الواقف أمامهم كان أحمد ماهر الذى يهتفون بسقوطه ٠

تكلم أحمد ماهر ، وتكلم بأسلوبه الواقعى ، أسلوب الاقناع ٠٠ انه لم يكن خطيبا بقدر ما كان قوى الحجة بارع الجدل ، واستمع الطلبة اليه ، وأكبروا شجاعته ، فهتفوا له ٠

وهبط رئيس الوزراء درجات السلم ، ثم اتجه الى سيارته ٠٠ فانصرف الطلبة الى قاعات المحاضرات ٠٠

وحادث آخر وقع قبيل فصله من الوفد فى عام ١٩٣٧ ، وقبيل اقالة وزارة الوفد ٠

كان رأيه معارضا لرأى النحاس ، وذهب الى اجتماع الهيئة الوفدية وجلس فى مكانه الى جوار النحاس ، وأخذ يبين لأعضاء الهيئة خطأ النحاس فى تمسكه بوجهة نظره ، وأعلن رأيه صريحا ، وهو أن يتخلى النحاس عن الحكم ويتركه لسواه من أعضاء الوفد ، وبذلك يمضى الوفد فى الحكم وينفذ سياسته ٠

وسأله عضو : « هل يعنى هذا أن تتولى أنت الحكم ؟ »

ورد أحمد ماهر : « ولم لا ٠٠ اذا كان ذلك هو الحل السليم » ٠
وظل أحمد ماهر يتكلم فى الجلسة ويهاجم النحاس وسياسته ، ثم

غادر قاعة الاجتماع ليواجه بعض الشباب الثائر وقد حاولوا الاعتداء عليه فهجم عليهم بعصاه فهربوا وأبوا أن يواجهوا الرجل الشجاع .

كان أحمد ماهر الرجل الشجاع ، الواسع الأفق ، لا ينظر الى الحكم على أنه منفعة شخصية ، وقد ألقى هذا الدرس البليغ على أعضاء الوفد والهيئة الوفدية ولكن لم ينتفع به أحد ، حتى وقعت الكوارث ..

وهنا نتساءل مرة أخرى : « لو أن أعضاء الهيئة الوفدية عالجوا المسائل علاجا صريحا حازما منذ البداية ، وقبل أن تظهر السيدة زينب الوكيل وتحاول استغلال نفوذها .. لو أن أعضاء الوفد وقفوا هذا الموقف وبقى النحاس رمزا نظيفا فى الوفد .. آكان يمكن أن تتطور الأمور هذا التطور الخطير الذى انتهت اليه .. ؟ »

لست أشك فى أن أحمد ماهر كان يستطيع أن ينقذ الوفد ، وأن يواجه الملك مواجهة قوية يحس معها أنه يواجه رجالا ، فقد حدث فى بداية حكمه عام ١٩٤٤ أن هدد بالاستقالة ان تدخلت السراى فى الانتخابات ، وأمسك بالتليفون وألقى أوامره على المديرين والمحافظين وحذرهم من أن يستمعوا الى أية تعليمات تصدر من السراى ، ثم أدار المعركة الانتخابية بنفسه ، وفرض رأيه .

مثل هذا الرجل كان نادرا بين الرجال ، وكان على استعداد لأن يستمع وأن يناقش وأن يقتنع .

وقد دعا رؤساء تحرير الصحف صباح يوم ، قبل عرض أمر اعلان الحرب على البرلمان ، وشرح لهم الموقف ، وما يمكن أن تجنيه مصر دوليا اذا هى أعلنت الحرب ، ولما انصرف رؤساء التحرير ، جلست اليه أحدثه فيما يمكن أن يكون عليه الموقف العام لو أنه تعاون مع مكرم واستخدم عقله الكبير ، فى ازالة أسباب الخلافات التى كانت قائمة اذ ذاك فى الوزارة .

وقد رد الدكتور ماهر بقوله : انى أعتبر مكرم مكملا لى ، ولست أتردد فى ارضائه بشرط ألا يتعارض ذلك مع المصلحة العامة ٠

وقلت له : « سمعت انك ستدعو زعيم المعارضة الوفدى فى مجلس الشيوخ ، الأستاذ محمد صبرى أبو علم ، لكى تعرض عليه أمر دخول مصر الحرب ؟ »

فقال : « نعم ٠٠ هذا صحيح ٠٠ »

قلت : « هل كاشفت مكرم بذلك ؟ أنه يعد الوفديين خصومه ، وقد يرى فى هذا الاجراء من جانبك ، دون مشاورته ،ما يغيظه ٠٠ »

فسأل : « وماذا أفعل ؟ »

قلت : « اتصل به الآن ، قبل أن يسمع النبأ ، واسأله رأيه فيما لو دعوت الأستاذ صبرى أبو علم لأخذ رأيه فى الموضوع ٠٠ »

وأمسك أحمد ماهر بسماعة التليفون وطلب مكرم ، وكان اذ ذاك باستراحة وزارة الأشغال بالقناطر الخيرية يراجع تقرير لجنة التحقيق ثم سأله رأيه ، وتناقشا فى الموضوع مناقشة ودية ، انتهت بتأييد مكرم للفكرة ٠٠

وابتسم ماهر ابتسامة عريضة ٠٠ وقبل أن أنصرف قلت له : « لقد سمعت من مكرم منذ أيام أنه يعتبرك مكملا له ٠٠ وهذا هو الذى دعانى الى عرض هذا الاقتراح ، وفى اعتقادى أن تعاونكما سيحقق خيرا كثيرا ٠٠ » .

ورد ماهر قائلا : « أنا لا أشك فى ذلك اطلاقا » ٠

وبعد أيام قتل أحمد ماهر فى مجلس النواب وهو فى طريقه الى قاعة مجلس الشيوخ ، قتل لأن بعض الناس ظنوا أنه يقود بلاده الى الهلاك باعلان الحرب ، فى حين أنه كان يقودها الى مكانها اللائق بها فى المعترك الدولى ، مكانها الذى نحرص عليه اليوم ، ونعتبر ارتفاع

صوتنا فيه فى مجلس الأمن والامم المتحدة السبيل لمهاجمة الاحتلال والاستعمار ٠

وانى لأذكر البيان الذى أذاعه الوفد ، ونشره فى الصحف ، رغم فرض الرقابة ، وأذكر ما جاء فيه من أن دخول مصر الحرب يعرض أساطيلها التجارية للدمار ٠٠

وأما أين كانت هذه الاساطيل ، وما هى الخسارة التى كانت تنجم من دخول مصر الحرب بعد أن أوشكت أن تنتهى ، فعلم ذلك عند الوفد ، الذى حشا بيانه بالأكاذيب والمغالطات متابعة لسياسته فى استغفال الشعب ٠٠ !

وقتل الرجل ، قتل أشجع سياسى عرفته مصر فى تاريخها الحديث ، ولا جدال فى أن مصرعه كان من أكبر الأحداث السياسية التى مرت بمصر ٠٠

وقد تحدث الى أحد المصريين الفدائيين الأحرار ، فقال انه تعقب بسيارته الدكتور أحمد ماهر فترة طويلة ليقتله ، ولكنه بعد أن عرف تاريخ الرجل حمد الله على أنه لم ينفذ فكرته ، والا عاش طول حياته معذب الضمير ٠

والواقع أن الخلافات الحزبية ، واستغلال النفوذ ، وجهل الشعب بالحقائق ، وعدم تعمقه فى فهم الأمور ، واندفاعه وراء الزعامات المقدسة ، كل هذا أفسد تفكير الشعب حتى المتعلمين منه ، وانى لأعترف بأنى كنت خلال دراستى الثانوية ، وقبلها ، مندفعا فى تأييد الوفد من غير تفكير ٠ لقد اتهم بعض الساسة المصريين ، من غير الوفد ، بأنهم برادع الانجليز ، واتهموا بأنهم يريدون « بيع مصر » لقوات الاحتلال ، وصدق الشعب هذه الاشاعات وراح يكيل تهم الخيانات من غير حساب ٠٠

وفى فترة من فترات الاعتقال ، قرأت تاريخ مصر مستخلصا من الوثائق الرسمية للمفاوضات التى جرت بين ممثلى مصر ، على اختلاف اتجاهاتهم السياسية ، وبين الحكومة البريطانية ، فوجدت أن الذين كانوا فى نظر الشعب لا يمثلونه ولا يعبرون عن رأيه ، هم أشد المصريين تصلبا وتعصبا للفكرة الوطنية والرأى السليم •

وقد أعدت قراءة هذه المحاضر مرة أخرى ، بل مرات ، ثم قارنت بينها وبين ما جنته البلاد من المعاهدة الملعونة ـ معاهدة ١٩٣٦ ـ فوجدت أن ما كان يمكن أن تجنيه مصر فى عام ١٩٢١ خير مما جنته فى هذه المعاهدة ، ولم يكن الشعب يقرأ ، أو يحاول أن يستمع الى من يقرأ له ، ولم تكن ثمة صحافة بريئة من الغرض والهوى ، تحاول أن تقدم للشعب الجاهل تفسيرا لهذا الذى قيل فى المباحثات ، وكانت الأغلبية الشعبية لا تود أن تنال مصر استقلالها على يد أخرى غير يدها •• وهل هناك أبلغ فى الجهالة والضلال والأنانية من القول بأن الاحتلال على يد « سعد » خير من الاستقلال على يد « عدلى » بل يذكرنى هذا القول بما كانت تردده الجماهير خلال انتخابات عام ١٩٥٠ « حرامى ••• حرامى ، ولكن بنحبه » ، ردا على الذين كانوا يتهمون مصطفى النحاس بتهم استغلال النفوذ •

وهنا أتساءل لو ان مصلحة الوطن ، لا مصلحة الأشخاص ، كانت فوق كل اعتبار ، ولو ان مصر وقفت كلها كتلة واحدة ، وراء أى مصرى يسعى سعيا طيبا لخير بلاده ، أكان يمكن أن يدوم الاحتلال هذا الوقت الطويل ؟ وهل كان يمكن أن يجد الانجليز سلاحا يعينهم على البقاء فى مصر هذه الفترة الطويلة ؟

ان الانجليز لعبوا لعبة الدستور ، والحياة النيابية ، وتشكيلات الأحزاب المختلفة ، ثم تركونا نلهو بها ، وواصلوا تدعيم أسس الاحتلال باثارة المشاكل والخلافات وتشتيت الصفوف ، ثم راحوا

يزعمون ، اعتمادا على كل هذا ، أنه لا سبيل الى ترك هذه المنطقة الحيوية من غير دفاع ، ولا يمكن ترك هذا الفراغ العسكرى من غير أن تكون هناك قوة تشغله .

ان السياسة الداخلية ، أو السياسة الحزبية ، هى المسئولة عن كل ما حدث فى مصر من نكبات ، وكما كان الشعب يردد فى فخر « الاحتلال على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى » ، كذلك كان هذا الشعب نفسه يردد فى انتخابات عام ١٩٥٠ « حرامى .. حرامى ولكننا نحبه .. » نعم حدث هذا .. كان الشعب يعترف بأن مصطفى النحاس أساء الى سمعة الحكم ، واستغله استغلالا مثيرا ، ولكنه مع هذا كان لا يريد سواه رئيسا للحكومة ، مهيمنا على أداة الحكم ، مهما كانت الاتهامات .. !

وهكذا كان تاريخنا الحديث مليئا بالغرائب ، وكنا نصنع الأحداث القوية بأيدينا .. الأحداث التى مكنت للاحتلال ، ومكنت للنساء ، ومكنت للرشوة ، حتى انتهى الأمر الى أن أصبحت سمعة الحكم المصرى ملوثة .. فلما قامت ثورة الجيش فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وجدت أمامها تركة مثقلة بالديون فى الداخل والخارج .

قتل أحمد ماهر ، وشكل الوزارة فى نفس الليلة ، ومن نفس هذه الأحزاب ، وبالنسبة التى كانت قائمة ، الأستاذ محمود فهمى النقراشى نائب رئيس الهيئة السعدية .

وكان النقراشى من طراز آخر من الرجال ، كان نزيها ، وكان وطنيا ، وكان أمينا فى عمله ، ولكنه لم يكن واسع الأفق كما كان سلفه أحمد ماهر ، وكان اذا آمن بفكرة رفض أن يقبل المناقشة فيها ، واذا قبل وناقش مضت المناقشة فى ضيق وتبرم .

كان من الرجال القلائل الذين يعيشون تحت رقابة ضمائرهم ، وكثيرا ما كان يقضى الليل وهو ساهر يفكر لا فى مشكلاته الخاصة ،

بل فى مشكلات الوطن ، وقد واجه الملك فى كثير من المسائل ..
ونصحه أكثر من مرة وفى حزم ، دون أن يعبأ بأنه غير مؤيد من
الشعب ، وان حكومته تعتمد على تأييد الملك .

والذى لا شك فيه أن فاروق كان يخشى النقراشى ويحترمه ، ولولا
أن حاشيته تغيرت وتبدلت بعد وفاة أحمد حسنين ، ولولا أن هذه
الحاشية استغلت نفوذها وسيطرت على الملك حتى صار يواجه
النقراشى ويرفض الاستماع الى نصائحه ، لولا ذلك كله لكان وضع
الملك فاروق غير ما صار اليه ..

ولعله كانت لأحمد حسنين حياة خاصة أثرت على حياته العامة
تأثيرا سيئا ، ولكن حسنين كان يريد أن يجعل من فاروق ملكا نافعا
ولقد كانت سيطرته على فاروق فى الغالب سيطرة قوية ، فقد عرفه
وهو صغير ، ثم وهو شاب على الدرجات الأولى من سلم العرش ،
فعرف كيف يعامله وكيف يوجهه ليكون محبوبا من الشعب .. ولا
جدال فى أنه أخطأ حين جمع حول الملك بعض الصحفيين المتمصرين ،
ولكنه لم يكن يتوقع أن يسيطر عليه هؤلاء الصحفيون ، وان كان قد
أحس بذلك فيما بعد ، فقد حدثنى ذات ليلة بأن الذئاب المحيطة
بالملك تريد أن تحقق لنفسها منافع خاصة ، وأنها تريد الدخول الى
مراكز خاصة فى السراى . ثم أشار اشارة عابرة ، على سبيل
المثال ، الى أن واحدا من هؤلاء الذئاب قد اقترح أن يكون مستشارا
صحفيا للملك ، ومات أحمد حسنين ، وما انقضت على وفاته فترة
وجيزة حتى أعلن الملك أنه اختار الأستاذ كريم ثابت مستشارا
صحفيا له .

وقد تعرض أحمد حسنين قبيل وفاته لخصومة عنيفة من الملك ،
فكان يتعمد اهماله وعدم استشارته ، وكان يندفع فى هذه الخصومة
الى حد الاستهزاء به أمام خدمه ، وقد حدث أن مرض حسنين ودخل

مستشفى المؤاساة ، ثم زار الملك ذات يوم المستشفى ولم يتجه الى حجرة رئيس ديوانه ليسأل عنه ، بل اتجه الى حجرة أخرى ضمت أحد خدمه ثم سأل عنه ، ونفحه ببعض المال ، وخرج دون أن يسأل عن أحمد حسنين رئيس الديوان ، وطبيعى أن زيارة الملك لخادمه كانت متعمدة ومرسومة نكاية برئيس الديوان ٠

ولكن الملك مع هذا كان يعود الى صوابه فى معظم الأحيان ، ثم صار فيما بعد يأخذ بمشورة حسنين ونصائحه ، وتلك الفترة من حياة الملك كانت فترة الذبذبة ، أو بدء فترة الانتقال من ملك يريد أن يخدم شعبه الى ملك يطيح بكل شىء فى سبيل مصالحه الشخصية وكان فى تلك اللحظة تحت تأثير الذين يحاولون أن يثبتوا أقدامهم فى السراى ، ليصير الأمر أمرهم ٠٠

والذى يجعلنى أحاول انصاف أحمد حسنين ، وقد اجتمع له النفوذ والسلطان ، هو ما كان عليه من فقر ، فقد كان فى امكانه أن يستغل هذا النفوذ الى أقصى حد ، ليكون له ولأولاده من بعده ثروة تمكنه من أن يحيا الحياة الخاصة التى يريدها ، ويطلق العنان للملك ليرضى أطماعه ونزواته ، ولكنه لم يفعل ، ولم يسمح للملك بأن يبدو فى صورة علنية فاضحة ، تتكرر كل صباح وكل مساء ، كما ظهر فيما بعد ٠

ان هدف سياسة حسنين كان مركزا فى الملك ، فقد كان يعتقد ، بل ويؤمن بأنه لو ظل متمتعا بعطف الشعب وحبه ، لحقق من هذا كله كسبا كبيرا لشخصه ولشعبه ، وقد تكون الوسائل التى لجأ اليها ملتوية ، أو لا تتفق وطباع الساسة الحادة ولكنه كان على ثقة من انها ستحقق هدفه ٠

ولقد قيل ان علاقة حسنين بالملكة الوالدة السابقة نازلى ، وزواجهما العرفى ، قد خلقا فى صدر الملك عقدة نفسية أضيفت الى عقدة ٤ فبراير ، فتألفت منها جميعا عقدة ضخمة هى التى جعلته

يندفع فى كل آثامه وشروره حتى صار الى ماصار اليه ، ويؤيد ذلك ماقاله أمام محكمة الثورة ، أكثر من واحد من الذين أحاطوا بالملك ، ولكننى لا أميل الى الأخذ بهذا الرأى على علاته ، لأن الذين أحاطوا بالملك فيما بعد هم الذين زينوا له كل هذه الشرور ، وهم الذين رسموا له خطة الانتقاض على كل مبدأ من مبادىء النزاهة والشرف ، لتتفتح لهم من وراء ذلك أبواب الاستغلال يصلون فيها الى ما تصبو اليـــه نفوسهم •

كذلك يجب ألا ننسى دور الانجليز فى هــذه المأساة ، لقد كانت زعامة الشعب بين الوفد والسراى ، وكان مصطفى النحاس معروفا بنزاهته وخصومته للانجليز ، وقد قضوا هم على هــذه الخصومة بحمله الى الحكم فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ على الدبابات البريطانية ، وقضوا على نزاهته بتمكين أمين عثمان وزينب الوكيل من اقصاء مكرم عن الوفد وفتح أبواب الاستغلال ليثرى الأقارب والأصهار والنفعيون من ذوى النفوذ ومن اليهم ، على حساب الشعب •

وكانت حاشـــية الملك ، بعـــد وفاة أحمد حسنين ، تتألف من متمصرين يعملون كأداة لتنفيذ رغبات الانجليز ، فدفعوا بالملك الى ارتكاب ما ارتكب من خطايا ، واستغلوا العقــد النفسية التى خلفها حادث ٤ فبراير وغيره من الأحداث فجعلوا منه مقامرا وزير نساء ، حتى صارت تروى عنه شتى الروايات فى كل مكان ، وآمن الشعب بأن الملك الصالح أصبح غير صالح ، بل أصبح أسوأ مثل للفساد •

واستغل الاستعمار انهيار الملك الى أبعد حـــدود الاســـتغلال ، استغله فى السودان ، فكان يطبع المنشورات ويوزعها ثم يقـــولون للســـودانيين : « هــــذا هو الملك ، الذى يريد المصريون فرضــه عليكم •• »

ولم يكن الاستعمار الانجليزى وحده هو الذى استغل هذه الناحية

.. فقد انتهز الاستعمار الفرنسى هو الآخر هذه الفرصة النادرة ، فكان يطبع ما تنشره صحف فرنسا عن فضائح فاروق ويوزعها على شعوب شمال افريقيا ليرى الناس هناك كيف كانت تحكم مصر .

وما زلت أذكر زيارتى لشمال افريقيا مع وفد الصحفيين المصريين فى شتاء عام ١٩٥٠ ، فقد كانت شعوب هذه المناطق تهتف لفاروق هتافا حماسيا رائعا .. ثم كان زعماء هذه الشعوب من الوطنيين يستفسرون منا سرا عن صحة هذا الذى يشاع وينشر عن فاروق فى الصحف وغيرها .

لقد كانت هذه الشعوب تتطلع الى مصر بوصفها زعيمة وقائدة لكافة الشعوب المجاهدة ، وكانت تعلم عن الملك أنه خصم الاحتلال ، أيا كان لونه ، ولهذا كان يضايقهم ويؤلمهم ما كان يذيعه الاستعمار الفرنسى عنه نقلا عن الصحف واذاعات العالم .

هذا كله يجعلنى أؤمن ايمانا لا يتطرق اليه الشك أن الذين أحاطوا بالملك فى السنوات الأخيرة من حكمه ، كانت لهم سياسة استعمارية مرسومة ، يعملون على تنفيذها ، وعلى هدم سمعة الملك كوطنى ، فهذه الحاشية لم تكن مصرية خالصة المصرية ، ولم تكن تحس بأحاسيس الوطنيين الذين يكافحون ويناضلون ويجاهدون ، هذا الى أن تاريخهم يدل دلالة واضحة على أنهم من أدوات الاستعمار وأذنابه ، فى كل عهد ..

وقد لعب الاستعمار دوره بمهارة ، واستطاع أن يقضى فى فترة قصيرة من الزمن على زعامة الملك الشعبية ، كما استطاع أن يقضى على زعامة النحاس يوم جاء به فوق دباباته الى الحكم فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ، ويوم دعاه الى الوقوف تحت العلم البريطانى فى ميدان الخديوى اسماعيل ، لاستعراض قوات الاحتلال ، فقبل ووقف تحت علم الانجليز مزهوا فخورا .

اعود الى وزارة النقراشى فأقول ..

ألف النقراشى وزارته الأولى فى ظروف قاسية ، وفى خلال هذه الفترة كانت جهوده كلها تتجه نحو اقرار الأمن .. ولم تدم فترة حكمه طويلا ، فقد جاء اسماعيل صدقى ليتولى مفاوضة الانجليز ، وبخاصة بعد أن نجحت السراى فى اقصاء اللورد كيلرن عن منصبه فى مصر ..

ولا جدال فى أن خروج النقراشى من الحكم كان فى صورة اقالة ، فقد ذهب من يمثل السراى الى رئيس الوزراء وقال له : « استقل » ، فاستقال ، ورفض أن يشترك حزبه فى الوزارة الصدقية ، وذهب الى مجلس النواب وامتنع عن التصويت على بيان الوزارة الذى تقدمت به الى البرلمان ، مما دعا اسماعيل صدقى الى أن يغادر مكانه ويذهب الى النقراشى فيصافحه .

وبدأ صدقى يفاوض الانجليز ، مستعينا بهيئة من المستقلين وأحزاب المعارضة ، وقبيل بدء المفاوضات أذاع الطرف البريطانى بيانا أشار فيه الى أن قوات الاحتلال ، الجوية والبرية والبحرية ستجلو عن مصر فى خلال ثلاث سنوات ، وقال صدقى باشا خلال مباحثاته مع بيفن أنه يوافق على أن يكون أول سبتمبر سنة ١٩٤٩ هو اليوم الأخير للجلاء .

ولم تكن مسألة الجلاء ، كما كانت خلال المباحثات الأخيرة ، هى العقبة ، بل كانت مسألة تم الاتفاق عليها ، وعندما سافر صدقى الى لندن فى النصف الثانى من أكتوبر سنة ١٩٤٦ لم يكن سفره الا من أجل مسألة السودان ، بعد أن طالت المناقشة فيها حول سيادة مصر على السودان ، وهى العقدة التى حلها رجال الثورة بصورة تتفق مع الواقع لا الخيال .

ولقد وصل صدقى الى اتفاق بشأن السودان ، ولما عاد الى مصر

ظهر أن الخلاف كان لا يزال قائما ، وكانت وجهة نظر الانجليز فيما يتعلق بمستقبل السودان أن بروتوكول اتفاق صدقى ـ بيفن ينص على أن يكون للسودانيين ، عندما يفوزون بالحكم الذاتى ، الحرية فى اختيار وضع حكومة السودان فى المستقبل ، وقد يتخذ هذا الوضع أشكالا عدة ، فقد يختار السودانيون اتحادا مع تاج مصر على غرار اتحاد حكومات الدومنيون المستقلة مع التاج البريطانى ، وقد يختارون أشكالا أخرى من الاتحاد المستقل مع التاج المصرى ، أو قد يختارون الاستقلال ..

ولكن الحكومة المصرية رأت أن تفسير بريطانيا للبروتوكول يناقض النصوص التى انعقد الاتفاق عليها بين المفاوضين المصريين والبريطانيين ، كما يناقض الروح التى أملت الاتفاق ، ولهذا انتهت المفاوضات الى غير نتيجة ، على الرغم من أن مجلس النواب المصرى كان قد أقر هذه الاتفاقية ، فقد كان المتفق عليه فى ديباجة النصوص التى وقع عليها بالأحرف الأولى فى لندن ان هذه الاتفاقية ستعرض على الحكومة المصرية ، فاذا نالت موافقتها قدم مستر بيفن الى الحكومة البريطانية توصياته بقبولها ، وقد تحقق هذا الشرط من قبل الجانب المصرى اذ وافق مجلس الوزراء على هذه النصوص .. وليس هذا فحسب ، بل أقر مجلس النواب السياسة التى اتبعتها الحكومة ..

ولا أريد أن أعرض هنا لما وصل اليه الطرفان ـ فليس هذا مكانه ـ ولكن الذى لا شك فيه أن اسماعيل صدقى كان يستطيع أن يحقق اتفاقا مع بريطانيا ، ولكنه كان يعد ، منذ بدء حياته السياسية ، خصما سياسيا للشعب ، وكان كذلك من الذين قتلتهم السياسة الحزبية فى مصر ، ففقدت مصر بذلك كفاءة ، وقدرة ، ونبوغا ، قل أن تجتمع جميعا فى شخص ، وكان الرجل فى هذه المفاوضات يريد

أن يختتم حياته السياسية خاتمة طيبة ، وأن يحقق لمصر كسبا يمحو به هذه الخصومة التى استبدت بالشعب نحوه ٠٠

ولا يمكن القول بأن الاتفاقية كانت كلها كسبا لمصر ، الا أنهـا كانت خطوة كبيرة نحو هذا الكسب ، وفى رأيى أن كل كسب كان يجب قبوله ، ولو أن اتفاقية صـدقى ـ بيفن قبلت ، لكان مجال تعديلها واسعا ، فى السنوات التالية ٠٠

وقد واجه العهد الجديد المسألتين الرئيسيتين فى الخلاف ، وهما : الجلاء والسودان ٠٠ فحلت الثانية حلا رضى به الجميع ، وظلت المسألة الأولى التى كان متفقا عليها فى عام ١٩٤٦ العقبة الوحيدة ٠ الى أن تم الاتفاق على الجلاء فى ١٩ أكتوبر عام ١٩٥٤ ٠

ولكنها السياسة الحزبية التى سرنا عليهـا منذ بداية الحـركة الوطنية ، لقد كان كل زعيم أو سـياسى ، من الزعماء والسـاسة القدامى ، يغيظه أن يتحقق أى خير ، ولو كان ضئيلا ، على يد غير يده وفى حكومة غير حكومته ٠

ولم يكن هناك أى مأخذ على هؤلاء السـاسة ، الا أنهم يريدون ادراك النصر كله دفعة واحدة ، فى حين كان التاريخ واضحا أمامهم يتبينون منه أن تحقيق النصر الكامل أمر يكاد يكون مستحيلا مـع قيام التنافس الحزبى والمساومات الحزبية ٠

ولست أنكر أنه لو كان طمعنا فى تحقيق هذا النصر دفعة واحدة لكان الاصرار عليه واجبا محببا لا يختلف فيه اثنان ولكن الأمر كان على العكس من ذلك ٠ ومن ثم كان رفض اتفاقية صدقى ـ بيفن ٠

لقد هوجم العهد الحاضر سرا وعلنا من أجل اتفاقية السـودان ، لأنها فى نظر المهاجمين ، أضاعت الوحدة ، ولكن ما كادت هـذه

الاتفاقية تحقق أولا ، وأكـرر أولا ، خطـــوات النصر ، حتى اختلف الحكم عليها الآن ، وأصبحت تهمة « اضاعة السودان » أثرا بعد عين وهكذا لم تكن سياسة مصر تقوم على الواقع ، بل كانت تقوم عـلى الحزبية ، والحزبية وحدها ، ولهذا تأخرنا ، وأضعنا كل كسب كان يمكن لمصر أن تحققه .

الفصل السادس

طعنة من الخلف

وترك اسماعيل صدقى الحكم ، بعد أن قيل له : « استقل » ، فاستقال ، وعاد النقراشى الى الحكم فى ديسمبر سنة ١٩٤٦ ٠

ولم يشأ أن يطيل مباحثاته مع السفير البريطانى ، اذ ما كاد يشعر بألا أمل فى الوصول الى اتفاق ، حتى بادر بعرض الأمر على مجلس الوزراء ، فأصدر فى ٢٥ يناير سنة ١٩٤٧ قرارا تاريخيا هذا نصه : ـ لقد ذهبت الحكومة المصرية فى سبيل الاتفاق مع الحكومة البريطانية الى أبعد حد ممكن ، ورغم ذلك لم تجد فى الاقتراحات والعروض التى جاء بها الجانب البريطانى ما يرضى حقوقنا الوطنية ، لذلك يقرر مجلس الوزراء عرض قضية البلاد على مجلس الأمن ٠

وفى ٨ يوليو سنة ١٩٤٧ رفعت مصر قضيتها الى مجلس الأمن وطلبت :

١ ــ جلاء القوات البريطانية عن مصر والسودان جلاء تاما ناجزا ٠

٢ ــ انهاء النظام الادارى الحالى فى السودان ٠

وسافرت الى نيويورك ، وشهدت جلسات مجلس الأمن كلها ، واستمعت الى النقراشى ، وهو يصرخ فى وجه الانجليز : « أيها القراصنة اخرجوا من بلادنا » ٠٠

وهمس فى أذنى أحد الصحفيين الانجليز قائلا : « هل هذا هو رأى المصريين جميعا ؟ »

قلت : « ماذا تعنى ؟ »

فأجاب : « هل يعبر النقراشي عن رأى الشعب المصرى كله ؟ »

قلت : « هذا أمر مؤكد .. »

فابتسم الصحفي ابتسامة صفراء ، ثم قال لعلك لم تقرأ برقية النحاس الى سكرتير الهيئة التى قال فيها ان النقراشي لا يعبر عن رأى الشعب ..

وسكت لأنى لم أكن قد قرأت هذه البرقية فعلا ، وبادرت بالحصول عليها ، فاذا هى برقية تطفح بأسوأ عبارات الخيانة والاجرام .

كيف يجوز لمصرى أن يفعل ذلك ؟ بل كيف يجرؤ مصرى على أن يطعن مصريا فى ميدان دولى يحاول أن يدافع فيه عن قضية بلاده ، وما هو تعريف « تمثيل الشعب تمثيلا صحيحا .. » ، هذا التعريف الذى ظل ضائعا ومستغلا فى كل الظروف وفى كل الأزمات التى مرت بها مصر .

هل وقف النقراشي فى مجلس الأمن ليقول : « أيها القراصنة اياكم والخروج من بلادنا ؟ » ..

هل وقف النقراشي يقول : « ان مصر لا تقبل أن يرفع عنا الحكم الانجليزى فى السودان ؟ »

هل وقف النقراشي فى مجلس الأمن يستجدى الانجليز البقاء فى مصر والسودان معا ؟

لعله كان لايمثل الشعب فعلا ، لأنه لم يقل ذلك ، أما الذى كان يمثل الشعب فعلا فهو مصطفى النحاس الذى جاء الى الحكم فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ على أسنة الحراب البريطانية ، ووقف فى ميدان الخديوى اسماعيل ليستعرض قوات الاحتلال البريطانية .

وتحدثت الى النقراشى فى تلك الليلة عن هذه البرقية ، فضحك ضحكة ممزوجة بالالم ، ولكنه لم يشـأ أن يعلق عليهـا أو أن يتحدث عنها ، فقد كان الرجل واثقا من أنه يؤدى مهمته على النحـو الذى يرضى شعوره الوطنى ، واحساسه بالواجب الخطير الملقى على عاتقه. لم يكن الرجل ، وهذا حق ، يعمل لنفسه بقدر ما كان يعمل لوطنه، والادلة على ذلك كثيرة ، ولعل أولها وأقواها هذا الشعور الذى كان يكنه أفراد حزبه له ، ممن كانوا يريدون أن ينالوا صفقات أو يفوزوا بتعيين عمد ، ولكنه مع هذا لم يمكنهم من استغلال نفوذهم كأعضاء فى حزب الحكم ، ولم يكن يسمح بأن يعين انسان عمدة ، وهذه من أمهات المسائل فى الريف المصرى الا اذا كان صاحب حق فى هـذه الوظيفة الكبرى .

كان يريد أن يكون حكمه ، وعمله ، وجهوده كلها سليمة خالصة لوجه الله والوطن ، كان يتطلع الى ما تسجله له صفحات التـاريخ بعد مماته ، وكان زاهدا فى أن يحصل لنفسه على أى نفع غير مشروع فى حياته ، كان فقيرا ، عاش فقيرا ومات فقيرا ، ومن حقه على التاريخ أن يغدق عليه ثراء الوطنية بعد مماته .

ولقد ظل النقراشى فترة طويلة فى نيويورك ، يكافح فى سـبيل عرض قضية بلاده على مجلس الأمن عرضا سليما ، ومع هـذا لم يفكر خلال هذه الفترة الطويلة فى أن يغادر مكتبه بفندق « البلازا » ليقضى سهرة هنا أو هناك أو يشهد ملهى من ملاهى أمريكا .. مع أن هذه الزيارة لم تسبقها زيارة أخرى لهذه القارة الجـديدة .. ولم يصحب معه السيدة حرمه كما فعل غيره ، وعلى حساب الدولة ، لكى تشاهد ما لم تشاهد وتستمتع بنزهة فى أمريكا ، ومع هذا اتهم بأنه لا يمثل الشعب ، وكان الاتهـام ببرقية موجهة من مصرى الى سكرتير هيئة الأمم المتحدة ، من مصرى كان يذهب الى الخارج فى مفاوضات

للجلاء ، وفى مباحثات الغاء الامتيازات الأجنبية ، ومعه جيش من الخدم والسكرتيرين لخدمته وخدمة السيدة حرمه .. السيدة زينب الوكيل .. ومن مصرى لم يكن يعمل فى هذه الرحلات شيئا ، بل كان يدع العمل كله لمن معه من أعضاء الوفود التى كان يرأسها .. ومن مصرى لم يكن يترك مكان لهو الا ذهب اليه ، ارضاء للسيدة حرمه .. ومن مصرى كان يعود من هذه الرحلات وقد امتلأت حقائبه بكل ما خف حمله وثقل ثمنه من المشتريات والهدايا والذكريات .

ألست تفهم من هذه البرقية أنها « غيرة » حزبية تولدت فى نفس مصطفى النحاس ؟ .. وأليست هذه الغيرة والأنانية امتدادا لسياسة « الاحتلال على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى » ؟

ترى لو أن مصطفى النحاس كان زعيما وطنيا حقا ، كما كان يفهم الشعب .. ماذا كان يمكن أن يفعل ليزيد من تأكيد هذه الوطنية ؟ .. لا شك أن واجبه كان يقتضيه أن يجعل من برقية الاتهام برقية تأييد .. وأن يدعو الى عقد اجتماعات للشعب ..

ثم يخطب فيها مؤيدا هذا الرجل المصرى الذى ثبت وجها لوجه أمام الانجليز فى أكبر هيئة دولية ، ولو فعل ذلك كله ، ونقلته وكالات الأنباء جميعا ، ونشرته صحف العالم لأحدث هذا الموقف أثره فى أعضاء مجلس الأمن الذين كانوا يستمعون الى رجل يعرض قضية بلاده بعد احتلال دام أكثر من سبعين عاما .

انها فرص كانت تضيع واحدة بعد الأخرى بسبب زعماء البلاد الذين أبوا أن يتنازل الواحد منهم عن حقه فى الزعامة والسيادة ، يتنازل عنهما من أجل مصر ، ولندع الزعماء لحظة ونتحول الى الشعب فنتساءل ماذا كان موقف الشعب المصرى من هذا الصراع الحقير ؟

لقد عرف الشعب بنبأ برقية النحاس الى سكرتير هيئـــة الأمم المتحدة ٠٠ بل قرأ هذه البرقية ، ولكنه لم يفعل شيئا ليرغم مصطفى النحاس على أن يغير من موقفه ، بل اكتفى بأن يجلس الى أجهـــزة الراديو يســتمع الى النقراشي وهو يردد المـــرة بعد الأخـــرى : « أخرجوا من بلادنا أيهــا القراصنة » ، فيصفق ويهتف وينسى أن هذا الرجل الذى كان يرفع من صـــوت مصر بعيـــدا ، وأمام أكبر الهيئات الدولية ، كان مطعونا فى ظهره بخنجر مصرى ومن يد زعيم مصر « الأكبر » ٠٠ !

كان الشعب يتمنى أن يتحقق استقلاله ، ولكن دون أن يبـــذل جهدا فى حماية ظهر الذين يطالبون بحقه فى الاستقلال ٠٠ كان فى غفلة من أمره ، وكانت الحزبية الصـــارخة قد عصفت بكل أفكاره واتجاهاته ، فأنسته ما يجب عليه عمله لمصر،وهكذا كانت مسئوليات الشعب الجسام تتراكم بعضها فوق بعض ٠

وانتهى النقراشي من عرض قضية بلاده على مجلس الأمن ، ولم يستطع أن يصل الى غرضه ، اذ قرر رئيس المجلس الاحتفاظ بالنزاع فى جدول أعمال المجلس ٠

وقد سأل مندوب بريطانيــا : « هل ذلك رأيه الخـــاص أو رأى المجلس ؟ » ٠

فأجاب الرئيس بأن النزاع يعد باقيا فى جدول أعمال المجلس الا اذا قرر المجلس غير ذلك ، وما دام المجلس لم يتخذ هذا القرار فان النزاع المصرى الانجليزى يستمر مدرجا فى جدول أعمال المجلس ٠

وسألنى النقراشي قبل أن نغادر نيويورك : « ما رأيك ؟ »

قلت : « انك أديت واجبك كما يجب أن يؤدى ، وعليك أن تعود الى مصر وتقدم استقالتك ، وتظل مدخرا للأحداث الكبرى ، فاننى

أخشى أن ينسى الناس ما فعلت فى زحمة انشغالك بالحكم » .

وضحك النقراشي ولم يجب .

وعدت الى مصر ، وتحدثت فى أمر هذه الاستقالة مع الأستاذ حامد جودة ، رئيس مجلس النواب فى ذلك الوقت ، فرد ردا صريحا : « هذا كلام فارغ » .

واستقبل النقراشي عند عودته استقبالا شعبيا رائعا ، ولو أن الرجل كان ممثلا سياسيا كغيره من الساسة ، لاستغل هذا الاستقبال واستمر فى اقامة ليالى الأفراح ، ولكنه لم يفعل ، وبدأ ينفذ السياسة التى رسمها لنفسه « لا استقالة ، وانما اهمال لوجود القوات البريطانية فى القنال ، حتى تنهض مصر نهضة داخلية تمكنها من الوقوف على قدميها ، وانتهاج سياسة غير سياسة الالتجاء الى الهيئات الدولية لتحقيق الجلاء الكامل .. » .

ولكن الفترة التى تلت ذلك شهدت أكبر الأحداث السياسية وأضخمها تتتابع وتتصل حتى قامت الثورة سنة ١٩٥٢ .

كانت الفترة التى تلت عودة النقراشي من مجلس الأمن الى أن اغتيل فى وزارة الداخلية وهو فى طريقه الى مكتبه ، أخطر الفترات التى مرت بها مصر فى تاريخها الحديث ، وكانت بداية التحول الذى انتهى الى عزل الملك وطرده فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ .

لقد كان النقراشي يهدف الى العناية بالسياسة الداخلية ، وتقوية الجبهة الداخلية ، ولكن ظروفه لم تسمح له بذلك ، فقد كانت الدسائس والمؤامرات تحاك من وراء ظهره ، واشتركت فى هذه المؤامرات كل العوامل التى كانت تكره صلابته وشدته ونزاهته ، فتألبت عليه قوى الشر جميعا : الوفد .. والسراى .. والانجليز ..

أما الوفد فكان يريد العودة الى الحكم ، لأنه كان يرى الوقت يمضي ويطول به الانتظار منذ اقالته فى عام ١٩٤٤ ، يضاف الى ذلك أن النحاس تعرض لمحاولة لاغتيال حياته ونسف منزله فى ساعة من ساعات الفجر وكاد يقضى عليه ، وخشى النحاس على حياته الى حد أنه لم يكن يغادر داره على الأطلاق ، بل كان يكتفى بالتنزه فوق سطح سرايه فى جاردن سيتى .

وكانت السراى .. تدبر المؤامرات لابعاد خصومها والانفراد بالحكم بحيث تفتح للملك وبطانة السوء التى أحاطت به كل أبواب استغلال النفوذ وجمع الثروة .

وأما الانجليز فكانوا لا يريدون أن يمضى النقراشى فى سياسته « تجاهل وجودهم فى القنال » ، لما يمكن أن تؤدى اليه هذه السياسة من متاعب لا يقوون على مواجهتها سياسيا ، كما كانت كلمات النقراشى فى مجلس الأمن ما تزال ترن فى آذانهم ، وتثير فى قلوبهم المرارة والبغضاء .

ثم ظهر الى جانب هؤلاء جميعا عامل جديد ، وهو الاخوان المسلمون .

كان المرشد العام الشيخ حسن البنا يرى أن الفرصة سانحة لجنى ثمار حركته ، تلك الحركة التى ظاهرها الدين وباطنها السياسة ، وكانت الحركة قد بدأت تتوغل فى القرى والمدن ، فأعطاها اسماعيل صدقى ، خلال حكمه السابق لحكم النقراشى ، الأهمية التى تستحقها فكان يلجأ اليهم لتهدئة المظاهرات ، واشاعة الأمن والاستقرار ، حتى ينتهى من مباحثاته مع الانجليز ، وقد دعى حسن البنا وفريق من الاخوان المسلمين الى رئاسة مجلس الوزراء ، حيث اجتمع بهم اسماعيل صدقى وناقشهم الرأى ، وناقشوه ، ثم بدأوا يحاولون فرض آرائهم ، وكانت الصحافة الأجنبية قد بدأت تتجه بأنظارها

الى الاخوان المسلمين ، بوصفهم قوة يجب أن يحسب حسابها ، فعقدت المؤتمرات الصحفية بدار الاخوان ،وتحدث المرشد العام فى السياسة والدين معا ، ونشرت صحف العالم كلها هذه التصريحات، واعتبرت الاخوان مصدر خطر كبير على الأجانب لما تحمله دعوتهم فى نظرهم من مبادىء دينية تهدد كيانهم .

هذه العوامل كلها واجهت النقراشي في محنته ، فلم تمكنه من المضى ببرنامجه الذي فكر فيه وهو عائد من أمريكا الى مصر بعد أن عرض قضية الجلاء والسودان على مجلس الأمن ، وكانت هذه العوامل على قوتها وضخامتها غير كافية ، فأضيفت اليها مشكلة المشاكل ، وحدث الأحداث جميعا ألا وهى حرب فلسطين ، تلك الحرب التى أراد الملك السابق أن تشترك فيها مصر ، فبعث بجيشه الى ميدان المعركة ، ليزوده بأسلحة فاسدة وذخيرة ميتة ، كى يحقق لنفسه ولمن حوله ثراء فاحشا حراما .

وقد واجه النقراشي بعض هذه العوامل بشجاعة منقطعة النظير ، وعجز عن مواجهة الحقائق المرة فى بعضها الآخر ، فسقط قتيلا فى ميدان كان فيه وحيدا لا سلاح له الا حبه لوطنه .

ولا جدال فى أن نظرة الشعب الى النقراشى لم تكن نظرة حب ورضا ، لأن الرجل كان صامتا ، عجيبا فى صمته ، لا يأبه أن يقال عنه أنه فعل شيئا جديرا بالذكر أو التنويه ، فقد كان يؤمن بأن أعماله ستتحدث عنه ، ولكنه نسى أن خصومه فى الرأى لا يرحمون ، وانهم يستغلون صمته لاثارة الغبار ، لا حول نزاهته ، بل حول سياسته الوطنية وأساليبه فى الحكم ، كان خصومه يتقنون لغة الحديث الى الشعب ، أما هو فلم يكن يتكلم ولم يكن يتحدث أو يسمح لأنصاره أن يتحدثوا عنه .. أسلوب عجيب فى الحكم مهد لخصومه

أن يطعنوه فى ظهره وأن يجعلوا حكمه مكروها من الشعب ٠٠ لماذا ؟ لست أدرى ٠٠

ولقد كان يحس أن سياسته هى سياسة صمت ، وأن خصومه يستغلون هذه الناحية استغلالا حقيرا ، ومع هذا استمر فى سياسته وعندما قرر مجلس الوزراء عرض قضية مصر على مجلس الأمن عقد مؤتمرا صحفيا ، لعله المؤتمر الصحفى المحلى الوحيد الذى عقده فى خلال حياته السياسية ٠

وعندما دخل الى قاعة الاجتماع وجلس على مقعده ، التفت الى الصحفيين وقال لهم مبتسما : لقد آن للرجل الصامت أن يتكلم ٠٠ ثم تكلم فعلا ، ولكن فى ايجاز وكانت واحدة ظلت يتيمة حتى اغتيل ٠٠

ان هذا الصمت الذى لازم النقراشى طوال حياته السياسية كان عاملا من العوامل الهامة التى جعلت تصرفات الرجل وقراراته على ما لها من خطر تفقد صداها فى النفوس ، على عكس ما كانت تقابل به غيرها من التصرفات والقرارات البهلوانية التى كانت تلجأ اليها أو تصدرها الوزارات الاخرى ٠٠ لم تكن لتصرفات النقراشى مقدمات ، ولم تكن وراءها تعليقات ولهذا كان الشعب يقرأ عنها ثم ينسى ٠٠ ولا يذكر الا أن هذا الرجل غير شعبى ٠٠

وانى لأعلم أن كثيرين حاولوا اقناعه بأن يتكلم ، أو يمد الذين يكتبون له بما يكشف عن سياسته واتجاهاته السليمة ، ولكنه كان يقف وراء عناده ، ويصر على أن يظل الرجل الصامت ، بل لقد كان لحزبه جريدة ، وكان فى استطاعته أن يمدها بالأخبار الدقيقة التى تجعل منها جريدة ذات شأن ، ولكنه كان يأبى أن يميز « الأساس » عن أية صحيفة أخرى ، فلم يؤثرها بنبأ أو حادث ، حتى لا يمس ذلك ما أخذ نفسه به من الأمانة والعدالة ٠

ولقد دخلت مصر حـــرب فلسطين لطـرد اليهود منها ، ووقف النقراشى يتكلم فى مجلس النواب ويؤيد فكرة دخول الحرب ·· ثم ظهر فيما بعد أن الرجل كان يرفض الاشتراك فى هذه الحرب ، وان اعلانها تم دون علمه ·· دون علم رئيس الوزراء ·

وكانت حرب فلسطين تمهيداً لمعارك قوية بشأن نزاهة الحكم نعب فيها الملك وحاشيته دورا خطيرا كما استسلم الوفد استســلاما نهائيا بعد أن تعهد بحماية الذين استغلوا هذه الحرب للثراء !

الفصل السابع

الأسلحة الفاســـدة

ولقد خرجت الصحف صباح يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ تعلن نبأ دخول القـــوات المصرية أرض فلسطين لتطهيرها من الصهيونيين ، وذهب اليه فى منزله أحد أعضاء حـــزبه يلومه ويعاتبه لأن الوزراء علموا بالنبأ من الصحف •

وصمت النقراشى قليلا ، ثم واجه زميله بقوله : « وأنا أيضا علمته من الصحف » •• ورد الوزير قائلا : « اذن عليك أن تستقيل » •

فأجاب النقراشى : « لقد فكرت فى هذا ثم عزمت عليه ، ولكننى رأيت الاستقالة فى هذا اليوم بالذات طعنة للجيش بعد أن تحـرك فعلا ، وأنا لا يمكن أن أطعن الجيش فى ظهره » •

وكان هذا الموقف تضحية من تضحيات النقراشى ، ولا شك أن التاريخ سينصف الرجل عندما يكتب عن مواقفه كتابة تفصـيلية ، وتحلل شخصيته تحليلا قائما على أساس من الدراســـة المدعمـــة بالوثائق والمستندات ، ولا جدال فى أن الآراء ستختلف وسيتساءل كثيرون : لم قبل النقراشى أن يكون الضحية فى مسألة غير مسئول عنها ؟ ولماذا يترك التضحية لسواه ؟ وهذه أسئلة لا يمكن أن يجيب عليها الا من عرف النقراشى معرفة أكيدة ، ودرس أخلاقه دراســـة مستوفاة ، ولعل النقراشى كان يأمل ألا تمكث الحرب طويلا ، أو أن يكون اشتراك الدول العربية فيها جميعا سبيلا الى القضــــاء عـلى العصابات الصهيونية بسرعة •

ولكن اذا كان هذا هو رأيه ، فلماذا وقف فى جلسة مجلس النواب السرية يقول ان الجيش على أتم استعداد لهذه الحرب ، وان كل الاعتمادات قد دبرت وان كافة الاحتياطات قد اتخذت ؟ لماذا دافع عن الفكرة وتحمس لها ، كأنه هو صاحبها الاصلى وواضع خطتها منذ البداية ؟

وفى هذا أيضا أجاب الذين عرفوه جيدا بأن الرجل كان يأبى أن يتهرب من تحمل المسئوليات ، وأن الامل كان ما يزال يراوده فى أن تنتهى الحرب بسرعة ٠

ولكن النقراشي لم يكن دقيقا ، عندما واجه مجلس النواب فى جلسة سرية ، فانه ما أن قرر مجلس الامن التدخل فى الامر ، وأمر بوقف القتال ، حتى ذهب الى مجلس النواب وقال انه قبل الهدنة مرغما لانه لا يستطيع أن يواجه العقوبات التى يمكن أن تفرضها الامم المتحدة على من يخالف القرارات التى تصدرها ، وكان يرمى بذلك الى أن انقطاع البترول عن مصر يهددها بحالة من الفوضى يصعب علاجها بأى حل من الحلول ٠

ولو أن حكومته كانت قد أعدت عدتها لكل الاحتمالات لما اعترف بأنه عاجز عن مواجهة العقوبات التى يمكن أن تفرضها الامم المتحدة على مصر ، وهذا يعنى أن النقراشى لم يكن دقيقا فيما صرح به للنواب ، وأنه كان يحاول تغطية الموقف قبل أن يتحمل تبعة أخطاء غيره والمسئوليات المترتبة على هذه الاخطاء ٠

وقد كانت هذه الاخطاء والمسئوليات أكبر من أن يتحملها كاهل رجل واحد ٠

فى تلك الفترة كان الملك يلعب دوره فى الاسلحة الفاسدة ، ويغترف من الثراء بلا حساب ، وكانت الاشاعات حول الاسلحة

الفاسدة قد بدأت تتسرب من الميدان على ألسنة الضباط الذين كانوا يعودون بالاجازات .

وقد كتبت مقالا فى جريدة الزمان طالبت فيه بالبحث عن هؤلاء ، وكنت متحفظا فيما كتبت لانه لم يكن تحت يدى دليل أو شبه دليل .

وفى صباح اليوم التالى ... بل فى ساعة مبكرة من هذا الصباح، وكنت قد اعتدت الذهاب الى مكتبى فى السابعة صباحا ، اتصل بى الدكتور يوسف رشاد ، أحد حاشية الملك ، وبادرنى بقوله : « ان الملك قرأ مقالك وأعجب به كل الاعجاب وهو يحب أن يعرف أسماء الذين أشرت اليهم فى مقالك » .

وأسقط فى يدى ، فلم يكن عندى أسماء أو شبه أسماء .

وقلت له : « سأحاول أن أقدم له هذه الأسماء فى خلال أيام .. » .

ووضعت سماعة التليفون ، وتساءلت هل صحيح أن الملك يهتم بهذا الامر لصالح الجيش .. ولم أكن حتى هذه اللحظة قد سمعت بأن للملك يدا فى هذه الاسلحة الفاسدة ، ولهذا لم يتبادر الى ذهنى اطلاقا أنه يريد حماية اللصوص .. أو بمعنى آخر حماية نفسه .

وعجزت عن الحصول على الاسماء ، ولهذا رأيت أن أصرف النظر عن اجابة طلب الملك بينى وبين نفسى قائلا : « لابد أن ينسى » .

ولكن حدث أن كنت أتناول طعام العشاء فى الاوبرج ، وتصادف أن جاء الملك مع بعض رجال حاشيته وكان معهم الدكتور يوسف رشاد .. فلم يكد يرانى حتى أقبل على وسألنى عن الاسماء .

وتهربت من الاجابة ، معتذرا بأن الاسماء ليست لدى ، وتأكد الملك ، عندما أجبته بهذه الاجابة ، أن ما عندى لا يعدو أن يكون اشاعات وأنه لا خطر مما كتبت .

هذه الحادثة العرضية تذكرتها عندما بدأت الاشاعات تتحول الى حقائق ، وتكشف عن دور الملك وحاشيته فى الاسلحة الفاسدة ، وكانت فى ذاتها دليلا على أن الملك عندما قرر دخول حرب فلسطين كان يهدف الى فتح باب عريض من أبواب الثراء ، وأن فلسطين العربية كانت آخر ما يفكر فيه ·

هذه الاسلحة الفاسدة ، وهذا التهافت على الثراء ، كانا قد بدأ يقويان فى الجيش خلايا « الضباط الاحرار » ، فقد أزعجهم أن يصل الفساد بالبلاد الى هذا الحد ، فبدأ بعضهم يهمس فى آذان البعض ، ثم أخذوا يعقدون الاجتماعات السرية ، ويوزعون المنشورات القوية ، حتى اذا ما يئسوا من قيام الساسة المدنيين بواجبهم ضربوا ضربتهم القوية ، وبدلوا العهود القديمة بعهد جديد ·

وهنا تبرز الحكمة القائلة « رب ضارة نافعة » ، فلو لم تقع حرب فلسطين ، ما وقف طغيان الملك عند حد ، اذ أن الطغيان والفساد بدأ يأخذان صورة واضحة فاضحة مذ قامت هذه الحرب، ولعله ظن أنه بعد أن قضى على الساسة يستطيع القضاء على الجيش بهذه الهزيمة التى منى بها فى فلسطين ، ومن ثم يستطيع أن يحكم ويفجر ويمعن فى استهتاره وعبثه بكل قيم الاخلاق ·

بيد أن هذا الذى ظنه فى البداية نجاحا ، قد تبين له فيما بعد أنه فشل ، فقد وجد نفسه يواجه قوى خفية كثيرة ، وكانت منشورات الضباط الاحرار ترفع له فيقرأها ، ويجد بين سطورها الحكم عليه فى المستقبل ، ولهذا كان كثيرا ما يردد أمام خاصته أنه واثق من أنه لن يموت وهو على العرش ؛ وعندما تركزت الفكرة فى ذهنه بدأ يسافر الى أوربا ، ولم يكن الغرض من رحلاته المشهورة اليها العبث بقدر ما كان التهريب ، تهريب ثروته الى الخارج ، غير أنه لم يكن يتوقع أن تتطور الامور الى نهايته بالسرعة التى قامت بها ، ولا شك

أنه فوجىء بحركة الجيش فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، اذ لم يكن يتوقع أن يكون الجيش هو منبع الثورة وانما كان يعتقد أن الشيوعية ستزحف وأنه سيذهب •

هل كان النقراشى على علم بصفقات الاسلحة الفاسدة ، وهل اتخذ من جانبه اجراء بشأنها ؟

أستطيع أن أؤكد أن شيئا من هذا لم يكن قد وصل الى علمه ، ولم تكن الاشاعات قد بدأت تتسرب الى داخل البلاد قادمة من ميدان الحرب ، ذلك لانى أثق كل الثقة بأنه لو علم بها لما تردد لحظة واحدة فى الضرب على أيدى أصحاب هذه الصفقات بمنتهى القسوة والشدة والعنف ، وما قبل أن يظل فى الحكم دقيقة واحدة اذا حيل بينه وبين الضربات يوجهها الى الذين طعنوا جيش البلاد فى ظهره •

ولم يكن النقراشى متفرغا لحرب فلسطين وحدها ، بل شغلته فى الوقت نفسه حرب داخلية بلغت أشدها ، ذلك أن الاخوان المسلمين بدأوا يمارسون نشاطهم ، وكان الكثيرون منهم قد اشتركوا فى حرب فلسطين متطوعين ، ثم عادوا الى مصر وهم مسلحون مدربون على استعمال السلاح •

ووقعت حوادث نسف كثيرة ، وأصبحت حياة الكثيرين مهددة بخطر جسيم ، بل اختل الامن الداخلى اختلالا لا قبل للبلاد به ، وأصبح الاجنبى يقتل فى الطرقات لمجرد الاشتباه فى أنه صهيونى أو أنه يعطى اشارات ضوئية للطائرات المغيرة •

وتجمعت لدى ادارة الامن العام تقارير خطيرة ، تكشف عن خطر الحركات التى كان يقوم بها الاخوان المسلمون وأثرها فى سمعة حكومة مصر وقدرتها على حفظ الامن الداخلى •

وكانت الحراسة الشديدة قد فرضت على الملك ، فاذا خرج للسهرة فى الاوبرج وقف الحرس الملكى يحرس الطرقات المؤدية الى هذا

النادى الليلى ، ثم يظل الجنود قائمين بالحراسة حتى تنتهى سهرته فى الصباح ، وكان الملك يحمل فى جيبه مسدسا ويقول انه سيدافع به عن نفسه .

وأترك الحديث هنا لقرينة الدكتور يوسف رشاد ، عن شعور الملك فى ذلك الوقت وهو يرى تيار الكراهية يهب عليه من كل مكان ، من الداخل حيث الاخوان المسلمون ، ومن الخارج قريبا من حدود مصر ، حيث كان الضباط الاحرار يعملون ، تقول السيدة ناهد رشاد « كنت اعلم أن الجيش فيه حركة ضد الملك ، وقد علمت ذلك من المنشورات التى كنت أتلقاها وكان الملك كذلك يتلقاها أولا بأول ويطلع عليها ، ولمست هذا السخط أول ما لمسته فى اجتماعاتى بالضباط فى حرب فلسطين عندما تطوعت مجندة فى هذه الحرب ، وكان فاروق يثق بى ، فلما عدت من فلسطين أخبرته بما رأيته وأبلغته طلبات الضباط ، وأجاب الملك كثيرا من هذه الطلبات ، وكان بعض الضباط أصدقاء لزوجى ، فكنت أتصل بهم وأسمع انتقاداتهم ، وكان هؤلاء الضباط يطمئنون لنا لاننا كنا لا نشى بأسمائهم بل نبلغ الملك شكاواهم دون ذكر أسمائهم ، وكان زوجى ينقل بخط يده مطالب الضباط الاحرار حتى لا تقع خطوطهم فى يد الملك .

وقد حدث أن ابلغ اللواء حسين سرى عامر (مدير الحدود السابق) الملك أسماء ضباط قيادة الثورة .. واهتم الملك بذلك وطلب من الفريق محمد حيدر أن يعتقلهم .. ولكن الفريق محمد حيدر رفض أن يعتقلهم ، وطمأنه أن ما بلغه غير صحيح وكان الذين حول الملك يفهمونه أن الجيش فى يدهم .

وحدث أن ذهب زوجى الى الملك وأبلغه مطالب الضباط ، وأنهم متذمرون ، ونصحه بأن يجيب للضباط هذه المطالب بدل أن ينتظر

حتى يتقدموا بها ، وأرسل الملك الى رجاله هذه المعلومات ، فجاءوا يقولون له أنه لا أساس لها من الصحة وأن الجيش فى جيوبنا » .

ويبــدو من تحليل هــذه الإقوال أن الملك فى تلك الفترة كان مضطربا ، وكان يحس أنه يوشك أن يواجه معارك عنيفة تتجه كلها ضده ، ولكن بطانة السوء التى أحاطت به والتى كانت تجد الفرص السانحة للثراء العريض الواسع تزداد أمامها وتتسع ، أبت أن تجعله يصدق شيئا مما كان يقال عنه . وســواء أكان الذى قالته السيــدة ناهد رشاد صحيحا أم أنه غير صحيح فالذى لا شك فيه أن فاروق كان يسمع كل ما يجرى فى داخل البلاد ، وأنه كان يعلم أن هنــاك شيئا ما فى الجو الداخلى يرتب ويهيأ ضده ، ولكن الذين أحاطوا به صوروا له أنه قابض على ناصية الموقف ، مهيمن عليــه ، وكانوا يقدمون له المثل من الاحزاب والهيئات السياسية المعروفة ، فانهــا لم تكن تجسر على مواجهته بنقد أو توجيه ، حتى لقد قيل ان الكثير من الوزراء والساسة كانوا يتمنون لو أن الملك دعاهم الى سهرة من سهراته فى الاوبرج أو فى غيره من الملاهى .

ويقول الذين اتصلوا به فى هذه الفترة الحاسمة لو أن المسئولين فى مصر وجهوا فاروق وجهة سليمة لتحول عن الطــريق الذى كان يسير فيه بسرعة مدفوعا من بطانة السوء التى كانت تحيــط به ، وحجتهم فى ذلك أن فى كل رجل نواحى خير ونواحي شر ، ولو شجع الخير فيه لتغلب على الشر .

وقد يقفز الى الاذهان هذا السؤال :

لماذا لم ينصحه النقراشى بالابتعاد عن مواطن الزلل . . ؟

ان الذين عرفوا دقائق حياة النقراشى ليؤكدون أنه حاول ذلك ولم ينجح ، وأنه كان يعتقد أنها انمــا نزوات شــباب لا تلبث أن تنقضى ، ولقد كان فاروق يحب النقراشى ويحترمه لنزاهته ، وكان يعجب بشجاعة أحمــد ماهر ، وعندما قتل الرجــلان حزن عليهما

حزنا شديدا ، حتى أنه اشترك فى صلاة الجنازة على الاول فى مسجد الكخيا .

ومحمود فهمي النقراشي هو الذى رفض فتح اعتماد اصلاح يخت المحروسة وكتب الى الخاصة الملكية يقول : فى الوقت الذى تفتك فيه الشيوعية بعقول الشباب المصرى ويشتد التذمر من الفاقة التى تحيط بافراد الشعب فان الناس لن يقبلوا منا التفكير فى مثل هذا العمل ولهذا فانى لااستطيع ، مادمت رئيسا للوزارة ان اوافق على طلب كهذا واستقالتى بين يدى جلالتكم .

واضطر النقراشي تجاه الاحداث الخطيرة التى وقعت وكانت تقع فى القاهرة وغيرها ، وتهدد حياة المصريين والاجانب على السواء ، اضطر أن يدرس الموقف جيدا ، وأن يضع هيئة الاخوان المسلمين على رأس قائمة الهيئات التى يجب أن توجه اليها اجراءات حازمة ، ضمانا لسمعة الامن المصرى الداخلى .

وقد استقر رأيه على حل الاخوان .

ولا شك أن فكرة الحل صادفت هوى فى نفس الملك ، لانه كان يرى الاخوان مبعث ما ساد البلاد من الاضطراب والقلق ، بل مصدر خطر على حياته هو ، وكان يخيل اليه أن حل الاخوان أو حل جمعيتهم يعنى أن ينتهى كل شىء ، وينفسح أمامه طريق الفساد ، ويصفو له الجو ، ولهذا رحب بفكرة الحل وأيدها .

وأصدر النقراشي قراره بحل الاخوان ، وكانت خطوة جريئة من رئيس حكومة لا تمثل الاغلبية ، وتواجه موجة قوية من الغضب داخل البلاد ، ولكن النقراشي كان يضع دائما مسألة الامن فى المكان الاول ، وكان يرى أن الدولة التى يضطرب فيها الامن الداخلى غير جديرة بالبقاء ، بل كان يتخذ اعجاب الاجانب وارتياحهم لاجراءاته فى سبيل حماية الامن الداخلى نبراسا له ، وكان كثيرا ما يحتفظ

برسائل ترد اليه من بعض الاجانب يشيدون به فيها لما اتخذ من اجراءات ويثنون عليه وعلى حزمه فى المحافظة على الامن .

وكان الحل ضربة كبيرة أصابت الاخوان ، وخاصة فى وقت كانوا يحسون فيه أن ثمرة انتظارهم أصبحت دانية القطوف ، وكان نشاطهم قد اتسع ، فأصبحوا ولهم صحيفة يومية وصحيفة أسبوعية ، ومدارس وشركات ومستوصفات ، وتجاوز نشاطهم المدن فتوغل فى القرى ، ولهذا عز عليهم أن يروا كل هذا ينهار بقرار من رئيس الوزراء ووزير الداخلية .

وتقدم شاب جرىء من شباب الاخوان ، فوضع خطة لاغتيال النقراشى ، ولبس ملابس ضباط البوليس ، ودخل الى فناء وزارة الداخلية ، ثم الى الصالة الداخلية بالدور الارضى ، وانتظر فى ركن وراء المصعد ، فلما جاء النقراشى فى الساعة العاشرة صباحا وأخذ طريقه الى المصعد ، تقدم منه وأفرغ فيه رصاص مسدسه ، فسقط الرجل صريعا لوقته .

كان النقراشى ثانى رئيس حكومة يقتل وهو يؤدى عمله .

وكان الرئيس الثانى لحزب السعديين ، وقد قتل الرئيسان فى خلال ثلاث سنوات وكان مقتلهما لخلاف سياسى ، قتل الاول بسبب موقف مصر من دخول الحرب العالمية ، والثانى بسبب حل الاخوان المسلمين .

وبدأت الاحداث السياسية تسير بسرعة بعد مصرع النقراشى عند مدخل وزارة الداخلية .. بدأت تسير دون توفيق ، وتسرع دون نظام ، وأفلتت عجلة القيادة من يد الممسكين بها ، وأطاحت بهم ، وتسلمها غيرهم ممن كانوا ينظرون الى ساسة العهود القديمة ، وعلى رأسهم الملك السابق ، نظرة تربص وانتظار .

أسندت مقاليد الحكم الى الاستاذ ابراهيم عبد الهادى رئيس

الديوان الملكى فى نفس اليوم الذى قتل فيه النقراشى ٠

وكانت الظروف التى تواجه الرجل قاسية ، حرب فلسطين وما يتصل بها من متاعب ، ومصرع رئيس الوزراء فى فناء وزارة الداخلية بيد شاب من شباب الاخوان المسلمين ، وكان على الرجل أن يواجه المسألتين بشجاعة وقوة ، فقد كان مسئولا عن الامن الداخلى ، فلابد من اتخاذ اجراءات شديدة حتى لا تتطور الامور الى اسوأ مما تطورت اليه ، ولكن هذه الاجراءات كانت عنيفة أو هكذا اتهم ، وكان متعجلا فى القضاء على شبكة النشاط الاخوانى ، فوقع فى كثير من الأخطاء ، ولعل الخطأ الأكبر الذى عمد اليه هو قطع مرتبات المعتقلين من الاخوان المسلمين ، مما جعل أسر هؤلاء المعتقلين تستجدى العطف وتلجأ الى بيع ما تملك لكى تعيش ، وهذا من أسوأ الاساليب التى لجأ اليها ابراهيم عبد الهادى ، ومع ذلك فقد رأى بعد أن استتب الامن بعض الشىء أن يعدل عن هذا الاسلوب ، فقد ذهب اليه الاستاذ أحمد الباقوزى واجتمع به وأقنعه أن صرف المرتبات عملية انسانية يجب ألا يلجأ الى عكسها ، ورضى ابراهيم عبد الهادى بأن يصرف المرتبات ، ثم اذ به يفاجأ بمؤامرة واسعة النطاق لاغتياله وهو فى طريقه الى منزله بالمعادى ، وكاد الاستاذ حامد جودة رئيس مجلس النواب فى ذلك الحين يذهب ضحية هذه المؤامرة ، وكانت المؤامرة قد دبرت تدبيرا محكما جعل ابراهيم عبد الهادى يعود الى ثورته مرة أخرى ، فصرف النظر عن صرف المرتبات وازداد فى محاربته للاخوان المسلمين ، وأخذ يعصف بهم عصفا شديدا ، واستمرت عائلات المعتقلين تقاسى الحرمان ، فانقلب الشعور العام ضده ، ولعل مرضه بالسكر كان سببا فى توتر أعصابه وفى اجراءاته العنيفة ٠

أما المسألة الاخرى ، مسالة حرب فلسطين ، فقد عمل على انهاء القتال بعد أن وضح له أن لا سبيل الى تحقيق نتيجة من ورائها ،

وكانت حالة القوات المصرية فى الميدان قد وصلت الى حد يرثى له بسبب الخيانة التى أصيبت بها فى الاسلحة الفاسدة ، وهى الخيانة التى لم تكن خطوطها قد وضحت فى الفترة التى حكم فيها عبدالهادى، ولم تكن الصحف قد تكلمت عنها بصورة الاتهام ٠

والى جانب هذا حرص ابراهيم عبد الهـــادى على أن يمضى فى تنفيذ فكرة النقراشى الاولى ، وهى تقوية البـلاد داخليـــا ، فكان يحرص فى مؤتمراته الصـحفية ، ولم تكن كثيرة ، على أن يبـــرز بالارقام ما صرفته الحكومات التى تعاقبت على الحكم منذ ٨ أكتـوبر سنة ١٩٤٤ على الصحة والتعليم والخدمة الاجتماعية ، ومع أهميـــة هذه البيانات وأثرها العظيم على تكويننا الداخلى الا أنهـــا لم تكن من المسائل الحساسة التى يعنى بها الشعب ، أو يتحدث عنهـــا حديثا ينم عن التأييد ٠

ولعل الاستاذ ابراهيم عبد الهادى كان أضعف الرؤساء السعديين فى مواجهة الملك ، فقد كان رئيسا للديوان الملكى من قبل ، وكان لذلك أثره الكبير دون شك فى ذلك ، ثم أنه لم يكن ناجحـــا فى رئاسة الديوان ، ولم يكن يعترض على تدخل غير الرســـميين فى المسائل الهامة ، كما كانت له فكرة عجيبة ، وهو أنه عمل مـع الملك فى بيته وهو كرجل فلاح يأبى خيانة العيش والملح ، ومن ثم فضل أن يلجأ الى تحريض أعضـــاء حزبه عـــلى المعارضة فيمـا كان يطلبه الملك ، دون أن يفعل ذلك صراحة من جانبه ٠

فقد حرص مثلا على رفض الاعتماد الذى كان مطلوبا لاصـــلاح الباخرة « المحروسة » ، وعمل على أن تطالب اللجنة الماليـة مجلس النواب بوضع اشتراطات وقيود قبل صرف المبلغ المطلوب ، وقـد عرفت هذه الواقعة ، التى أسجلها له ، معرفة شخصية ، لانى كنت اذ ذاك عضوا فى اللجنة المالية بمجلس النـــواب ورأيته يقف وراء

هذه المعركة ويحضر بنفسه اجتماعات اللجنة المالية ليدير المعركة ولكن بعيدا عن قيادتها • بعكس محمود فهمي النقراشي الذى سجل فى خطاب رسمى رفضه فتح الاعتماد اللازم لاصلاح هذا الخيت •

وهذا الحادث ان صح أنه جدير بالتسجيل من ناحيــة ، الا أنه يدل من الناحية الاخرى على أن ابراهيم عبد الهادى لم يكن فى ذلك شجاعا ، ولعله كان يخشى أن تؤدى الحـرب العلنيـة أو الرفض الصريح الى العصف بحزبه ، وقد كانت الاحزاب على وشك أن تواجه معركة انتخابية جديدة ، ولم يكن الرجل مؤيدا من الحزب الشريك فى الحكم ، وهو حزب الاحرار الدستوريين ، بل كان الحزب يدس له فى الخفاء ، وانتقد الدكتور محمد حسين هيكل رئيس الحـزب ، تصرفات الحكومة ، وبخاصة نحو الاخوان المسلمين ، مع أن أعضـاء حزبه المشتركين فى الحكم لم يبد منهم أى اعتراض ولم يصوت أحد من الشيوخ والنواب الدستوريين ضد هذه التصرفات •

وكان الوفديون فى حيرة ، كانوا يخشـون أن يدير ابراهيم عبد الهادى المعركة الانتخابيـة المقبـلة ، فيحكم عليهم بأن يظلوا بعيدين عن الحكم خمس سنوات أخرى ، وبدأ الدستوريون كذلك يدرسون تقسيم جغرافية الدوائر الانتخابية ، وكانت لديهم فى ذلك آراء تخالف آراء السعديين ، وبدأ الصراع بين الحزبين يظهر واضحا صريحا •

وقد بذل ابراهيم عبد الهادى جهدا جبارا فى تصـفية هـذا الخلاف ، وازالة أسبابه ، لانه كان يحس أن أيدى خفية فى السراى بدأت تلعب لعبة جديدة تهدف الى ابعاده عن الحكم ، وكانت المباحثات بين السراى والرئيس السابق حسين سرى قد بدأت لتشكيل وزارة جديدة تجرى الانتخابات ، وقال حسين سرى ان شروطا معينة يجب أولا أن تتحقق ، ولعل أهمها عنده أنه كان يريد اشراك الوفديين فى الحكم وأن تقوم وزارة قوية باجراء هذه الانتخابات •

ورفضت طلبات حسين سرى ٠

ومع هذا ظل يحس احساسا داخليا بأن السراى لابد أن تعود الى الموافقة على طلباته ، وذهب يزور ابراهيم عبد الهادى بمكتبه فى رئاسة الوزارة لاسباب عامة ، ثم سأل « متى ينتهى البرلمان من اقرار الميزانية ؟ » ، فأجاب رئيس الوزارة « ما زال أمامنا بعض الوقت » ، فقال سرى « عليك أن تطيل فترة عرضها على البرلمان الى أطول مدة ممكنة ٠٠ »

وسافر سرى الى أوربا وهو يعلم أن وزارة ابراهيم عبد الهادى قد حكم عليها بالاقالة بعد اقرار الميزانية ٠

وقد تحقق ما كان يعلمه سرى ، اذ ما كاد يقضى بضعة أيام فى أوربا ، حتى دعى الى مكالمة تليفونية ، قيل له فيها « ان السراى قبلت شروطك وعليك العودة فورا » ٠

واستقل سرى الطائرة ، ووصل الى مصر ، ولم يكن يعلم أحد بوجوده ، وسمعت بالنبأ فى نفس اليوم ، وكنت أتولى رئاسة تحرير الزمان ، فقلت للاستاذ ادجار جلاد ان سرى عاد الى مصر ليؤلف الوزارة ٠

وكان جلاد يعتبر نفسه من رجال السراى وأن « بلوك الملك » ، وهذا يعنى « خدم الملك » لا يخفون عنه شيئا ٠

وتمسكت بالخبر وأصررت على نشره فى الصفحة الاولى بعناوين بارزة بوصفه « خبر الموسم » ، اذ لم يكن يتبادر الى ذهن أى انسان أن ثمة اتجاها الى تغيير شامل ٠

وعاد جلاد ، قبيل طبع الجريدة ، يؤكد لى أن الاتصالات الشخصية تؤكد له أن الخبر غير صحيح ، وأن سرى عاد لاعمال خاصة ، وأنه يرى رواية الخبر عن هذه العودة على هذه الصورة وبدون ابراز ٠

وفى فجر اليوم التالى ، ذهب الفريق محمد حيدر الى منزل ابراهيم عبد الهادى فى الاسكندرية وأيقظه ، وقال له « ان الملك يريد استقالة وزارتك » .

والغريب أن الملك السابق طلب أن يبلغ ابراهيم عبد الهادى هذه الرغبة فى منتصف الليل ، ولكن حيدر رفض ، وأصر على أن يبلغها له فى الصباح ، ثم اتفقا على أن تبلغ له فى الفجر .

واستيقظت مصر على نبأ استقالة ابراهيم عبد الهادى ، وتكليف حسين سرى تشكيل وزارة قومية ، تجمع بين ممثلى الاحزاب السياسية عدا « الكتلة الوفدية » .

وقبل ابراهيم عبد الهادى هذا « الأمر » دون أن يتخذ من جانبه أى اجراء ، بل قبل الاشتراك فى الوزارة عن طيب خاطر ، على الرغم من المعارضة الشديدة التى أبداها الأستاذ حامد جودة ، نائب الرئيس ، واصراره على أن يعتذر الحزب عن الاشتراك فى وزارة سرى ليكون ذلك مظهرا لاحتجاجه على الطريقة التى استبعد بها ابراهيم عبد الهادى من الحكم .

ولكن الرئيس السابق أبى أن يستمع الى هذه النصيحة القيمة ، لأنه كان لا يريد اغضاب السراى ، على أساس مبدأ « العيش والملح » وكانت الترضية الوحيدة التى قبل الملك تقديمها لابراهيم عبد الهادى ، هى أن يقابله لتكون المقابلة مظهرا من مظاهر الرضاء السامى ...

وهكذا لم تكن هناك « رجولة » تواجه تصرفات الملك الشاذة ، بل كان الجميع يتهافتون على السراى ، ويلتمسون رضاء فاروق ، وينسون فى سبيل ذلك أن يغضبوا لأنفسهم ولأمتهم ، ومن ثم أتيحت كل الفرص أمام الملك ليفعل ما يشاء ، ويغير الوزارات وقتما يشاء ، دون أن يجد رجلا واحدا يقول له « قف مكانك » .

وشكل سرى الوزارة من كل الأحزاب عدا « الكتلة الوفدية » ، حزب مكرم عبيد ، فقد اشترط الملك عدم دخوله الوزارة ، وذهب سرى يزور مكرم ليغطى الموقف ثم بلغه أنه كان يرغب فى اشراك حزبه فى الوزارة ولكن مكرم اعتذر ٠

ومثلت الرواية ونجحت ٠٠٠

كان الملك ما زال يرى فى مكرم خصمه اللدود ، وقد ظل على هذا الرأى حتى طرد من مصر ، وكان مكرم فعلا يهاجمه فيما كان ينشره تحت عنوان « **حكمة اليوم** » فى الكتلة ، هجوما خفيا ، ولكنه كان مفهوما ٠ وهكذا وضح لمكرم بالبرهان القاطع أنه خسر كل الجهات ، فقد حاول أن يهادن الوفد ، فلم ينجح فى هذا ، وانتقم منه الوفد شر انتقام ، اذ تظاهر بقبول المهادنة ليظهر « مكرم » أمام الناس بأن تلك الاتهامات التى ضمنها الكتاب الأسود فى عام ١٩٤٣ قد تنازل عنها فى عام ١٩٤٦ ٠

وبدأت الوزارة السرية القومية تواجه مشكلة الانتخابات ٠

تقسيم الدوائر ٠٠ ومطالب نواب كل حزب ٠٠ مناقشات عنيفة فى مجلس الوزراء ٠٠ اسرار مداولات المجلس تذاع فى الصحف ٠٠ سرى يفرض قيودا على الوزراء ، فلا يوزع عليهم المذكرات الهامة حتى لا تتسرب الى الصحف ٠٠ رئيس الوزراء يطلب من الوزراء أن يمزقوا أوراقهم قبل الانصراف من قاعة اجتماعات المجلس ٠٠ الأعصاب متوترة ٠٠٠

والوزارة لا تعمل شيئا ، سوى خرائط التقسيم ، وهل تكون بالعرض أم بالطول ٠٠

حاول سرى أن يجمع حوله كل الأحزاب ، وأن يدير المعركة الانتخابية بهذه التشكيلة العجيبة ، فعجز وأعلن فشله ، واستقال ليؤلف وزارة مستقلة عن الأحزاب ٠

وبدأت المعركة الفعلية ٠٠

الفصل الثامن

معركة الحاشية الملكية

كانت معركة الانتخابات معركة عجيبة ، أديرت بطريقة تمثيلية ، واستخدمت فيها وسائل كانت لها الأثر الأكبر فى نتيجتها ٠٠

أسندت ادارة المعركة الى الأستاذ محمد هاشم ، وزير الدولة ، وصهر الرئيس السابق حسين سرى ، وقد أحاط نفسه بجو من مظاهر الحياد الممزوج بالسرية المطلقة ٠٠ وأصبح بين يوم وليلة ملتقى لجميع الأنظار ، لأن مقاعد النيابة أصبحت ملك يديه ، اذا مرض ذهب لعيادته فى منزله الرئيس السابق مصطفى النحاس ، وبقى معه فترة ليطمئن على أنه يأخذ الدواء فى موعده ، وأن التدفئة كاملة فى حجرته ، واذا تحرك من مكان الى مكان تحركت معه عيون المرشحين وقلوبهم ٠٠

وكانت هناك أيد خفية تتحرك وراء المعركة ٠٠

السراى تريد أن تحقق توازنا بين الأحزاب المشتركة فى الانتخابات ٠٠

والانجليز يرقبون المعركة ، كأنهم كانوا يترقبون نتيجة ما يريدون أن يتحقق ، دون حاجة الى حادث كحادث ٤ فبراير ، اذ أنه لم تكن هناك حرب ولم تكن ثمة حاجة الى الالتجاء الى وسائل العنف ٠٠

والوفد يستمع الى قصة « التوازن » الذى يريده فاروق ، فيحس الوفديون أنهم سيقعون فى المصيدة ، أو أنهم وقعوا فيها فعلا ٠٠

والأستاذ محمد هاشم يتجول فى الريف فى زيارات قال عنها

انها « محـــايدة » يريد من ورائهـــا الاطمئنان الى ســـير المعـركة الانتخابية ، وخرجت الصحف تشترك فى التمثيلية ، وتنشر صورا لوزير الدولة وهو يأكل على الشمعة أو يبحث الشكاوى على ضوء مصباح الغاز ..

ورجال البوليس الذين ينزل منهم الوحى على العمـــد والمشايخ يترقبون الاشارة من المحيطين بوزير الدولة فى هذه الزيارة ، وكان اتجاههم جميعا ضد مرشحى الحزب السعدى ، لأنهم لم يكونوا قد نسوا بعد هذا الموقف الذى وقفه النقراشى من اضرابهم ، وما اتخذه من اجراءات لمحاصرة جموعهم فى ناديهم بحديقة الازبكية ، وهنـــا يقول بعض المحايدين أن بعض ضبـاط البـوليس الذين رافقوا وزير الدولة فى زيارته كانوا يجتمعون باخوانهم فى الريف ، ليلقوا فى آذانهم بتعليمات صريحة تنطق بأن الاتجاه العـــام يؤازر مرشحى الوفد ، وأن وزير الدولة كلفهم بأن يتولوا ابلاغهم هذه التعليمات ، لأنه لا يريد أن يخرج عن حياده علنا ..

وسواء أكانت هذه القصة صحيحة أم غير صحيحة ، وسواء أكان الأستاذ محمد هاشم كان على علم أم أنه لم يكن ، فان الواضح أن الضباط الذين اختارهم لمرافقته فى هـــذه الرحلة كانوا من ذوى الميول الوفدية ، ولا أستطيع الحكم عما اذا كان هـــذا الاختيار جاء عفوا أم انه كان مقصودا ، انما الذى لا شك فيه أن هذه الزيارات أسفرت عن انقلاب فى تفكير رجال البـــوليس صادف هـــوى فى نفوسهم .

وعلى الرغم من هذا لم يكن رجال الوفد قد اطمأنوا بعـــد تمام الاطمئنان ، فقد بادر مصطفى النحاس فألقى خطابا قبل المعركة هاجم فيه فكرة التوازن بين الأحزاب ، وهـــدد بانه اذا لم يحصل عـلى

الأغلبية فلن يشترك فى الحكم ، ولن يوافق على أية معاهدة تعقدها الحكومة ٠

وجاء هذا التهديد صريحا ، أو على الأقل تلميحا ، بتحرك معسكر الانجليز ٠

هل تدخل الانجليز بعد هذا ٠٠ ؟ هل أشاروا بالتزام الحياد المطلق ؟ هل لمحوا بضرورة نجاح الوفديين ؟ هذه أسئلة لا أستطيع الاجابة عنها وأنا واثق مما أقول ، ولكن الذى حدث على وجه التحقيق أنه فى صباح يوم التصويت انسحب رجال البوليس من أمام المراكز الانتخابية فى القاهرة والاسكندرية ، وتركوا حراستها للشباب الوفدى ، فكان لا يسمح لغير الوفديين بالتصويت ٠

وظهرت نتيجة الانتخابات فى هذه الدوائر فى مساء نفس اليوم، فكانت مائة فى المائة للوفديين ، ولم تكن كذلك فى دوائر الارياف ، هذا الى أن دوائر كثيرة أعلن أنه ستعاد الانتخابات فيها لعدم حصول أحد من المرشحين على الاغلبية المطلقة ، وكان الاتجاه الغالب فى معظم هذه الدوائر الى الأحزاب المعارضة ٠٠ ولكن ٠٠

ولكن ما حصل عليه الوفد فى القاهرة والاسكندرية ، مضافا الى بعض الدوائر التى فاز فيها فى الوجهين القبلى والبحرى ، كان يكفى لأن يتكهرب الجو ويشعر النحاس أن الوفد أوشك على كسب المعركة ، ومن ثم تبدل الوضع ، وأصبح المرشح المعارض يسعى الى أن يرشحه الوفد أو يرضى على الأقل عن ترشيحه ٠٠٠

وكسب الوفد المعركة ، وفتحت صفحة جديدة فى تاريخ مصر ، صفحة ملوثة بأقدام فاروق ، والمحيطين بفاروق ، والذباب المرتمى على فاروق ٠٠ صفحة طافحة بفضائح ، تتضاءل الى جانبها كل ما تضمنه الكتاب الأسود ٠٠

★ ★ ★

لقد ظهرت نتيجة الانتخابات ، فاذا بها ضربة قاضية للسياسة التى كانت السراى تأمل تنفيذها ، واجتمع الملك بالرئيس السابق حسين سرى ،وقال له : « لقد كنت السبب فى أن ينال الوفد هـذه الأغلبية الساحقة ، فعليك أن تقف الى جانبنا لتواجه العاصفة » .

كان الملك يظن أن الوفد سـيعود الى الحكم بعـد الاقالة الثالثة بسياسة جديدة حازمة .. سياسة توقفه عند حـده ، وتنقص من سلطاته الدستورية .. بل لقد ذهب فى تفكيره الى حد الايمان بأن مصطفى النحاس لن يشكل الوزارة الا اذا حصل على هذه الضمانات مقدما ..

وقبل سرى أن يتولى منصب رئاسة الديوان الملكى .

ووقف الملك فى مكتبه بالقصر ينتظر مصطفى النحاس ..الرئيس الظافر .

ودخل النحاس ووقف أمام مكتب الملك ..

وكانت لحظات اضطرب فيها قلب الملك ، فى انتظار ما سـيتقدم به النحاس من طلبات ..

وقال النحاس : « ان لى مطلبا واحدا » .. !

وتبادل الملك وسرى النظـرات ، وابتسم الملك ابتسامة صفراء ترجمتها « ألم أقل لك .. ؟! »

وطلب الملك من النحـاس أن يجلس أولا قبل أن يعلن هـذا المطلب ..

ورد النحاس يقول : « مولاى ، انى أريد أن أحصل على رد لهذا الطلب » ..

وحاول الملك أن يؤجل هذا الطلب قليلا ، لعل وعسى .. ولكن النحاس أصر على أن يكون هذا الطلب هو فاتحة هذا الاجتماع ،

اجتماع ملك مصر .. وزعيم الأغلبية الشعبية ، التى طـــردت من الحكم ثلاث مرات ..

وتوكل الملك على الله وقال : « .. وما هو هذا الطلب ؟ »

واستجمع النحاس شجاعته ونطق ، نطق بالطلب الذى أصر على أن يكون فاتحة لعهد جديد ، عهد الاستقرار ، والاطمئنان .. لقد كان طلبه الوحيد أن يقبل يد الملك .. !

وتراجع سرى خطوات الى الوراء ..

وتقدم الملك الى الأمام خطوات ، الى حيث يقف النحاس ، ومد له يده ، فانحنى النحاس ، انحنى زعيم الأغلبية الذى طرده فاروق من الحكم ثلاث مرات ، انحنى حتى كاد يلمس الأرض ، فقد تعمد الملك أن يخفض يده الى أسفل .. ثم قبل النحاس يد الملك .

ولقد تحريت هذه الواقعة من الذين شهدوا المأساة ورويت لى القصة كما أسجلها فيما يلى :

فهذه الواقعة فى نظرى – نقطة تحول خطيرة فى الموقف دفعت فاروق دفعا الى الاستهانة بكل وضع فى مصر . فقد جاء مصطفى النحاس الى الحكم بأغلبية كبيرة ، أغلبية ساحقة ، ومع هذا « رفس » الرجل هذه الثقة الشعبية بقدميه ، وتقدم الى الملك ، معترفا له بأنه فوق الشعب، وطلب منه أن يقبل يديه ... بل انه ذهب فيما بعد الى ما هو شر من ذلك ، اذ رفض أن ينظر فى أى طلب يحول له من السراى وفوض رئيس الديوان الملكى « كارت بلانش » فى أن يحكم هو باسم الملك ، وفى أن يستدعى الوزراء المختصـــين الى القصر ليصـــدر لهم أوامره مشفوعة بموافقة « رئيس الوزراء » .

كان الملك عند ظهور نتيجة الانتخابات فى أوائل ينـــاير قد أحس بأنه هزم فى المعركة، وأن مصطفى النحاس سيذهب الى السراى ليملى على الملك شروطه لكى يحكم . وكان أول ما فكر فيه هو أن يكلف

سكرتير الوفد الاستاذ فؤاد سراج الدين تشـــكيل الوزارة بدلا من النحاس • وذهب الاستاذ حسن يوسف رئيس الديوان الملكى بالنيابة الى الرئيس السابق حسين سرى فى داره بعد أن ظهرت النتائج فى معظم الدوائر وكشفت عن أغلبيـــة وفدية ــ ذهب الاســـتاذ حسن يوسف الذى أجرى الانتخابات وقال له ان الملك يشعر بأن النحاس سيستغل هذا النصر ليملى على الملك شروطا قاسية ، وانه لهذا يرى الا يكلف بتشكيل الوزارة ، وانما يعهد بذلك الى الاســـتاذ فؤاد سراج الدين •

وقال حسين سرى ردا على هذا الاقتراح «اننى أعتبر نفسى فى حكم المستقيل وليس لى أن أبدى رأيى فى هذا الامر ، •• ومع هذا فاذا كان على أن أتقدم بالنصيحة ، فان هذا الاجراء خطأ •• »

ورد حسن يوسف « اذا كنت تعتبر نفسك مستقيلا من الوزارة ، فالملك قد استقر رأيه على أن يسند اليك رئاســة الديوان الملكى » •

ورفض حسين سرى هذا العرض ، ••

وعاد حسن يوسف مرة أخرى فى المساء الى دار الرئيس السابق حسين سرى وقال له ان الملك مصر على أن يسند اليك رئاســـة الديوان الملكى ، وهو يطلب أن يجتمع بك فى منزلى مساء اليوم •

وذهب حسين سرى الى هذا الاجتماع الذى دام من التاسعة مساء الى الواحدة صباحا • أربع ساعات والملك يشرح فيها لحسين سرى مخاوفه من مصطفى النحاس • كان فى حالة قلق واضحـــة ، وكان واثقا من أن مصطفى النحاس « لن يرحمه » • ثم وجه كلامه الى حسين سرى فقال « انك المسئول عن نتيجة الانتخابات •• ومسئول عن فوز النحاس بهذه الثقة « الفظيعة » فلا أقل من أن تقف الى جانبى عندما أواجهه •• »

وقبل حسين سرى منصب رئاسة الديوان الملكى شفقة بالملك ، وبعد أن أحس بأنه يكاد أن ينهار ..

كان فاروق يتصور أن النحاس سيفعل المستحيل لاذلاله واذلال حاشيته . — على الاقل فى البداية — لكى تتاح له فرصة الحكم باسم الشعب ، وكان فاروق يتصور أيضا أن مصطفى النحاس سيدخل عليه لأول مرة ليقول له « اسمع . انك ملك لهذه البلاد ، وليس لك أن تحكم أو تأمر أو تتدخل . ان الشعب قد اختارنى لمنصبى ، والشعب فوقى وفوقك ، وعليك أن تخضع لارادته » ..

ولكن النحاس لم يفعل ..

وهو لم يفعل ، لانه كان يريد مهادنة الملك ، لتتاح له فرصة أن يحكم أطول فترة ممكنة .

ولم يكن الملك راغبا فى أن يجتمع بمصطفى النحاس ويصدر له أمر التكليف بتشكيل الوزارة وبذلك يتجنب الاصطدام به . ولكن حسين سرى أصر على أن يجتمع به الملك .. ورضخ الملك فى النهاية بشرط أن يكون حسين سرى حاضرا ليتولى مواجهة « شروط مصطفى النحاس » .

وبعث الرئيس السابق حسين سرى الى النحاس يطلب منه الاجتماع به فى داره . وجاء مصطفى النحاس ، وجلس أمام رئيس الديوان الملكى الذى فاجأه بقوله ان الملك ، وقد ظهرت نتيجة الانتخابات — سيعهد اليه بتشكيل الوزارة الجديدة .

وسكت مصطفى النحاس فى البداية « لهول المفاجأة » ..

نعم ! .. لهول المفاجأة ، فهو لم يكن يتوقع أن يعهد اليه الملك بذلك ، رغم انه «الزعيم» الحائز على ثقة الشعب . ويبدو من ذهول الرئيس السابق مصطفى النحاس أنه كان مستعدا أن يرضى بتكليف

آخر من رجال حزبه بتشكيل الوزارة دون اعتراض • وهو الوضع الذى يتعارض كل التعارض مع السياسة التى سار عليها الوفد منذ تأسيسه !

وعند ما زالت آثار المفاجأة •• وقف النحاس وتقدم الى حسين سرى وقبله قبلات لا حصر لها أو عـــدد •• النحاس الذى جاء به الشعب الى الحكم يقبل ويشـــكر ويكاد يركع أمام رئيس الديوان « الملكى » لما حباه من فضل ! » •

هل الامر فى حاجة الى دليل آخر على أن النحـــاس لم يكن يعبأ بالشعب بقدر ما كان يعبأ برضاء الملك والسراى ورجـال السراى وحاشية السراى !!

وذهب النحاس الى مقابلة الملك ! ••

وكان الملك ما زال فى حالة الهلع التى أصيب بها بعد ظهـــور الانتخابات •

وفى ذلك اليوم أصدر أوامره الى الرئيس السابق حسين سرى بأن يكون فى السراى الساعة الثانية بعد الظهر ••

ســاعتان قبل المقابلة قضاهمـــا الملك يقطع حجرة مكتبه ذهابا وايابا ، وهو يفكر فيما أعده له مصطفى النحاس ، رغم المحـــاولات التى كان يبديها حسين سرى فى التخفيف عنـــه ، ورغم ما أظهره النحاس فى مقابلته لحسين سرى من خضوع وخنوع •

وجاء تشريفاتى القصر فى الساعة الرابعة الا خمس دقائق يعـلن وصول مصطفى النحاس ••

وقال حسين سرى « دعه ينتظر قليلا » ••

وانزعج الملك من ذلك ، وقال « لا •• لا •• من الخير أن لا نؤخره والا أعتبر هذا التأخير تحديا له ! •• »

وابتسم حسين سرى وأصر على رأيه ..

وبعد ربع ساعة سمح للنحاس بالمثول بين يدى فاروق ....

ووقعت المأســـاة ، كما سبق أن بينت وتقدم مصطفى النحاس ليقبل يد الملك « وش وضهر » ثلاث مرات ، لا مرة واحدة !

وتبادل الملك ورئيس ديوانه الابتسامة ..

وهزم الشعب .. وانتصر جبروت السراى !

هل الإمر فى حاجة الى دليل آخر على أن النحاس لم يكن يعبـــأ بالشعب بقدر ما كان يعبأ برضاء السراى وحاشـــية السراى وخدم السراى !!

ومع هذا الانتصار الملكى على « ممثل الشعب » أعـــد الملك قائمة بطلبات عاجلة يرى أن تنفذها الحكومة .

وحمل حسين سرى هذه الطلبات وذهب الى مصطفى النحاس ..

وبدأ رئيس الديوان الملكى بمقدمته يشرح فيها نوع مهمته ..

وقاطعه مصطفى النحاس ليقول له .. «ولماذا تتعب نفسك .. ان طلبات الملك مجابة من الآن .. وما عليك الا أن تصدر تعليماتك ..

وقال حسين سرى « ان الامر قد يحتاج الى أخـــذ ورد ، وقد تقنعنا بفساد بعض هذه الطلبات ، بل ان بعض الطلبات مما رفضـــته أنا أثناء تولى رئاسة الوزارة ..»

وابتسم النحاس — ابتسامة الرجل الخبير — وقال « انك مخطىء فى رفض هذه الطلبات .. »

وقال حسين سرى « وكيف يتسنى لك الحكم على هذا الخطأ ، قبل أن تعرف ما هى هذه الطلبات ؟..

.. ورضى النحاس فى النهاية بأن يستمع .

وكان الطلب الاول يتعلق بنقل مأمور مركز من الصعيد الى بوليس السراى ..

وقال النحاس « سأنقله .. بل سأرقيه . لا بد من أن يصبح وكيلا للمديرية .. انه رجل كفء » .

وتساءل حسين سرى « وهل تعرفه ؟ .. »

فأجاب النحاس فورا ، وبقوة « أبدا . لم يسبق لى معرفته، ولكن الملك الذى يوصى به فهو لا بد من أن يكون كفء » ..

وهكذا مضى النحاس فى الاستجابة للطلبات الواحد بعد الآخر بنفس الطريقة . النقل يرتفع الى الترقية . والترقية لدرجة واحدة ترتفع الى ترقية لدرجتين أو أكثر .. ولم يشأ حسين سرى ازاء هذا « الكرم النحاسى » الا أن يغلق الدوسيه .. ويكتفى بالبت فى ٥ طلبات من ٢٠ طلبا ملكيا ! »
ولم ينس النحاس أن يقول لحسين سرى وهو يغادر مكتبه ، أنت تعلم أن صحتى لم تعد تحتمل كل هذه الجهود ، .. ولهذا فأنا أرجوك أن تتصل بالوزراء المسئولين رأسا وأن تصدر لهم « أوامر مولانا » ليضعوها فورا موضع التنفيذ ..

وقد كان ..

وجلس حسين سرى فى مكتبه ، وكان يستدعى الوزراء ليصدر لهم أوامره مشفوعة بأمر « رئيس الوزراء » بالتنفيذ !!

واستراح النحاس ...
واستراح الملك ...
استراح النحاس ، لأن هذه القبلة فى نظره فاتحة خير لنفسه ولأهله ولأنصاره ..

واستراح الملك ، لأن ظنونه ومخاوفه من النحاس تلاشت ، نعم تلاشت ، وأصبح واضحا أن النحاس قد جاء ليؤكد أن ما نص عليه

فى الدستور من أن الملك يملك ولا يحكم غير صحيح ، وأن دستور النحاس الجديد أن الملك يملك ويحكم ، ورأس زعيم الأغلبية قريبة من النعل !.

ترى لو أن ظنون الملك تحققت ، ودخل النحاس يقول : « لقد تكررت اعتداءاتك على الدستور ، وأنا بوصفى ممثلا للشعب ، سأطلب من البرلمان أن يعدل من سلطاتك حتى لا يتغلغل الفساد الى أكثر مما تغلغل .. » .

يقول زعماء الوفد انهم لم يكونوا فى وضع يسمح لهم بأن يفعلوا ذلك ، لأن المعارضة كانت لابد ستنتهز الفرصة لاقصاء الوفد عن الحكم ، وهذا ادعاء فارغ ، يراد به التغطية لا الحقيقة ، فلم يكن الملك وهو يتظاهر بتمسكه بأهداف الدستور ليستطيع الالتجاء الى العنف فى هذا الموقف، بل لو أن النحاس واجه المعارضة بهذه الرغبة، ما استطاعت أن تفعل شيئا أو أن تقف الى جانب الملك ، لان رائحة الفتنة قد بدأت تهب من أرجاء القصور الملكية ، وكانت الأحاديث عن نساء الملك ، واشتراك حاشيته فى فضائح الأسلحة الفاسدة ، تغمر كل مكان . ومن ثم كانت المعارضة فى مركز يرغمها على أن تؤيد النحاس ، بل وأن تدفعه الى الامام .

ولعلنا جميعا قد نسينا أن الوفد جاء الى الحكم بعد « جوع » طال أمده ، وانتظار دام نحو خمس سنوات ، ونسينا كذلك أن النحاس ، عندما حصل على الاغلبية ، كانت السيدة زينب الوكيل تملأ أذنيه بوجوب الخضوع للملك ، وقسمة البلد بينهما ، حتى لا تتعارض مصالحها مع مصالحه ، ونسينا أن التجارب القديمة ، تجارب الاقالات قد هذبت من خلق الرجل الوطنى « سابقا » ، فجعلته رجلا طيعا ، يعيش لدنياه ، ولا يعيش بتاريخه الوطنى .. انه كان يعلم أن هذا التاريخ قد انتهى يوم ٤ فبراير .. وانتهى بالكتاب الأسود ،

وانتهى بالوقوف فى ميدان الخديوى اسماعيل تحت العلم البريطانى لاستعراض جنود الاحتلال ..

ولهذا اختار الدنيا .. وركل التاريخ بقدمه ..

ولا أريد أن أظلم أعضاء الوفد ، فأقول انهم كانوا على علم بهذا الذى يوشك أن يقع فى أول مقابلة بين الملك والنحاس ، ولكن الذى لا شك فيه أنه وقع نتيجة اتفاق بين أصحاب النفوذ فيهم على أن يهادنوا الملك ويتجنبوا الهزات الجديدة ، ولو كان بينهم جرىء مثل أحمد ماهر لاجتمعوا وطلبوا من النحاس أن يكلف سواه من الوفديين بتشكيل وزارة وفدية ، ولرسموا لأنفسهم خطة جديدة ، تقوم على الوطنية والنزاهة ومراعاة الصالح العام وحده ، خطة تهدف الى استعادة سمعة الوفد القديمة ، ولكن الرجال الذين ضمهم الوفد كانو لا يستطيعون مواجهة مصطفى النحاس بالطريقة التى واجهه بها أحمد ماهر فى عام ١٩٣٧ ، ولم يكونوا على استعداد لأن يقفوا موقف التوجيه أو المعارضة ، اللهم الا اذا استثنينا الأستاذ أحمد نجيب الهلالى ، فقد وقف موقفا سلبيا فاعتذر عن الاشتراك فى الوزارة ولزم منزله ومكتبه واعتكف فيهما حتى دعى الى تشكيل الوزارة .

على أنه لابد من القول بأن كل هذا الضعف يرجع الى أن أعضاء الوفد لم يكونوا من طراز الرجال الذى شكل منهم الوفد أول ما شكل ، بل كان أكثرهم أصحاب مصالح .. ولهذا تغلبت المصلحة الحزبية والشخصية على المصلحة العامة ، فتركوا للنحاس ومن حوله وضع سياسة التسليم .

وهكذا كان النحاس أول قائد فى التاريخ انتصر ، ثم استسلم فى ذلة وخضوع ..

واندفع النحاس يستجيب لرغبات الملك دون حساب ، بل اتخذ من الاجراءات ما يخالف الدستور ، مبالغة منه فى ارضاء الملك ،

وطمعا فى تثبيت دعائم الحكم ، حتى يظل الوفد أطول فترة ممكنة متربعا فى دست الحكم ، ثم تتالت الأحداث بعـــد ذلك فى سرعة كبيرة •

كان حكم النحاس فى هذه المرة صورة طبق الأصل من حكمه خلال الفترة من ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الى ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، من حيث الاندفاع فى فتح أبواب الثراء لقرينته ، ومن يلوذ بها ، وكان الرجل لا يذهب الى مكتبه الا فى النادر ، واذا ذهب بقى فيـــه ساعتين لا أكثر ، ثم ينصرف عائدا الى داره ، واكتفى من الحكم بالمظهر وارضاء حرمه السيدة زينب الوكيل ، وكان يقضى الساعات الطوال كل يوم بين أيدى الأطباء ، وخرج عن النطاق الشعبى الى نطـــاق الطبقات الثرية ، فكان اذا صافح شخصا دخل عليه ياوره بزجاجة المطهر ، ولم يكن يخرج من داره الا فى موكب من سبع سيارات ، يجلس فى واحدة منها وسط ضابطين من ضباط البوليس ، كل منهما يتجـه بنظره الى ناحية من ناحيتى الطريق ، وكانت السيارات الأخـــرى مشحونة بضباط البوليس المسلحين بالمدافع الرشاشة ، ويتقـــدم هذا الموكب الكبير راكب موتوسيكل ليفسح الطريق •

فأين كانت الشعبية فى ذلك كله ؟ •• واذا كان هذا هو حال زعيم الشعب « الجائع الفقير » فهل كانت هذه الزعامة على أساس من اجماع الشعب فعلا ؟ •• وهل كانت حياته فى خطر ففرض البوليس السياسى وحرس الوزارات هذه الحراسة الشديدة عليه حفظا لحياته ودرءا لكل مكروه عنه ، لقد كان اتهام النحاس ، عقب الاعتداءات التى وقعت عليه فى العهود الماضية ، موجها الى السراى ، وهو اليوم يعيش فى بحبوحة من الرضاء السامى الملكى ، فمن هذا الذى كان يهدد حياته بالخطر •••

وعادت عجلة المباحثات الى الدوران من جديد فى عهد النحاس ، فبدأت الى أن أعلن النحاس الغاء المعاهدة فى أكتوبر سنة ١٩٥١ •

وفى عهده بدأ الحديث الرسمى عن فساد الحاشية الملكية ، وكان رئيس ديوان المحاسبة ، الأستاذ محمود محمد محمود ، هو أول من كشف الستار عن رشوة نالها الأستاذ كـــريم ثابت من مستشفى المؤاساة ، ولم يقبل رئيس ديوان المحاسبة أن يغير فى تقريره تحت ضغط الحكومة الوفدية ارضاء للسراى ، بل آثر الاستقالة ، عـلى أن يخضع لمثل هذا الاجراء ، وانتقلت المسألة الى مجلس الشـــيوخ ، وأثارها الأستاذ مصطفى مرعى فى استجواب قوى ، تولى شرحه فى اليوم الاول ثم ترك المنصة والاستجواب معلقا وسافر الى أوروبا فى اجازة ...

الفصل التاسع

معركة الشيوخ !

وقد كان لهذا الاستجواب أهمية سياسية كبرى فى تاريخنا السياسى لما قبل الثورة مباشرة ، وأهمية برلمانية، لما خلفه وراء من أحداث واعتداءات دستورية خطيرة • ففى جلسة ٢٩ مايو عام ١٩٥٠ تقدم الاستاذ مصطفى مرعى باستجواب هذا نصه ، وهو موجه الى رئيس مجلس الشيوخ :

أتشرف بأن أنهى اليكم أننى أريد أن أستجوب حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الحكومة فى تصرفات بدت من الحكومة كان لها أثرها فى استقالة الرئيس السابق لديوان المحاسبة

وقد تكلم الاستاذ **مصطفى مرعى** فى الجلسة الاولى من جلسات هذا الاستجواب فقال :

حينما توجهت الى الحكومة أسألها عن الاسباب التى أدت الى استقالة رئيس ديوان المحاسبة السابق ، كنت أعلم كما تعلمون ، ان كتاب الاستقالة جاء خلوا من أسبابها • ومع ذلك قدرت كما قدر غيرى ان مانعرفه عن الرجل المستقيل من سلامة التفكير وسداد الرأى لايتأتى مع الظن أنه استقال بدون سبب •

لهذا أخذت أبحث بنفسى أسباب هذه الاستقالة • وانتهيت الى أنها تتصل بعمل الرئيس المستقيل وخاصة تتصل بملاحظات : منها ما أبداه على وجه من وجوه الصرف بخصوص مستشفى المواساة ، ومنها ما أبداه على وجوه الانفاق فى حملة فلسطين • وأردت أن أقطع الشك باليقين فتقدمت للحكومة بسؤال هذا نصه :

« ماهى الاسباب التى أدت الى استقالة الرئيس السابق لديوان المحاسبة ، وهل من هذه الاسباب مايتصل بعمله وعلى وجه الخصوص: هل منها ما يتصل بملاحظات أبداها الديوان على نفقات حرب فلسطين أو على وجوه صرف الاعانة التى قررتها الحكومة لمستشفى المواساة ؟

وقد أجابت الحكومة عن هذا السؤال باجابة مقسمة قسمين :

القسم الاول : قالت ان الرئيس المستقيل لم يفصح عن أسباب استقالته • سوى ماجاء فى الاستقالة من أنه قد عرضت ظروف خاصة تجعل من العسير عليه الاستمرار فى رياسة الديوان المذكور • وهنا أقف عند هذا القسم : ان كلمة خاصة لا تعنى أنها أسباب شخصية بل هى أسباب تتصل بعمل الرجل • والدليل علـى ذلك أن الحكومة اذ راجعته ، قالت أنها ستحرص على تمكين الديوان من ممارسة رقابته القانونية على موارد الدولة ومصروفاتها •

كما أن الدكتورة درية شفيق تحدثت الى الرئيس المستقيل واعدت حديثها لتنشره فى المصرى وسألته : هل كانت الاستقالة لأسباب شخصية ؟ فكانت الاجابة لا • ولكن قوة قادرة تدخلت ومنعت الجريدة من طبع هذا الحديث ونشره •

أرى هنا قصورا من الحكومة فى أداء واجبها • وكنت أود أن تقول اننى أقف مع الرجل بعد أن أيقنت أنه على حق ، واننى أظاهره وأعضده • لو قالت الحكومة ذلك لأبرأت ذمتها • ولكن ، وهى هنا مريرة ، لا تقول الحكومة ولا تستطيع أن تقول أنها وقفت الى جوار الرجل تعضده وتسنده ، وانما تقول اعدل عن استقالتك وتغاضى • هذا معنى كلام الحكومة •

والقسم الثانى من الاجابة : خاص بملاحظـــات نفقات الحـــرب والمستشفى ، فان القانون رقم ٥٢ سنة١٩٤٢ ، الخاص بانشاء ديوان المحاسبة ، نص فى مادته التاسعة على حق الديوان فى ابداء الملاحظات على صرف الاعتمادات • وفى حالة وقوع خلاف بين الديوان واحدى

الوزارات أو المصالح يعرض الخلاف على مجلس الوزراء للفصل فيه ، وانه لم يحدث فى عهد الحكومة القائمة أى خلاف بين الديوان وبين وزارتى الحربية والصحة فى صدد الموضوعين .

انظروا – الى المهم فى هذا الموضوع : فعلى العكس ، ما وصل من ملاحظات فى هذا الشأن قد جعلته الجهات المختصة محل العناية التامة واذن بمقتضى صريح لفظ الرد ، هناك ملاحظات أبداها رئيس الديوان على هاتين المسألتين : مسألة مستشفى المواساة ومسألة نفقات حرب فلسطين ، وكل ماقالته الحكومة أنها أحلت هذه الملاحظات محلها من الرعاية .

وهنا – لب الاستجواب . وذلك لأننى هنا أراجع الحكومة . وأقول أن هذا الذى تقولينه لا يتفق مع الواقع ، بل يؤسفنى أن أقول أنه يناقض الواقع .

حسين محمد الجندى : فى أى عهد من عهود الحكومات حدثت هذه المخالفات ؟.

مصطفى مرعى : لا يصح لنا أن نقارن عهدا بعهد ، ولا حكومة بحكومة والبلد بين هذا وذاك ضائع . نحن فى وقت لا يصح لنا أن تدخل فيه الحزبية والحكومات المختلفة

فيما يتصل بالمسألة الاولى : المستشفى : تبين للديوان عند تحقيقه وجوه الصرف – فى مستشفى فؤاد الاول ، وقد صدر به مرسوم قانون سنة ١٩٣٩ ثم صار معهدا خيريا – تبين للديوان ان هذا المعهد كان فى الأصـــل يطلق عليه اســم مستشفى المواساة ، وكانت تملكه وتديره جمعية المواساة .

ولكن عندما ناءت هذه الجمعية بحمله ، رؤى للخـــلاص من ذلك ، ولكى يتمكن المستشفى من أداء واجبه ، أن تخرج الجمعية عن المستشفى وأن تمنحه الحكومة اعانة قدرها ٢٠ ألف جنيه سنويا وأن تمنحه

البلدية اعانة قدرها ٥ آلاف جنيه ، على أن يكون للمستشفى معهدا طبيا خيريا يحمل اسم الملك فؤاد • وصدر مرسوم بنظام هذا المعهد الخيرى •

وعلى هذا الاساس انبسطت يد ديوان المحاسبة على هذه المؤسسة لان فى قانون انشائه نصا صريحا يقضى بأن تمتد رقابة الديوان على كل مؤسسة تعان ، كما تمتد على فروع الحكومة سواء بسواء •

ذهب رجال الديوان يبحثون فاذا بهم يجدون ٥ آلاف جنيه تخرج من مال هذا المعهد الخيرى ـ صرف هذا المبلغ بتحويل على بنك مصر تاريخ ١٤ يناير ١٩٤٨ ـ لشخص معين هو كريم ثابت باشا ، ورقم هذا الشيك هو ١٥٢١٢ ـ وفى دفتر الصرف ذكر مقابل هذا المبلغ الذى تسلمه الباشا ، انه للدعاية والنشر الخاصـين باليانصيب والاعانات •

وقف رجال الديوان عند هذه العبارة ، فتمثلت لهم ثلاث مخالفات:

الاولى : ان اللائحة الداخلية لهذا المستشفى تقضى بأن كل وجه من وجوه الانفاق يزيد على ٣٠٠ جنيه يجب عرضه على مجلس الادارة • وهذا أمر لم يعرض على مجلس الادارة •

الثانية : ان هذا المبلغ كان يجب أن يكون مؤيدا بالدليل ، أو بالادلة التى تبين وجوه انفاقه ، ولكن لم يكن لهذا المبلغ مستندات •

الثالثة : ان الديوان قد راعى ان هذا المعهد الخيرى الذى تعينه الدولة ، وتعينه البلدية ويمد يده لرجال الخير يسألهم المعونة ـ يسخى هذا السخاء فيعطى ٥ آلاف جنيه مقابل ما قيل انه «بروباجندا» ودعاية خاصة باليانصيب • وكتب الديوان الى وزارة الصحة فى فبراير ومارس ١٩٥٠ يستنبئها النبأ الصحيح ، ويكشف عن هذه المخالفات المرة بعد المرة لوزير الصحة فى عهد هذه الحكومة، ولاتحرك وزارة الصحة ساكنا رغما عن استعجالها • لم يسع الرجل ـ وهو

رئيس الديوان السابق ــ أمام هذا وهو يعد تقريره السنوى ، الا أن يورد فى تقريره العبارة الآتية ٠٠٠

وهنا جرت المناقشة بين الاستاذ فؤاد سراج الدين وزير الداخلية وبعض الشيوخ عن كيفية الاستناد الى عبـارة يلقيهـا مصطفى مرعى نقلا عن شخص آخر

مصطفى مرعى : ان رئيس ديوان المحاسبة كتبها فى مشروع تقريره ، وأرسلت الى المطبعة لطبعها ٠ وفعلا طبعت البروفة ٠

ابراهيم مدكور : لقد رأيت البروفة بنفسى وفيها هذا الذى سيقرأ الآن ٠

احمد ابو الفتوح : لاول مرة فى التاريخ ٠ أسمع أن حضرات الاعضاء يذهبون الى المطبعة ليطلعوا على البروفات ٠

مصطفى مرعى : أورد رئيس الديوان العبارات التالية : « تبين أن هناك مبلغ ٥ آلاف جنيه بموجب الشيك ٠٠ وقيد على أنه مضروف لشخص معين على أنه بروباجندا ٠٠ وقد استرعى نظر الديوان حين فحص هذا الموضوع أنه لم يكن هناك ضمن مستندات الصرف أى مستند خاص بمفرادت هذا المبلغ ، ولا بالاوجه التى أنفق فيها ، فضلا عن عدم الحصول على موافقة مجلس الادارة على هذا الاجراء ، خلافا لما تقضى به أحكام اللائحة الداخلية من وجوب عرض كل مصروف يزيد على ٣٠٠ جنيه ، كما استرعى النظر من ناحية أخرى ضخامة هذا المبلغ بالقياس الى أعمال الدعاية التى قيل بانفاقه فيها »٠

فؤاد سراج الدين : انى أعترض على هذا النحو الذى تتجه فيه المناقشة ٠ ونحن هنا لسنا بصدد سماع «حواديت» ٠ وانما نحن بصدد استجواب ٠ والاستجواب هو اتهام موجه الى الحكومة عن تصرفات بدت منها ٠ أما هذا الكلام فمجال المناقشة فيه عند عرض

تقرير الديوان ، كما انه لا يجوز اتهام رجل لا يملك الدفاع عن نفسه • يجب ان ينحصر الكلام فى الاستجواب •

مصطفى مرعى : ان فى المسألة مخالفات أخطر من تلك التى سجلها ديوان المحاسبة — ذلك ان هذا الانسان الذى استولى على هذا المبلغ ليس انسانا عاديا ، فهو موظف يشغل وظيفة كبرى ، وقد لا يلزم — اذ ماقلت انه موظف — أن يكون موظفا فى الحكومة ، اذ هو موظف فيما هو شبيه بالحكومة •

الرئيس : المبلغ الذى صرف وقيــل انه أنفق فى الدعاية وكيت وكيت ، هل تبين عندما سئلت وزارة الصحة بشأنه ، انه أنفق أم لا •

مصطفى مرعى : هذه هى الصفة الاولى التى تتبينون منها خطورة الفعلة ونجعل منها أمرا غير عادى ، لان هــذا الشخص مستشار الإذاعة ، وانه ممن تشرفوا بالالتحاق بخدمة ديوان جلالة الملك لانه مستشار صحفى ، وقد يكون وقت أخذه المبلغ لم يكن قد حظى بهذا الشرف • ولكن وقد تبين على أبسط الفروض أن هناك شــبهة على هذه اليد التى حظى صاحبها بهذا الشرف ، فقد كان حقا على الحكومة بحكم الولاء للجالس على العرش ذاته ألا تسكت وهنا محل الكلام فى مسئولية الحكومة • أنا لست عابثا ولا هازلا • فشخصية الرجل وصفته اذ التحق بهذا الركب الكريم ما كانتا تجيزان ابدا للحكومة أن تسكت • ومادامت هناك شبهة ، فمن الخير فى انسان هذا شأنه، أن يحقق معه ، وأن تهتم الجهة الحكومية ، المختصة بهذا الامر ، وأن تبحث لترى الرأى الحق، حتى اذا ما بان أن الرجل برىء منها نصمت، وهو خليق أن يحظى حيث هو بمكان الشرف • أما ان كان العكس فواجب الولاء للجالس على العرش نفسه وواجب الولاء للبلد التى تطمع فى ان ترى قوانينها تسود الكافة لا تسود فردا دون فرد ، أن تتبين الامر • وهذا هو ما أنعاه على الحكومة •

ومضى **مصطفى مرعي** فى كلامه فقال : قد قررت الحكومة فى نوفمبر ١٩٤٧ ، أن تعين هذا المستشفى بمبلغ ٥٠ ألف جنيه · فاذا كان ماكتب فى دفتر الصرف فى هذا المستشفى مع أن المبلغ مقابل بروباجندا ينفسح الشك — حول اعانة الحكومة ··

وبقيت الاعانات الاخرى ، فخيار الناس فى الاسكندرية وغيرها دفعوا تبرعات يمكن أن يقال عنها اعانات ، فتكون قبيحه أيضـــا ، وينفتح جرح دام ، فالرجل الطيب الخير الذى يذهب اليه متوسلين أن يدفع مبلغ كذا اعانة ، يموت الخير فى قلبه يوم يعرف اننا مأجورون ·

فالخير لهذا المستشفى — لو ان فيه من يرعى الله والحق — الا يكتب ولا يقال ان من يستدرون عطف الخيرين يكونون مأجورين على ذلك لان هذا فضلا عن كونه عارا ، فهو يمنع الخيرين من فعل الخير ·

هذه هى الخيانة الخطيرة ·

لا أؤاخذ الحكومة على أساس القطع والتأكيد ، ولكن أقول أن الشك باد ، وباد فى أقوى صورة · مخالفات ومخالفات خطيرة تتصل بشخص له الآن مركز خطير فى هذا البلد ·

فؤاد سراج الدين : هل هذا كلام يجوز أن يقال !

***

ومضى الاستاذ **مصطفى مرعي** يقول انه اتجه الى رئيس الديوان الحالى يسأله اذا كان يعرف شيئا عن تقرير الرئيس المستقيل · ولكنه بخل بالرد · فاذا كان ماسمعته صحيحا من أن مجلس ادارة مستشفى المواساة اجتمع بعد الاستجواب ليقرر ان هذا المبلغ قليل بالنسبة للجهد الذى بذل ، فيا حضرات الشيوخ يلزمنا هنا ان نصارحهم بأن التصفيق للجريمة لا ينفى كونها جريمة ، وان الاعجاب بالمجرم يؤثم المعجب ولا يبرىء المجرم ·

وانتقل المستجوب الى المسألة الاخرى التى قال عنها انهـا هى أخطر المسائل عنده وعند البلاد : مسألة نفقات حملة فلسطين .

وتحدث عن لجنة احتياجات القوات المسلحة التى شكلت فى هذا الوقت والتى كان لها سلطة مطلقة في ان تشترى ماتشاء . وكيف ان لجنة الاختبارات كشفت عن الذخائر الغير صالحة ، والتى قيل انها مستوردة من ايطاليا وكانت بالفعل من ذخائر مخلفـــات الجيش الامريكى غير الصالحة للاستعمال .

واستشهد بأقوال وكيل وزارة الحربية ورياسة الامدادات فى الجيش عن عدم صلاحية هذه الاسلحة .

وان الذى قالته لجنة احتياجات القوات المسلحة وهى الدكتاتور ، تقول : ان ثمن هذه الصفقة يعتبر رخيصا جدا ولو انه صالح للتدريب فقط . هذا ما تقوله اللجنة وأمامها تقرير لجنة الامدادات وجواب وكيل الوزارة .

ثم قال ان ديوان المحاسبة أرسل تقريرا وافيا عن تعاقد عبد وانه لم يكن هناك أى صدى لهذا التقرير فى وزارة الحربية .

ثم قال انه جاء فى كتاب لسلاح المهمات : « ان جهودنا التى يجب بذلها لاعمال حفظ وصيانة الذخيرة الصالحة والخاصة بالجيش تصرف فى سبيل تلك الذخيرة التالفة التى ترد تباعا الى المخازن ، ما نكاد نفرغ من رسالة حتى تلاحقنا رسالة أخرى حتى أننا لنخشى أن تكون هذه ظاهرة خطرة قد تكون مدبرة ، لتعطيل أعمال الذخيرة بالجيش ، واضاعة مجهودنا هباء منثورا . »

كما ان ديوان المحاسبة أرسل تقريرا آخر الى وزير الحربية ..
ومضى الاستاذ مرعى يقول : يمكننا بعد هذا أن نفهم من غير تعليق أن هذه أمور يشيب من هولها الوليد . نحن الآن فى حالة حرب

قانونا ، فكيف نسكت على أن يقدم لرجال الجيش الذين يقاتلون ذخيرة عفنه ، ويعلم ذلك المسئولون منا ، حتى ليبدو ان هناك مؤامرة مدبرة لتعطيل جهودنا الحربية ٠ »

ان كنتم تريدون لهذا البلد جيشا ، فقوام الجيش الثقة ، بمعنى أن يثق الجيش بعضه ببعض ٠ فاذا كان هذا على مايبدو واضحا جليا أن بعض رجال الجيش يعتقد أن البعض الآخر يتآمر عليه او يبيعه للموردين فلماذا سكتنا على هذا المصير ٠

حدثونى بربكم ، أيمكنكم أن تتصوروا أن تبلغ الحالة سوءا أكثر من هذا ؟ أيمكن أن يهتز قوام البلاد لسبب أكثر من هذا السبب ؟

اننى أرى فاجعة تتجمع فى الافق ٠ وأرى أن القالة قد انتشرت فى الداخل والخارج **وان الحكم قد فسد وان تجارة النفوذ قد راجت** ٠ وهذه أغراض هذا الفساد نراها فى ناحية هى أخطر النواحى ،قدمها رئيس ديوان المحاسبة السابق

٠٠ وفى وسط هذا الغبار الذى كاد يخنقنا منذ انتهت الحرب فعلا ، أقول كاد يخنقنا الغبار الذى ملأ علينا الجو بتلك الصفقات التى اغتنمها قناصو الربح الحرام ، وأخذوا من مال البلد ما أخذوا — فى وسط هذا الغبار يقع حريق فى القلعة ، هذا الحريق ليس قضاء ولا قدرا وانما هو مفتعل ٠

٠٠ فالخطر أكاد أراه وقد حان الوقت لكى نتيقظ وأن نتدبر لبلدنا ٠٠

وفى جلسة ٣٠ مايو عاد المجلس الى الاجتماع ، وأعلن فى بداية الجلسة أن المستجوب قد منح أجازة !!٠٠ ووقف الاستاذ فؤاد سراج الدين وزير الداخلية والمتحدث باسم الحكومة فألقى كلمته المشهورة والتى قال فيها ان منبر المجلس قد اهتز اهتزازا عنيفا لفرط ماخولفت تقاليد المجلس !!

فماذا قال وزير الداخلية :

وزير الداخلية فؤاد سراج الدين :

ان الاستجواب فى ظاهره اتهام للحكومة على أخطاء لم تجنها ولم تقع فى عهدها ان صحت ، وفى حقيقته حملة من التشهير على قوم وصفهم المستجوب بأن الاقدار شاءت أن يكون لهم مركز خطير فى هذا البلد • ولقد اعترض من اعترض ، وقاطع من قاطع • وصفق من صفق • **ولكن شيئا واحدا أحسست به وانا فى مقعدى : وهو ان هذا المنبر قد اهتز اهتزازا عنيفا لفرط ما خولفت تقاليد هـــذا المجلس •**

لقد بنى الاستجواب على مجرد ظنون وتخمينات ، بل على مجرد حكم على النوايا والضمائر

••• هذه التصرفات لم تجر فى عهد الحكومة الحاضرة ، بل جرت فى عهد الحكومات السابقة منذ سنة ١٩٤٥ الى أول عهد هذه الحكومة بمقاليد الحكم ، فهذه الحكومة ليست مسئولة عن هذه التصرفات

ثم قال ان عدد ملاحظات ديوان المحاسبة بلغت ستة آلاف ، ولم يرد للديوان ردا الى اليوم • ومع هذا فان كل الذى اختاره المستجوب من بين هذه الآن هى أربع مسائل بالذات لتكون محل استجوابه ؟

فما باله ترك هذه الالوف المؤلفة من الملاحظات ، ولم يعلق على واحدة منها ؟ انه لا يعلق ، لانه يقصد شخصا معينا ، فهو القصد وهو الهدف •

كل هذه المخالفات ليست لها قيمة فى نظر الشيخ المحترم وانما الملاحظات الثلاثة فى وزارة الحربية والملاحظة فى وزارة الصحة هى كل نظام الحكم فى مصر وهى دليل الفوضى والفساد

ـ أن صحت هذه المآخذ والتهم ، فهى وصمة فى جبين الحكومات

السابقة التي ارتكبت فى عهدها ، تحاسب عليها وتسأل عنها ، هذه الحكومة الحاضرة هي آخر حكومة يمكن أن تؤآخذعلى هذا ، وأن يوجه اليها استجواب عن هذه المخازى ان صحت ٠

وبعد ان تحدث الوزير عن اخلاء مسئولية وزارة الصحة من مسألة المستشفى قال : ان موقف وزارة الصحة موقف سليم لا غبار عليه ، وليس محل مسئولية مطلقا أيا كانت الصور التى تكون عليها هذه المسئولية ٠ ولكنها الرغبة فى التشهير والتجريح هى التى دفعته الى تجاهل هذه القواعد الاولية فى الاستجواب واقحام الحكومة اقحاما حتى يمكن أن يقدم استجوابا ويمكن ان تثار هذه الحملة الطائشة ٠

ثم جرت المناقشة حول حرب فلسطين ٠٠ فقال فؤاد سراج الدين ٠٠ لقد كانت هناك خطورة وقت حرب فلسطين ٠ وكنا عرضة بعد ذلك للخطر فى أى لحظة ٠

وقال : افرضوا ان متعهدا نصابا قام بتوريد أسلحة وذخائر ليست صالحة فلم يقبلها الموظفون أو الضباط ٠ افرضوا هذا ، فما ذنبهم حتى يحقق معهم ؟ ان الضجة التى أثيرت حول أبى رجيلة ليست زوبعة فى فنجان ٠

عبد الجليل أبو سمرة ــ هذه الاتهامات من حقه ، لانها لم تحقق بعد ٠ **وكلنا يشعر أن فى حملة فلسطين سرقات وفضائح كبرى لم** تحقق ٠ فيجب تشكيل لجنة برلمانية للتحقيق فيها

ابراهيم مدكور ــ نحن نريد الاصلاح ونريد التقويم ، ولا نريد سجالا ولا عتابا ولا لوما ولا نقدا ، بل نريد الاصلاح الحقيقى فى المسائل المالية والإدارة فى ذاتها ٠

لهذا أرجو أن تتفقوا معى وهنا وزير الداخلية ، ان هذا الاستجواب سواء فى اثارته أو عرضه ، ليس فيه محل لايقاع أو تشهير ٠ فبمن

نشهر ؟ انشهر بالحكومة ؟ أو بالنظم المصرية ؟ أو بعملياتنا المختلفة؟ أننا عندما نتكلم لا يدفعنا الا الصالح اليوم ٠

فاذا أريد أن تنصب مراقبته على أفراد معينين ، وعلى عدد معين وأن ديوان المحاسبة أنشىء على أساس ان المصريين أمام القـــانون سواء ترسم لهذه الرقابة حدود ، لم يبق لهذه الرقابة ولا للبرلمان،وبالتالى لا معنى لهذا الديوان ٠

يكفى ان يظن الناس ان الرقابة لا تمتد الى كل الاشخاص فيكون فى هذا القضاء على النظام والرقابة والمسئولية بل والدستور ٠

فهذا الذى يحدث هو الذى جعلنا نعيش فى جو نسمع فيه عن فساد الاداة الحكومية وعن سمعة الحكم وعن استغلال النفوذ ٠ اذن فالعلاج الاول هو تنفيذ الرقابة على وجهها الصحيح ٠

هل يقول أحد أن جمع مبلغ ٦١٫٠٠٠ جنيه من بنك مصر وعبود وكوتسكا يستحق عليه أجر دعاية ٥ آلاف جنيه ؟!

هل مما يتفق مع ذوقنا وتقاليدنا المصرية أن يجمع شخص ما مبلغا لانشاء مسجد ثم يدفع ثمن قهوة الضيوف مما جمعه من تبرعات لانشاء ذلك المسجد ؟،

ثم تكلم عن وقائع حرب فلسطين فقال : الامر يحتاج إلى تحقيق وهذا التحقيق لا بد منه ٠ للمستقبل أولا ، ولا بد منه للحاضر ثانيا ٠ فهو ضرورى للمستقبل لأننا نريد جيشا وجيشا قويايستفيد من تجارب الماضى

فريد أبوشادى : أليس من الخير والصالح العام — الى أن يبدأ التحقيق — تنحية هؤلاء ولا أقول ايقافهم أو ايداعهم السجن بلأقول تنحيتهم عن مراكزهم توطئة لاجراء التحقيق ٠

ولكن نحن نتكلم هنا ورجل الشارع يتكلم فى الخارج ، ويبقى

اللصوص هم اللصوص والسارقون هم السارقون والهيمنون هم المهيمنون .

ولهذا اذا استمر هؤلاء النـــاس فى مراكزهم ، فكيف يمكننـــا أن نجرى هذا التحقيق وهم المتسلطون على أعمال الجيش ومن الذى يجرؤ أن يشهر عليهم وأن يوجه اليهم أى لوم ؟

احمد عبد الغفار : اننى أريد بهذا الاستجواب أن نبعد عن مصر مثل هذه الصغائر التى تلوكها الالسن . فليست قيمة الاستجواب فى وقائعه المادية مثل ٥ آلاف جنيه أو مليون للذخيرة التالفة ، **بل قيمة الاستجواب فى ناحيته الادبية ، اذ انحطت الاخلاق فى البلاد** من هذه الناحية

اننا ننظر الى هذا الاستجواب من ناحية أثره على الرأى العام . فمثل هذه الأعمال لها خطرها ولها أسوأ الأثر فى النفوس . لقـــد سمعنا أن وزير الداخلية يعد مشروعا بالمشبوهين السياسيين لمكافحة الشيوعية فى البلد،وأحب أن أوجه نظر الوزير الى أن مثل هذه الاعمال تســـاعد على نشر الشيوعية والمبادىء الهـدامة بين طبقات الشعب المختلفة .

لقد بدأنا حياتنا النيابية بروح غير تلك الروح التى تســـودنا اليوم . ولو قدم هذا الاستجواب فى ١٩٢٤ لما قوبل بمثل ما قوبل به الآن ..

انى أصارحكم بأنه اذا لم يتخذ اجراء حازم سريع لقطع دابر مثل هذه الفضائح ، فقولوا على الحياة النيابية العفاء .

***

وفى جلسة ٥ يونيو .. وكانت عاصفة غضب القصر توشك أن تهب على « كيان المجلس » .. تكلم الدكتور محمد حسين هيكل رئيس المجلس فقال ردا على الملاحظة التى أبداها الأستاذ فؤاد سراج الدين فى جلسة ٣٠ مايو . قال الدكتور هيكل :

انى لحفيظ على الدستور ، واللائحة الداخلية ، وحرية الرأى فى هذا المجلس • ليس من شأن الجالس على هذا الكرسى أن يتولى الرد على ما ينشر فى الصحف من مهاترات •

وأؤكد ان هذا الكرسى ، الذى جلست عليه للسنة السادسة ثابت ثبوت الطود ، فالجالس عليه يؤدى واجبه فى كل الظروف وفى حدود الدستور واللائحة الداخلية وتقاليد المجلس •

وانتهى الاستجواب الى ما انتهى اليه •• ولكن الملك ، ومن ورائه حاشيته ، وكذلك حكومة الوفد ، بادر فاتخذ خطوة جريئة هدمت كل كيان دستورى ، وذلك باخراج شيوخ من المجلس على أساس خاطىء ، ليس هذا المجال مجال ذكره ، فلم يكن الخطأ الوحيد ، الذى لوث سمعة الحياة النيابية ، وجعل البرلمان المصرى تحت سيطرة الملك والحكومة •• أو بمعنى آخر أصبح الأمل فى قيام حياة نيابية صحيحة وفى مثل هذه الظروف أمرا مستحيلا !!

وصدرت فى ١٧ يونيو ثلاثة مراسيم واول هذه المراسيم يقضى بزوال العضوية عن جميع الاعضاء الذين عينوا فى عهد وزارة حسين سرى بمناسبة التجديد النصفى عام ١٩٤١ وبهذا المرسوم طرد من المجلس من اراد الملك طردهم •

وكان هذا الاستجواب فاتحة اعتداء دستورى جديد ، عصف برئيس المجلس وبعدد كبير من الاعضاء ، أخرجوا من المجلس لتحل محلهم مجموعة من الذين ينطقون كلما أريد منهم التأييد « موافقون •• موافقون » •

فى تلك الليلة ، ليلة الاستجواب ، جلس فاروق فى « الأوبرج » يتلقى أنباء المعركة دقيقة بدقيقة ، وخرج عما بقى من وقار الملك ليظهر أمام الناس ، عامة الناس ، أن المعركة معركته ، وأنه انتصر

فيها ، واستعمل فى ذلك من الألفاظ ما لا يليق الا بالمجانين ، وقد كان فاروق فعلا قريبا من المجانين ، فكان يفقد عقله وتفكيره بتأثير المحيطين به ، والطريقة التى يصورون بها الأحداث على أنها موجهة ضد شخصه ..

***

وفى خلال حكم النحاس أيضا بدأ التحقيق فى صفقات الأسلحة الفاسدة ، وحاول زعيم الأغلبية أن يلعب دورا مزدوجا ، فكان يتظاهر للمحققين بأنه يسندهم ويدفعهم الى احترام العدالة ، ويتظاهر للملك بأنه يحاول أن يبعد الشبهة عن رجاله وحاشيته ، ولولا أن الشخصية التى تولت التحقيق فى هذه القضية كانت شخصية ضعيفة لا تليق بتولى مركز « النائب العام » ولولا شهوات « المحقق » الخاصة وحرصه على أن يصل الى المرتب الكبير والرتبة الكبيرة .. لولا هذا كله ، لأمكن لهذه القضية أن تكون قضية سياسية كبرى، ولكان فى امكان النائب العام أن يؤدب الملك تأديبا غير مباشر ، ولو كان النحاس يريد أن يلعب دوره السياسى بمهارة لسحب القضية من هذا المحقق وعهد بها الى هيئة قضائية تتفرغ لها تفرغا تاما .

ان قضية الأسلحة الفاسدة ، وما أحيط بها من مهازل ومحاولات رسمية لتهريب المجرمين وحرص النحاس على اطاعة أمر مولاه وهما — النحاس والملك — يلهوان فى أوروبا .. كل ذلك كان حديث الناس فى ذلك العهد .. وقد تعرضت محكمة الثورة لهذا الموضوع تعرضا وافيا ، فهو لا يحتاج بعد الى مزيد من الشرح أو التفصيل ، ذلك لأن خطوط المؤامرات التى أحاطت بهذه القضية كانت واضحة وضوحا يغنى عن كل شرح أو تعليق .

على انه انصافا للتاريخ فانه يجب ان نسجل ان المعارضة واجهت الملك مواجهة جريئة اذ بادرت فارسلت اليه فى ١٨ اكتوبر عام ١٩٥١

عريضة كانوا فيها على جانب كبير من الشجاعه . وقد جاء فى هـــذه العريضة التاريخيــة .

يا صاحب الجلالة

« ان البلاد لتذكر لكم أياما سعيدة كنتم فيها الراعى الصالح والرشيد ، وكانت تحف بكم أمة تلاقت عند عرشـــكم وآمالها ، والتفت حول شخصكم قلوبها ، فما واتتها فرصة الا دلت فيها على الولاء والوفاء ، وما العهد ببعيد بحادث القصاصين ، وقد أنقذكم الله وهو أرحم الراحمين .

« واليوم تجتاز البلاد مرحلة قد تكون من أدق مراحل تاريخهــا الحديث ، ومن أسف أنها كلما اتجهت الى العرش فى محنتها ، حيل بينه وبينها لا لسبب الا لأن الأقدار قد أفسحت مكانا فى الحاشية الملكية لأشخاص لايستحقون هذا الشرف فأساءوا النصح وأساءوا التصرف ، بل ان منهم من حامت حول تصرفاته ظلال كثيفة من الشكوك والشبهات هى الآن مدار التحقيق الجنائى الخاص بمصلحة جيشنا الباسل ، حتى ساد الاعتقاد بين الناس أن يد العـــدالة ستقصر حتما عن تناولهم بحكم مراكزهم ، كما ساد الاعتقـاد من قبل أن الحكم لم يعد للدستور ، وان النظام النيابى قد أضحى حبرا على ورق ، منذ أن عصفت العواصف بمجلس الشيوخ فصـــدرت مراسيم يونية سنة ١٩٥٠ التى قضت على حرية الرأى فيه وزيفت مجلس نوابنا .

« ومن المحزن انه قد ترددت على الألسن والأقلام داخل البلاد وخارجها أنباء هذه المساوىء وغيرها من الشائعات الذائعات ، التى لا تتفق مع كرامة البلاد ، حتى أصبحت سمعة الحكم المصرى مضغة فى الافواه ، وأمست صحافة العالم تصورنا فى صورة شعب مهين، ينسام الضيم فيسكت عليه ، بل ولا يتنبه اليه ، ويساق كما تساق

الانعام ، والله يعلم أن الصدور منطوية على غضب تغلى مراجله وما يمسكها الا بقية من أمل يعتصم به الصابرون ٠

يا صاحب الجلالة

« لقد كان حقا على حكومتكم أن تصارحكم بهذه الحقائق ، ولكنها درجت في أكثر من مناسبة على التخلص من مسئوليتها الوزارية ، بدعوى « التوجيهات الملكية » وهو ما يخالف روح الدستور ، وصدق الشعور ، ولو أنها فطنت لأدركت أن الملك الدستورى يملك ولا يحكم ٠ كما أنها توهمت أن في رضاء الحاشية ضمانا لبقائها فى الحكم ٠ وسترا لما افتضح من تصرفاتها ٠ وما انغمست فيه من سيئاتها ـ وهى هى لا تزال أشد حرصا على البقاء فى الحكم وعلى مغانمه منها على نزاهته ـ ولهذا لم نر بدا من أن ننهض بهذا الواجب فنصارحكم بتلك الحقائق ابتغاء وجه الله والوطن ، لا ابتغاء حكم ولا سلطان وبرا بالقسم الذى أديناه أن نكون مخلصين للوطن والملك والدستور وقوانين البلاد ، وما الاخلاص لهذه الشعائر السامية الا اخلاص الاحرار الذى يوجب علينا التقدم بالنصيحة كلما اقتضاها الحال ٠

يا صاحب الجلالة

« أن احتمال الشعب مهما يطل فهو لابد منته الى حد ، اننا لنخشى أن تقوم فى البلاد فتنة لا تصيبن الذين ظلموا وحدهم ، بل تتعرض فيها البلاد الى افلاس مالى وسياسى وخلقى ، فتنتشر فيها المذاهب الهدامة ، بعد أن مهدت لها آفة استغلال الحكم أسوأ تمهيد ٠٠٠

« لهذا كله ، نرجو مخلصين أن تصحح الاوضاع الدستورية تصحيحا شاملا ، وعاجلا ، فترد الامور الى نصابها ، وتعالج المساوىء التى تعانيها مصر على أساس وطيد من احترام الدستور ، وطهارة

الحكم ، وسيادة القانون بعد استبعاد من أساءوا الى البلاد وسمعتها ومن غضوا من قدر مصر وهيبتها ، وفشلوا فشلا سحيقا فى استكمال حريتها ووحدتها ونهضتها ، حتى بلغ بهم الفشل أن زلزلوا قواعد حكمها وأمنها وأهدروا فوق آهدار اقتصادها القومى، فاستفحل الغلاء الى حد لم يسبق له مثيل ، وحرموا الفقير قوته اليومى .

« ولا ريب ، انه ما من سبيل الى اطمئنان أيه أمة لحاضرها ومستقبلها ، الا اذا اطمأنت لاستقامة حكمها ، فيسير الحاكمون جميعا فى طريق الامانة على اختلاف صورها ، متقين الله فى وطنهم ومتقين الوطن فى سرهم وعلنهم .

« والله جلت قدرته هو الكفيل بأن يكلأ الوطن برعايته ، فيسير شعب الوادى قدما الى غايته » .

١٨ اكتوبر سنة ١٩٥٠ — امضاءات

ابراهيم عبد الهادى . محمد حسين هيكل . مكرم عبيد . حافظ رمضان . عبد السلام الشاذلى . طه السباعى . مصطفى مرعى . عبد الرحمن الرافعى . ابراهيم دسوقى أباظه . احمد عبد الغفار . على عبد الرازق . رشوان محفوظ . حامد محمود . نجيب اسكندر . زكى ميخائيل بشارة . السيد سليم .

هذه هى العريضة . ومن المهازل التى يجب انتسجل ان الملك اصدر امره بقفل أبواب قصر عابدين فى ذلك اليوم لمنع المعارضة من تقديم العريضة فبادرالموقعون عليها بارسالها الى الملك بالبريد المسجل . ولنا أن نتساءل : ماذا كان موقف النحاس من هذه العريضه ؟ هل وجدها فرصة للتدخل وانقاذ لسمعة الحكم ؟

لقد اعتبرها النحاس « قلة ادب » من المعارضة لانها قدمت العريضه

على ورق وبخط غير لائقين « بالمقام السامى » وقال ان ماجاء بالعريضة (كلام معاد) ودافع عن رجال الحاشيـــه كما سبق التحقيق الذى كان جاريا وابعد التهمة عنهم · وقال النحاس فى بيانه ردا على هذه العريضة — التى لم يسمح بنشرها — ان الحكومة ازاء هذا الاجـرام من ناحيـة المعارضة لن تسكت بعد اليوم على هذا الاجرام السافر فى حق البلاد ·

الفصل العاشر

حريق القاهرة ...

على أن أهم المسائل كلها خلال حكم النحاس كانت مباحثاته مع الانجليز ، تلك المباحثات التى انتهت ، بعد لأى طويل ، الى الغاء المعاهدة ، والى الحركة التى قامت فى القنال ، ثم انتهت بحريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ .

وقد بدأت الاتصالات فى شهر مارس سنة ١٩٥٠ ، وفى الساعة العاشرة من صباح ٥ يونيو بدأت أول جلسة بين الدكتور محمد صلاح الدين ، وزير الخارجية ، والفيلد مارشال سليم ..

وبعد ساعة اجتمع المارشال سليم بالرئيس السابق مصطفى النحاس ..

وقد طالت هذه المباحثات ، وانتقلت من القاهرة الى نيويورك ، ومن نيويورك الى لندن ، ومنها الى القاهرة ، ومن القاهرة الى الاسكندرية ، وكانت كلها قائمة على الخطب الحماسية ، يلقيها وزير الخارجية فيطيل الكلام ، كأنه يريد أن تسجل له محاضر الجلسات مواقف وطنية ، فلم تجل فى خاطره فكرة الاختصار فى الكلام ومحاولة الوصول الى نتائج مشرفة .

ولم يكن هناك من دافع وطني واحد لاتمام هذه المباحثات .. فقد كان يمكن أن تنتهى الى القطع النهائى ، ولكن الحكومة النحاسية أطالت فيهـا ليتسع المجال لأنصارها ولأصهار الرئيس وأقاربه ، كي

يغترفوا من مال الدولة اغترافا تضاءل معه كل ما اغترفوه فى خلال الحكم من ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الى ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٤ .

وكان فاروق ومن معه ومن حوله ينافسون الوفديين فى الاغتراف وزيادة الثراء ، ولست أدرى حتى الآن ما هى الحكمة التى جعلت الملك يدخل فى أزمات مع الوزارة بسبب التصرفات التى تمس نزاهة الحكم ، فقد كان موقفه غريبا عجيبا ، ولم نسمع قبل ذلك أن لصا يثور لنزاهة الحكم وكرامته ، ولقد كنت أفهم أن يحدث هذا فى بداية حكمه أو فى خلال السنوات التى سبقت ٤ فبراير وبعده بقليل ولكننى لم أفهم لماذا يتمسك فاروق بأن يكون لقانون من أين لك هذا « رجعية » ويختلف مع الحكومة فى شأن هذه الرجعية ، ولم أفهم كذلك ان يثور فاروق لأن أسرة حرم مصطفى النحاس استولت على أراضى مريوط .. ولم يكن مفهوما أن يأتى فاروق بالدكتور حافظ عفيفى رئيسا للديوان الملكى ، ويتحدى بذلك الوزارة بأكملها .

هذه الحركات والتصرفات جميعا كانت بداية لنهاية أشهر العسل فقد أحست الحكومة أن فاروق يوشك أن يضرب ضربة من ضربات «الاقالة» وأن النهاية أصبحت محتومة ..

ومن ثم أخذ النحاس يبحث عن ضميره ووطنيته ، وبدأ يلبس لباس الرجل الوطنى المجاهد من جديد .. فأعد عدته لالغاء المعاهدة وأراد أن يفاجىء بذلك الملك ، حتى لا ينافس الوفد فى هذا الميدان ..

وأعدت المراسيم ، وأرسلت إلى السراى فى لحظة مفاجئة .. ولم يكن أمام السراى الا أن توقع .. فوقع الملك .

ووقف النحاس فى مجلس البرلمان يقول : من أجل مصر وقعت معاهدة سنة ١٩٣٦ ومن أجل مصر أعلن اليوم الغاءها ..

* * *

وهكذا تحول الموقف الداخلى من التنافس فى ميادين الرشـــوة والثراء والافساد ، الى تنافس فى الظهور بمظهر الوطنيـــة ، وكان الشعب تواقا الى التخلص من الاستعمار البريطانى ، مستعدا للبذل والتضحية والكفاح فى سبيل الفكرة الوطنية الخالصة ، واستغلت الحكومة النحاسية هذه العواطف النبيلة فى تغطية مساوئها ، فدفعت بالشعب من غير سابق استعداد الى أتون المعركة دون أن تضع فى حسابها بعد ذلك ما يكون ٠

ووقفت الصحافة كلها ، بما فيها المعارضة ، الى جانب الحكومة ، فأيدتها فى الغاء المعاهدة ، ثم جاءت المعركة الفعلية ، فاتجه الشباب الى القنال لمواجهة المستعمر وجها لوجه ، ورأت الوزارة المضى فى هذه المعـــركة ، وتظاهر فؤاد سراج الدين بأنه قائدها ، فأخـــذ يعقد المؤتمرات الصحفية اليومية فى مكتبه بوزارة الداخلية ، ليتحدث عن اعتداءات الانجليز واشتباك المصريين ٠

وكان العمال أول من خاض هذه المعركة ، فتركوا القاعدة مضحين بموارد رزقهم ورزق أولادهم استجابة لنداء الوطن ، وهنا وضح أن الاستعداد الحكومى كان مجرد أقـــوال يراد من ورائهـــا الكسب الرخيص ، واستغل النواب والشيوخ جهل الحكومة بعـــدد العمال الذين يعملون فى القاعدة العسكرية ، فراحوا يستقدمون العاطلين من دوائرهم الانتخابية ويقدمونهم لوزارة الشئون الاجتماعية ، على أنهم من عمال القنـــال ، وأنهم يستحقون التعيين فى الوظائف التى أنشأتها الوزارة لمساعدة هؤلاء العمال ، وبين يوم وليلة وقعت الوزارة فى أول خطأ نتيجة لعدم الاستعداد واتضح أن عـــدد العمال الذين سجلوا أسماءهم ، بوصفهم من عمال القنال ، واستحقوا على هـــذا الاعتبار التعيين ، بلغ ضعف العدد الحقيقى ٠

★ ★ ★

ولم يقف هذا الاستغلال الدنيء من جانب النواب والشيوخ عند هذا الحد ، بل راح بعضهم يتهرب من القيود التى حاولت الحكومة فرضها على تموين جنود القاعدة بالأغذية والخضر واللحوم ، وانتهزوا هذه الفرصة للثراء الحقير على حساب الوطن فأخذوا يمدون جنود القاعدة بالأغذية ، ويساعدون على تموين القوات المحتلة ، بكل ما تحتاج من لحوم وخضر وفاكهة ٠

ثم وقعت الكارثة ، وقطع الانجليز تموين مدن القطر بمستخرجات البترول ، وهددت العاصمة وغيرها من بلاد القطر بأن تعيش فى الظلام . وبلا نور ، ولا صحف ، ولا تصريف للمجارى ٠٠ وعندئذ استدعى الملك سفير أمريكا فى مصر ، وألح عليه أن يتدخل لانقاذ الموقف ٠٠

بل الأدهى من هذا كله أن الشباب الذى ذهب بدافع من وطنه الى القنال ، ذهب مخدوعا من الحاكمين ، فقد خدعوا الشبان حين وعدوهم بتسليحهم وامدادهم بكل معونة تساعدهم على مواصلة معركة الارهاب ، ثم اتضح أن الحكومة كانت مقصرة فى هذه الناحية تقصيرا متعمدا ٠

وأرسل فؤاد سراج الدين ، وزير الداخلية ، قوات ضخمة من بلوكات النظام المسلحين بالبنادق ، وأمرهم أن يواجهوا جيوش الاحتلال ٠٠ المجهزة بالدبابات والطائرات وأحدث الأسلحة المدمرة ٠٠

ووقعت الكارثة يوم ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢ عندما أمر سراج الدين بأن يقاوم هؤلاء الجنود انذارا بريطانيا محدد الميعاد ، وقال ضباط القوة البوليسية انهم لا يستطيعون المقاومة ، فأمر سراج الدين بأن يقاوموا الى آخر جندى وليكن ما يكون ، ولم يشأ سراج الدين مراقبة

سير المعركة ، بل قطع كل اتصال بينه وبين محافظة القنال وجلس في داره ينتظر النتائج .

وكانت النتيجة المـــرة ، فقتل من قتل وأسر من أسر ، ثم كانت أحداث ٢٦ يناير في القاهرة .

وقبل أن ندخل في تفاصيل ذلك اليوم التاريخي ، وما تلاه من أحداث جسام انتهت بقيام عهد جديد في مصر ، أحب أن أســـجل لهؤلاء الأبطال الذين قتلوا في المعركة اعجاب العالم ببسالتهم ، فقد قوبلت هذه المقاومة والوقوف في وجه قوات الاحتـــلال الانجليزية باعجاب هز العالم كله ، وقد قال الوفديون ، في معرض الدفاع عن تصرفاتهم ان هذا الاعجاب العالمي كاد يحقق لمصر النصر الأكبر لولا الأحداث التي وقعت يوم ٢٦ ينـــاير سنة ١٩٥٢ ولولا الاقالة التي جاءت سريعة وعلى غير انتظار .

وهذا كلام كان يراد به ايهام الناس أن تصرفاتهم كانت سـليمة لا غبار عليها .

ولنفرض أنه لم يقع أي حادث في يوم ٢٦ يناير ، وأن الوزارة ظلت قائمة في الحكم ، فماذا كان يمكن أن يكون عليه الحال في الايام ولا أقول الأسابيع ، التالية .. ؟

هل كانت الحكومة مستعدة لأن ترسل قوات أخرى من بلوكات النظام لتفنى عن آخرها ، ويظل الاعجاب العالمي قائما ، وتظل حركة المقـــاومة قائمة في القنـــال ، دون استعداد لمواجهة تطـــورات الأحداث .. ؟

هل كانت الحكومة على استعداد لأن تواجه ما كان يمكن أن تقوم به قوات الاحتلال من اجراءات تعسفية ، أولها قطـــع البترول عن العاصمة .. ؟

ثم ماذا كان استعداد الحكومة لمعاونة المصريين الذين يعيشون فى الدولة ٠٠ ؟

لقـــد اجتمعت الحكومة عقب وقوع أحـداث الاسماعيلية ، وظل اجتماعها قائما وقتا طويلا ، وقيل ان النية كانت متجهة الى قطـــع علاقاتها مع بريطانيا ، وانها كانت تنوى اتخاذ اجراءات ســياسية عنيفة ، ثم ما الذى تمخضت عنه هذه الاجتماعات ؟٠٠ تمخضت عن استدعاء السفير المصرى ، واغـلاق مكتب المشـــتريات المصرى فى لندن ٠٠٠

وفى وسط الاعجاب العالمى ببسالة جنود بلوكات النظام ، ضحكت شعوب العالم من هــــذه الاجراءات ٠٠ وضاع الكسب الكبير الذى كسبته مصر ٠٠ ولماذا ؟ ٠٠ لأن الحكومة عندما ألغت المعاهدة أرادت استغلال وطنية الشعب وشجاعته لتغطية مســـاوئها ، وهكذا كان عهدها كله يقوم على مبدأ واحد هو « الاستغلال » ٠

هذا الاستغلال هو الذى أدى الى حوادث ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، وأدى الى حريق القاهرة ، ولو أن الحكومة التى كانت قائمة بالحـكم فى ذلك الوقت قد نظمت كل وسيلة من وسائل المقاومة ، وبحثت الموقف بحثا قائما على الدراسة العميقة ، قبل أن تقدم على أى اجراء لما وقعت تلك الكوارث ، ولقام الاعجاب العالمى ببسالة المصريين على أســاس أنها مقــاومة مدروســـة يدفعها عزم أكيد على التخلص من الاستعمار الجاثم على صدر البلاد ٠

بل لو أن مصطفى النحاس فى عام ١٩٣٠ ، الذى كان يعـــرف معنى الكفاح ، والذى كان قد كرس حياته لخدمة أمته ، والذى كان ينام على أرصفة محطات السكك الحديدية ، نتيجة للاجراءات التعسفية التى اتخذتها حكومة صدقى ــ باشا ــ لمنع زياراته للأقاليم ، لو أن مصطفى النحاس الذى ألغى المعاهدة كان هو مصطفى النحاس الذى

عرفه الشعب ، لتغير الوضــع ، ولكانت مصر تنعم اليــــوم بنتائج تضحيات شبابها الذى دفع حياته ثمنا لاستقلال بلاده ، وذهب الى لقاء ربه وهو مؤمن بأن الذين كانوا يحكمون مصر سيسيرون بالمعركة حتى نهايتها ، وأن تضحياته لن تذهب هباء ٠٠

لم يكن هذا الشباب يعلم أن الاستغلال و « الاستقلال » أصبحا فى نظر حكام ذلك العهد كلمتين لا فارق بينهما الا فى حرف واحد ٠٠ ولكنه جعل من الزعماء لصوصا ، ومن الملوك عبيد شهوات ، ومن ممثلى الشعب تجارا يحترفون التمثيل ٠٠ !

باتت القاهرة ليلة ٢٥ يناير ، باتت مصر كلها ، وهى لا تدرى ماذا يخبىء لها القدر من أحداث ، وقضى عدد كبير من المسئولين عن الأمن العام تلك الليلة ساهرين ، يتلقون الأنباء ، وكانت هــــذه الأنباء تلقى ضــوءا ضعيفا على ما كان يجـــرى فى ثكنات بلوكات النظام بالعباسية ٠٠

* * *

كان الجنود قد أجمعوا الرأى على أن يقوموا بحركة احتجــاج على أحداث الاسماعيلية ، وعلى ما وقع لاخوانهم ، وما سيقع لهم اذا أصر وزير الداخلية على أن يبعث بمجموعات منهم الى الاسماعيلية لمواجهة قوات الاحتلال المجهزة بأحدث الأسلحة وأفتكها ٠

وقد وضح من كل ما حدث فى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ أن الرؤوس المسئولة عن الأمن العام كانت تنظر الى هذه التجمعات والى هذا التذمر بين الجنود نظرة سطحية ، كنظرتها الى معركة القنال ، ولو كانت تقدر خطورة النتائج المترتبة على مثل هــــذه التجمعات ، لاتخذت اجراءات تحول دون وقوع الاضطرابات ، وتمنع اجتمــاع جنود بلوكات النظام بطلبة الجامعــة ، وما أعقب ذلك من احــــراق القاهرة ، ثم اعلان الأحكام العرفية ٠

ولكن الحكومة كانت تعيش وقتئذ فى جو من الخيال ، ظنت أن هذه المظاهرات المحلية تفيدها فى موقفها ، وتعد علامة من علامات التأييد ولهذا تركت جنود بلوكات النظام يغادرون الثكنات فى العباسية ، ويمضون فى مظاهرة عسكرية الى الجيزة ، ثم تركت الجنود يجتمعون بالجامعة ، ويخطبون ، ثم تركتهم يغادرون الجيزة الى القاهرة ليلقى وزير الشئون الاجتماعية خطابا من شرفة رئاسة مجلس الوزراء ، ثم أفلت زمام الأمن ، وبدأت الأحداث تجرى بسرعة فائقة ، أين كان الملك فى ذلك الوقت ؟ .. كان قد جمع ضباط البوليس والجيش فى وليمة احتفالا بمولد ولى العهد .. !

وأين كان رئيس مجلس الوزراء فى ذلك الــوقت ؟ .. كان فى منزله لم يغادره الى مكتبه ليراقب هذه المعارك الطاحنة ، ويحــاول بوصفه زعيما للشعب تهدئة الحالة ، ولم يلزم داره فحسب ، بل لقد بعث برسله الرسميين الى عاملة المانيكير كى يسهلوا لها المرور فى أمان الى حيث كان ينتظرها لتقلم أظافر يديه وقدميه ..

وأين كان وزير الداخلية .. ؟

لم يذهب الى مكتبه الا فى ساعة متأخرة من النهــار ، وكان أول عمل له توقيع عقد شراء عمارة من عمارات القاهرة ، ثم بدأ بعد ذلك يراقب سير المعركة « المحلية » ..

لقد كان حــريق القاهرة دليلا عــلى أن الشعب وقع تحت تأثير عوامل نفسية شتى ، بعضها مثاره القلق مما كان يجرى فى ميدان السياسة ، والبعض نتيجة لتدخل عناصر هدامة ، رأت الفرصــة سانحة لتضرب ضربتها ، والبعض كان نتيجة الرغبة فى انتهــاز فرصة هذه الحرائق للسلب والنهب ، كل هذه العــوامل تجمعت واتحدت وأثارت الرعب فى القلوب ، وجعلت القاهرة تحت رحمــة

الحريق الذى استمر من بعد الظهر بقليل الى ساعة متأخرة من الليل عندما نزلت قوات الجيش فسيطرت على الموقف •

وما كادت الأحداث تهدأ قليلا ، ويطمئن المسئولون الى أن الجيش قد سيطر على الموقف ، حتى بادر رئيس الديوان الملكى فاتصل بالأستاذ أحمد نجيب الهلالى وطلب منه تشكيل وزارة تحل محل وزارة النحاس بعد أن تقرر اقالتها لفشلها فى اقرار الأمن ، ولكن الأستاذ الهلالى اعتذر عن عدم قبول تشكيل الوزارة ، وقال ان الأستاذ على ماهر هو رجل الموقف •

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ذهب الدكتور حافظ عفيفى رئيس الديوان الملكى الى الرئيس السابق على ماهر وكلفه بتشكيل الوزارة الجديدة •

بعد ٢٦ يناير :

وفى اللحظة التى كانت تشكل فيها الوزارة الجديدة كان مصطفى النحاس يتحدث الى الشعب بالراديو ، بوصفه الحاكم العسكرى ، وقد أعلن فى حديثه الأحكام العرفية ، وفرض نظام منع التجول فى العاصمة ، فأقفرت شوارعها وطرقاتها من الساعة السادسة مساء •

وهدأت العاصمة تحت نظام الحكم العسكرى •

وجلس مصطفى النحاس ومن معه فى تلك الليلة يفكرون ، ولعل تفكيره وتفكير من حوله كان فيما يكون عليه مستقبلهم التجارى فى ظل النظام العرفى ، فقد كانوا فى فترة الحرب العالمية الثانية يتخذون من هذا النظام ستارا ، يخفون به عن الشعب تصرفاتهم ، ووسائل استغلالهم للقوت الضرورى لكل فرد من أفراد هذا الشعب •

انى أجزم بأن السيدة زينب الوكيل لم تكن تفكر فى تلك الليلة الا فى أن النظام العرفى ، الذى جعل من زوجها حاكما عسكريا ،

سيقلل من ألسنة الصحف التى تكشف عن وسائل استغلالها ، بل انى لأجزم أيضا بأنها كانت وسط هذه الحرائق أسعد مخلوقات الله .. وأكبر الظن أن هذا الرجل ، الذى تولى الحكم عن طريق الشعب أكثر من مرة ، آوى الى فراشه وهو مطمئن الى أن أظافره قد لمعت جيدا وأن صحته لم تتعرض لأية هزة من الهزات التى يتعرض لها مسئول حى الضمير اذا تعرضت بلده لهذه الهزات التى تعرضت لها مصر فى خلال ٤٨ ساعة من تاريخها .

واستيقظت القاهرة فى اليوم التالى ، وقد فرض عليهـــا النظام العرفى ، وانصرف كل فرد الى عمله ، وفى نهـــار ذلك اليـــوم كان تشكيل الوزارة الجديدة موضوع مشاورات ومقابلات، بعد أن اعتذر الهلالى عن قبول هذه المهمة ، وربما لم يكن فى الأمر غرابة ، لو أن هذا العمل قام به رئيس الديوان وحده ، ولكن الغـــرابة أن رئيس الديوان بدأ مهمته وهو محاط بالحاشية القذرة ، فان ذلك لم يكن مفهـــوما لا من رئيس الديوان ولا من رئيس الوزراء الذى قبل أن يشكل الوزارة ، بل لم يكن مفهوما أن يبحث الدكتور على ماهر عن أفراد هذه الحاشية ويجعلهم رسله الى الملك .

لقد كان واجبا على رئيس الوزراء ، وهو يعلم الى اى حد طوحت الحاشية بكل معنى من معانى الحكم السليم ، أن يواجه الموقف مواجهة صريحة ، ويقول للملك : « مكانك ، يجب أن تطرد هـــذه البطانة القذرة ! » ، كان واجبا عـــلى رئيس الوزارة أن يشعر الشعب أن الموقف قد تغير ، وأن الجديد فى الموقف أن رئيس الحكومة لا يخضع لأى نفوذ أو سلطان من هؤلاء المفسدين .

ولكن يبدو أن رئيس الحكومة لم يكن يفكر الا في أن يكون رئيسا للحكومة ، فقـــد قبل تدخل هـــؤلاء الوسطاء ، وسعى الى بعضهم ليكونوا رسله عند الملك ، ثم وقعت الكارثة الكبرى عنـــدما ذهب الرئيس السابق على ماهر الى منزل مصطفى النحاس ليزوره الزيارة

التقليدية ، كما قال في محضر الدفاع عن نفسه فيما بعـــد ٠٠ ثم وقف على ماهر في مجلس النواب يقول عن مصطفى النحاس : «سلفى العظيم » ، وكأن مصطفى النحـاس لم يكن قد فعل شـــيئا يوجب محاكمته ، وكأن على ماهر شكل الوزارة فى ظروف عادية ٠٠ ولكنه ، كما قلت ، كان يريد أن يكون رئيسا للحكومة ، وأن يأخذ الأغلبية البرلمانية ، ويحكم بواسطتها ، ومن ثم قال عن مصطفى النحاس : « سلفي العظيم » ، ليظفر من النواب بالثقة والتصفيق ، وقد حصل عليهما فعلا ٠٠

واستأنف النفاق مهمته ، فخـرج مصطفى النحـــاس من منزله ليـــذهب الى عابدين ويوقع فى دفتر التشريفات ، رافعـا الى الملك أسمى آيات الولاء بمناســـبة طرده من الحكم ! هل كان هـــذا هو مصطفى النحاس الذى كان لا يخشى الا « ربه » ، وهل يعقل أن يقبل من مصطفى النحاس أن يذهب الى قصر عابدين ليقول للملك شكرا لأنك طردتنى من الحكم ؟ هل كان يمكن أن يفعل مصطفى النحاس شيئا من ذلك لو كان كما كان ، نظيفا طاهرا خاليا من المســـاوىء والعيوب ؟ أليس هذا دليلا على احساسه بأنه كان غارقا فى الوحل الى ذقنه ، ومن ثم أراد أن ينقذ رأسه ٠٠

هذا هو ما كان عليه الحال عقب أبشع الأحداث التى تعرضت لها مصر فى تاريخها الحـــديث ، فهل يلام فاروق عـلى أنه رفع حذاءه ليضرب به كل هؤلاء الزعماء ، ويضاعف جبروته ونفوذه ؟ ان طبيعة هذا الملك كانت كلها قد اتجهت الى الشر ، ولم يكن ثمة من يوقفه عند حده ، ومع هذا كان لا يزال يخاف من أن يواجه برجل يعـرف كيف يحافظ على حقوق الشعب ، وكان يخشى أن يطالبـــه مصطفى النحاس فى يناير سنة ١٩٥١ فى أول مقابلة لهما بعد الانتخابات بأن يعدل الدستور بالانتقاص من سلطاته ٠

أنا لا ألوم الملك السابق فى كل ما فعل ، وفى كل ما ارتكب من أخطاء، انما ألوم أولئك الساسة الذين جاءوا الى الحكم، وما كان منهم الا ان أحنوا رؤوسهم فى خشوع أمام الملك وقالوا : « لبيك » ..

وكانت سياسة على ماهر تقوم على أن يفـــاوض الانجليز ، وأن يجمع حوله الأمة ..

كيف كان يفكر هذا الرجل ؟ .. لست أدرى .. !

أين هى هذه الأمة التى أراد أن يجمعها حوله ؟ أهى أمة الملك ، أم أمة الوفد ، أم أمة الأحزاب الأخرى ، أم الأمة المصرية الحقيقية التى كانت تعيش فى حالة من القلق والاضطراب والخوف من عواقب الفساد ..

أين هى هذه الأمة التى أراد على ماهر أن يجمعها حــــوله ؟ ان الشعب كله كان يريد أن يقضى على الفساد فى أية صورة من صوره، فى القصر وفى الأحزاب وفى كل مكان ، وأن يجمع بعـد ذلك كل العناصر السليمة لتواجه الانجليز مواجهة عملية ، وأن نستفيد من الدرس الذى تلقيناه نتيجة لاهمال حكومة الوفد وزعماء الوفد ونواب الوفد وشيوخه .

ولكن على ماهر كان يعيش فى الخيال ، وكان يجهل حقيقة ما كان عليه الشعب من شعور ، فراح يتخبط ويمثل مسرحيات يومية ، الى أن قضى عليه بأن يخرج ، وأن يكون الملك هو الآمر بالخروج ، وبعد أسابيع معدودة من حكمه ..

هل يلام الملك لأنه أخرج على ماهر من الحكم ؟ .. أبدا ، ذلك لأن على ماهر أظهر أنه رجل ضعيف وكان حــــذاء الملك ما زال يحن الى الضرب ، فضرب وكانت الضربة فى رئيس الوزراء ..

ودعى الأستاذ أحمد نجيب الهلالى الى تولى الحكم ، وكان قد رفضه عقب حوادث ٢٦ يناير ، فقبل .

وفى اليـــوم الأول لتشكيل الوزارة ، حاول الرجل المخلص أن يكون شجاعا ، فنجح فى بعض مهمته وفشل فى البعض ، وكانت السراى تريد أن تفرض عليه أسماء معينة لدخول الوزارة فرفضها بعد مناقشات طويلة استغرقت ساعات ، ثم سحبت الاسماء وشكل الهلالى وزارته ، ولكنه نسى أهم شئ ، وهو أن يتمسك باخـــراج العناصر المفسدة من القصر قبل أن تشكل الوزارة ، أو مع مراسيم تشكيل الوزارة ، وهذا بالرغم من ان الهلالى جاء الى الحكم على أساس القيام بالتطهير كما سأبين فيما بعد .

وقد طلب منه بعض مريديه فى البداية أن يفعل ، وأن يصر على هذا ، ولكنه أراد أن يؤجل ذلك بعض الوقت ، كما فعل على ماهر فى البداية ، عندما طلب منه نفس هذا الطلب ، ولست أدرى كيف توقع الهلالى أن يحكم حكما نظيفا وهؤلاء السماسرة كانوا لا يزالون يملكون أذنى الملك ويملأونها فى الصباح والمساء بكل دقيقة من الدقائق ؟ ثم أليست هذه العناصر هى أسس الفساد ، وهى الشريكة فى كل ما ارتكبه وزراء الوفد من عيوب ومساوئ ؟ لقد كان على الهلالى اذا أراد أن يطهر وينظف تمهيدا لاقامة حكم سليم أن يمد يد التطهير الى هؤلاء يحاسبهم ، وبذلك تشعر الأمة أنه لم يأت الى الحكم لمجرد الحكم بل جاء لينقذها مما حاق بها ، ولكنه بدأ تطهيرا أعرج ركزه فى وزراء الوفد ، ولم يوجهه الى السراى ، وبذلك فقد الذين كانوا يعلقون عليه الآمال فى تطهير كامل ، وكل أمل فى الاصلاح وحكموا على وزارة الهلالى بالفشل ..

واستقال الهلالى بعد تشكيل وزارته بفترة غير طـــويلة ، وبنى استقالته على أن مؤامرة دبرت لاسقاطه وقد دفع ثمنها فى جنيف ، حيث اجتمع رجال السراى بالأستاذ أحمد عبود ، ومع ان هـــذه الرواية كذبت تكذيبا قاطعـــا ، الا أنى لن أبحث فيمـــا اذا كانت

صحيحة أم غير صحيحة ، فان نتائج هذا البحث مهما كانت لا تنفى وجود الفساد فى السراى ، فلقد كان الفساد قائما ، لا يحتاج الى دليل جديد ، وأنا أنظر الى المسألة من وجهة نظر الهلالى نفسه ، فقد استقال لأن غير الرسميين من رجال السراى قبضوا ثمن طرده من الحكم واسناد الحكم الى حسين سرى ، ومعنى هذا أنه اعترف بأن سياسته التى جاء بها الى الحكم « للتطهير » لم تكن سياسة ناجحة ، وأنه لا ينوى منذ البداية أن يواجه المفسدين جميعا لتغيير الوضع ، لأن النتيجة كانت أحد أمرين : اما أن يشكل الوزارة على هذا الأساس ، واما أن يترك مهمة الحكم لغيره .

ولكن يجب أن نعترف للأستاذ نجيب الهلالى بأنه عالج المشكلة السياسية الخارجية علاجا سليما قائما على التفكير السليم ، لقد نجح فى مشكلة السودان نجاحا يدل على الذكاء ، واستطاع أن يضع الأساس الذى قام عليه حل هذه المشكلة فيما بعد ..

وخرج الهلالى من الحكم ، ودعى حسين سرى لتشكيل الوزارة . ودامت المشاورات وقتا ، واشترك فيها غير المسئولين من رجال السراى .. ودعى الأستاذ كريم ثابت لدخول الوزارة

هذا هو تحليل موقف كل سياسى جاء الى الحكم ، أو دعى الى تأليف الوزارة ؟ . فما هو الدور الذى قام به كل من الملك والساسة على المسرح ، وخلف الكواليس ؟

الفصل الحادى عشر

وزارات . . ونهاية

ان الذى حدث انه فى فترة قصيرة ، وبين ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ ، ويوليو من نفس العام ، شهدت مصر حكومات متتالية ، كانت تأتى كل وزارة منها وتذهب ، ولا يعرف أحد لماذا جاءت ، ولماذا ذهبت ! كانت الفوضى قد ركبت الجـــواد وانطلقت فى كل مكان . وأصبح الشعب لا يعـــرف موقفه ، أو مكانه ، أو ماذا يفعل . بينمـــا كان الضباط الاحرار ، فى نفس الوقت يرسمون ، ويعدون عدتهم للضربة الكبرى متى حان وقتها !

فى مساء ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، وفى نفس اليوم الذى اشتعلت فيه النيران بمدينة القاهرة ، وفى الوقت الذى كان رئيس الحكومة مصطفى النحاس يعلن الاحكام العرفية ، استقل الدكتـــور حافظ عفيفى ، رئيس الديوان الملكى ، سيارته واتجه الى المعادى ، وأيقظ الأستاذ أحمد نجيب الهلالى من النوم وطلبه وكلفه ، بأمر ملكى ، بتشكيل الوزارة الجديدة ..

وكما عرفت فى الفصل السابق اعتذر الأستاذ الهلالى ، لا لأنه لم يشأ تحمل المسئوليات وانما لأنه لم يكن يريد أن يكون البادىء بالتطهير بين صفوف الوفديين وغير الوفديين ، كما انه لم يكن راغبا فى أن يتم حل البرلمان على يديه . ولهذا اقترح تكليف على ماهـــر بهذه المهمة الضخمة !

ورحب على ماهر بتشكيل الوزارة الجديدة ..

ومنذ الليلة الأولى بدأ الخلاف بين القصر وعلى ماهر ، حتى قبل صدور مراسيم تشكيل الوزارة ، بل لقد تأخر ارسال جواب اقالة الوزارة النحاسية الى وقت متأخر من الليل لهذا السبب ..

كان من رأى على ماهر الا يكون هناك « تطهير » لمساوئ الحكم السابق على أساس أن هذا التطهير سيمس الوفديين بطبيعة الحال ، وقد كان من رأيه التعاون مع كافة الأحزاب ومنها الوفد. ولما رفضت الأحزاب التعاون معه ألف وزارة مستقلة ، ولكنه كان مع هذا يأمل أن يظل الوفاق قائما بينه وبين الوفد ، ولهذا ذهب الى مصطفى النحاس وزاره فى منزله .. كما أطلق عليه اسم « سلفى العظيم » عندما وقف يواجه الأغلبية الوفدية فى مجلس النواب ..

وكان من بين أسباب الخلاف « الرئيسية » أيضا ان الملك طلب منذ اليوم الأول :

١ — تعيين اللواء أحمد طلعت ، رئيس البوليس السياسى فى وقت ما ، حكمدارا للعاصمة : فرفض على ماهر .

٢ — ادخال الأستاذ كريم ثابت الى الوزارة : فرفض على ماهر .

٣ — تعيين الأستاذ كامل القاويش نائبا عموميا : فرفض على ماهر .

ولم يكن من أسباب الخلاف بين الملك وعلى ماهر موضوع «التطهير» بقدر ما كانت الإسباب الرئيسية عدم قبول على ماهر للطلبات المقدمة من السراى ، فقد اعتبرها الملك ضربة موجهة اليه والى سلطانه الاكبر .. ولم يكن هناك بد من امضاء مراسيم الوزارة الماهرية .. فلم يكن هناك سواه ..

وقد بدأ التفكير فى ابدال على ماهر منذ اليوم الأول اذ كان رئيس الديوان الدكتور حافظ عفيفي حريصا على اجراء التطهير وعلى حل

البرلمان .. ومع ان الملك لم يكن يهمه مثل هذا الاجراء لأنه يعلم أن التطهير سيشمل رجال الحاشية ، الا انه وافق رئيس ديوانه عـــلى اجـــراء التطهير فى الوقت المناسب لعل خلف عـــلى ماهـــر يعمل ما يرضيه .

واقيل على ماهر فعلا .. وان كانت الإقالة فى صورة استقالة فى نفس اليوم الذى كان مقررا فيه بدء المباحثات بينه وبين الانجليز بشأن الجلاء !!

وعاد الدكتـــور حافظ عفيفى .. فاستقل ســـيارته وذهب الى الأستاذ الهلالى يعيد عليه طلب تشكيل الوزارة .

وقبل الهلالى أن يشكل الوزارة على أساس التطهير وحل البرلمان

واستقال على ماهر ، وجاء بعده الهلالى ، وأمامه خط طـــويل من المشكلات بدأت فى الليلة الأولى ، وقبل صدور المراسيم أيضا ، مما جعل الأستاذ الهلالى يهم بمغادرة دار الدكتور حافظ عفيفى غاضبا ، فأمسك به رئيس الديوان ، وأجلسه على أول مقعد !!

واقترح الملك تعيين الدكتور أحمد النقيب وزيرا للصحة ، فقـــال الهلالى : « لا » .

لقد كان الهلالى يحس أن المهمة ليست مهمته ، وأن من الافضل له حسم الأمور من بدايتها ..

فماذا كانت أسباب الخلاف ؟

اقترح الهلالى تعيين شخصية عسكرية لوزارة الحربية .. فرفض الطلب !

واقترحت السراى تعيين الأستاذ كامل القاويش نائبا عموميا ، وأن يصدر قرار التعيين مع مراسيم الوزارة . فاعتذر الهلالى .

وحاول الدكتور حافظ عفيفى فى تلك الليلة أن يقنع الأســـتاذ

نجيب الهلالى بتسوية هذا الخلاف ، ولكنه رفض وأصر على عدم قبول أى تدخل فى تشكيله للوزارة ، أو فى اختيار الموظفين العموميين ٠

وكانت مباحثات تشكيل الوزارة قد بدأت قبيل الظهر ، وانتهت فى ساعة متأخرة من الليل ٠٠ وأذاع الأستاذ الهلالى خطاب قبوله تشكيل الوزارة ، فكانت وثيقة اتهام قوية للعهد الوفدى ٠

والذى لا شك فيه أن الأستاذ نجيب الهلالى كان حريصا علـى اجراء تطهير شامل ٠٠ ووضع لذلك القواعد اللازمة ، والتى تؤدى الى الغرض المطلوب ، ولكنه بدأ يحس أن التيار يقف فى وجهه ٠٠

كنت أزوره فى يوم ما فى مكتبه بدار الرئاسة ، وبدأت أتحدث معه فى سياسته نحو التطهير وانقاذ نزاهة الحكم ، فأحسست أن الرجل غير متفائل ٠٠ بل أحسست أنه يوشك أن يغادر مقعده ليعود الى سابق عزلته ٠٠

فماذا حدث ؟ ٠٠

حدث أن أحس رجال الحاشية بأن التطهير يزحف نحوهم ، وانه اذا سار الأستاذ الهلالى فى خطته ، فلابد من أن يقعوا فى المصيدة ٠

وبدأت الاجتماعات السرية تعقد هنا وهناك ، واستطاعت الحاشية أن تتسلل الى عقلية الملك لتقول له أن هذا التطهير هو لحساب « الشيوعية » وانه لابد من وقف عملية التطهير خوفا من عواقبها على « الملكية » !

واقتنع الملك ، وبدأت حركات « المعاكسة » ٠٠

وبادر الهلالى فورا ، فقدم استقالته ٠٠

ودعى الرئيس السابق حسين سرى الى تشكيل الوزارة ، وبدأ الخلاف فى اليوم الأول ٠٠

نفس أسباب الخلاف التى واجهت وزارات ما بعد حريق القاهرة ٠٠ خلاف على أسماء الوزراء ٠٠

حسين سرى يصر على ادخال « فلان » ، والملك يرى ادخال فلان آخر ..!

وبادر حسين سرى فقال انه لن يؤلف الوزارة ، وساعد على هذا القرار أن كثيرين من المستقلين الذين عرض عليهم دخول الوزارة رفضوا الاشتراك فيها مع وجود كريم ثابت وزيرا معهم !

ومع ان الدكتور حافظ عفيفى كان يباشر مهام وظيفته كرئيس للديوان الملكى ، الا أن اختيار حسين سرى لتشكيل الوزارة ، تم دون استشارته أو أخذ رأيه ، ولهذا انتهز فرصة عدم توفيق حسين سرى فى تشكيل وزارته ، فاقترح على الملك دعوة الدكتور محمد بهى الدين بركات لتشكيلها !

ودعى الدكتور بهى الدين للسفر من القاهرة الى الاسكندرية .. ففى يوم ٣٠ يونيو عام ١٩٤٢ اتصل الدكتور حافظ عفيفى ، رئيس الديوان فى ذلك الوقت ، تليفونيا من الاسكندرية بالدكتور بهى الدين بركات وكان فى القاهرة وطلب اليه الحضور فورا الى الاسكندرية لأمر هام ، وكان قد عرف فى ذلك اليوم ان حسين سرى قد فشل فى تأليف الوزارة الجديدة عقب استقالة نجيب الهلالى .

وعلى أثر هذه المكالمة اتصل الدكتور بركات بالأستاذ خالد اللوزى المستشار السابق وأخبره انه سيصل الى الاسكندرية فى صباح اليوم التالى « أول يوليو » وطلب اليه أن يخبر الأستاذ أحمد لطفى السيد بأنه يريد الاجتماع به فور وصوله الى الاسكندرية .

وفى يوم أول يوليو وصل الدكتور بركات الى الاسكندرية وتوجه على أثر وصوله الى فندق سيسيل حيث اجتمع بالسيد أحمد لطفى السيد وحضر الاجتماع الاستاذ خالد اللوزى .

وفى هذا الاجتماع أبلغ الدكتور بركات الأستاذ لطفى السيد

بنبأ الاتصال التليفونى الذى تم بينه وبين حافظ عفيفى وكان مفهوما ان الملك استدعى الدكتور بركات لتأليف الوزارة وبعد أن استمع لطفى السيد الى ما قاله الدكتور بركات هز رأسه وقال :

ـ أمامك طريقان عليك أن تسلك واحدا منهما : الطريق الأول هو طريق الفيلسوف فترفض العرض ، أى ترفض قبول تأليف الوزارة بلا مناقشة .. والطريق الثانى هو طريق الرجل السياسى أى تدخل فى مناقشات مع القصر وتعرض عليهم شروطك ، وهى لا شك مرفوضة ..

واستطرد الأستاذ لطفى السيد قائلا : ولو كنت فى مكانك لاخترت طريق الفليسوف .

وفى هذه الاثناء كان الدكتور حافظ عفيفى يبحث عن الدكتور بركات ، حتى علم انه موجود فى فندق سيسيل فاتصل به تليفونيا وقال له :

ـ انت شغلتنى جدا .. لماذا لم تحضر الى القصر حتى الآن ..

فرد الدكتور بركات قائلا : أنا فى طريقى اليك .

وركب الدكتور بركات سيارته وتوجه الى قصر رأس التين ، حيث اجتمع بالدكتور حافظ عفيفى وذار بينهما الحوار التالى :

حافظ عفيفى ـ طبعا انت علمت بما قيل من ان الملك قبض رشوة مليون جنيه لتغيير وزارة نجيب الهلالى والاحوال فى البلد سيئة جدا ولم نجد غيرك يستطيع أن ينقذ الموقف لأنك رجل أمين وتاريخك نظيف ، والشعب يرحب بك ويقدرك ، والأحزاب تطمئن لشخصك ورجائى أن تشرع فى تأليف الوزارة وأن تنتهى من تأليفها اليوم .

بهى الدين بركات ـ أنا لا أستطيع أن أولف الوزارة بهذه السرعة فلابد لى أن أتصل بالأحزاب لأستطلع رأيها فى الموقف وأتعرف على

وجهة نظر كل حزب حتى أكون رأيا فى الموقف وفى السياسة التى يمكن أن أسير عليها فى الحكم ..

حافظ عفيفى ــ لكن هــذا الاجراء سيحتاج لوقت طويل والمسـألة مستعجلة جدا ..

بهى الدين بركات ــ أنا أوافقك على ان الحالة سيئة جدا ولكن يجب أن تعرف انه لــكى نصل الى العـــلاج السليــم لابد من بحث جميــع العوامل التى أدت الى سوء الحالة ، فالمـريض عندما يستدعى طبيبا لعلاجه أليس من واجب الطبيب أن يفحص المريض فحصا دقيقا قد يتطلب اجراء تحاليل وأشعة وغير ذلك ليتمكن من تشخيص المرض تشخيصا سليما ويصف له الدواء .. أولا أنا لازم أعرف أســباب استقالة نجيب الهلالى ، كذلك لازم أقابل حسين سرى وأعرف منــه أسباب عدم نجاحه فى تأليف الوزارة .

حافظ عفيفى ــ أنا أقول لك عن أسباب استقالة الهـــــلالى وعن أسباب عدم تأليف حسين سرى للوزارة الجديدة ..

بهى الدين بركات ــ أرجوك يا حافظ أنا أحب أن أسمع منهمـــا شخصيا ..

حافظ عفيفى ــ وهو كذلك .. بس أرجــوك أن يتم كل ذلك فى أسرع وقت ..

بهى الدين بركات ــ وأنا أحب أيضـــا أن أبلغك قبل أن أبدأ فى هذه الاتصالات أن لى شرطا أساسيا لتأليف الوزارة ، وهذا الشرط هو عدم تدخل غير المسئولين أمثال كريم ثابت والياس اندراوس ، ومحمد حسن وغيرهم ممن يخيطون بالملك فى سياسة الحكومة كما أشترط ألا يكون لهم أى اتصال بالقصر ..

حافظ عفيفى ــ أنا موافق على هذا الشرط ، وكفيل بتنفيذه .

وخرج الدكتور بهى الدين بركات من عند حافظ عفيفى وتوجــه

الى فندق سيسيل حيث اتصل بالأستاذ على زكى العرابي وحسين سرى ونجيب الهلالى للاجتماع بهم .

وخرج الدكتور بركات الى منزله وفى الساعة الثالثة حضر الاستاذ على زكى العرابى واجتمع بالدكتور بركات حيث طلب اليه الاجتماع بالنحاس وأعضاء الوفد لمعرفة رأيهم في الموقف الحاضر وابلاغه هذا الرأى فى مساء نفس اليوم . وخرج زكي العرابى من عند الدكتور بركات حيث توجه الى منزل مصطفي النحاس للاجتماع به .

وكان الدكتور بركات قد حدد موعدا لمقابلة حسين سرى فى الساعة الخامسة ، وفي الموعد المحدد كان الدكتور بركات يدخل منزل حسين سرى .

وقال حسين سرى للدكتور بركات انه لم يتمكن من تأليف الوزارة لأن القصر فرض عليه ادخال كريم ثابت فى الوزارة وانه كلما عرض على أحد السياسيين الاشتراك معه فيها يقبل ولما يبلغه اسم كريم ثابت يعود ويرفض الاشتراك ، ولذلك عندما وجد هذه المشكلة تعترضه والقصر مصمم عليها قرر التنحى عن تأليف الوزارة .

وبعد أن انتهت المقابلة توجه الدكتور بركات الى منزل نجيب الهلالى واجتمع به حوالى الساعة ، وفى هذه المقابلة روى نجيب الهلالى للدكتور بركات المعاكسات التى كان يلقاها من القصر وكان مما قاله ان القصر أوحى الى مفتى الديار المصرية الشيخ حسنين مخلوف أن يهاجم ظفر الله خان وزير خارجية باكستان ، فأدلى الى الصحف بتصريح قال فيه ان القاديانية دين غير اسلامى مما أثار السخط فى الدوائر الباكستانية كما ان القصر كان يوحى الى بعض ساسة السودان بعرقلة المباحثات بينهم وبين حكومة الهلالى ، ثم أخيرا قصة مبلغ المليون جنيه التى قبضها الملك كرشوة لابعاد نجيب الهلالى عن الحكم وقال الهلالى :

ـ ازاء كل تلك المشاكل والعقبات التى كانت توضع فى طـريقى رأيت أن أتنحى عن الحكم وأترك لغيرى أن يتولاه ٠

وعاد الدكتور بركات بعد هذه المقابلة الى منزله واتصل بكل من ابراهيم عبد الهادى ومحمد حسين هيكل ومحمد حسـن الهضيبى للاجتماع بهم ، وتم الاتفاق على أن يجتمع بهم فى اليـوم التالى فى منزله ٠

وبينما كان بهى الدين بركات يقوم بهذه الاتصالات والاجتماعات كانت حاشية الملك تقوم هى أيضا بهمة فى عرقلة فكرة تأليف بهى الدين بركات للوزارة ٠ ونجحـوا فى مهمتهم فاستدعى الملك فى ساعة متأخرة من الليل حافظ عفيفى وطلب اليه اعداد المراسيم حتى يؤلف حسين سرى الوزارة على أن يتم صـدور المراسيم فى نفس الليلة ٠

وفعلا اتصل القصر بحسين سرى وأبلغه الأمر الملكى الجديد وتم اصدار المراسيم بتأليف وزارة حسين سرى الجـديدة قبل منتصف الليل بقليل ٠

ودامت وزارة حسين سرى فى الحكم بضعة ايام ٠٠ واستقال ليـأتى بعده الهلالى فلا يبقى فى الحكم الا ساعات ٠٠٠

خاتمــــة

وهكذا كانت الأحـــداث من يوم ٤ فبراير عام ١٩٤٢ حتى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ .

وزارات تذهب ، وأخرى تجيء .. وانتخابات تجـرى كلما حل مجلس النواب ، وصفوف الأمة تتمزق ، وأكتاف الشعب قد ناءت بحمل ثقيل من السمعة السيئة .. والملك يتجـــول فى كباريهات القاهرة والاسكندرية ، وفى عواصم أوربا يرتكب كل موبقة وأخرى والســـاسة لا يجسرون على أن يقـــولوا له « قف مكانك » ! كانت شخصية هؤلاء الساسة قد انهارت ، وأصبح لا هدف لها الا أن تحكم وأن تطول فترة حكمها !

واذا كنت قد ألقيت اللوم الأكبر فى هـــذا الكتاب عـــلى الوفد ورئيسه وحاشيته ، فما ذلك الا لأن الوفد كان دائمـــا هو الملجأ الوحيد للشعب . لقد عشت وفديا منذ الصغر ، وكذلك كان الناس جميعا ، وكنا نندفع فى تأييده لأننا كنا نؤمن بأنه المدافع عن كل حق من حقوقه ، فاذا بهذا كله ينهار بين يوم وليلة ، ويصبح الوفد هو آخر المدافعين عن هذه الحقوق .. !

كانت صدمة كبرى ، أن ينجح الانجليز فى هدم هـــذا البنيان الضخم ، وأن يتحـــول النحاس بين يوم وليلة من زعيم وطنى ، الى رجل يقبل الوقوف تحت علم بريطانيا فى ميدان الخديوى اسماعيل (التحرير حاليا) ليستعرض القوات البريطانية المحتلة !

لقد كانت هذه السنوات العشر التى سجلت بعض ماجـرى فيها من

أحداث فى هذا الكتاب هى نقطة التحول فى تاريخ مصر الحديث وكانت هى التى فتحت لمصر بابا تدخل منه الى تاريخ جديد !

كانت الأحداث فى خلال هذه السنوات تجرى بسرعة ٠٠ وبسرعه فائقة ، وكان الشعب قد بدأ يحس باليأس من أى اصلاح الى أن استمع فى ساعة مبكرة من صباح يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ الى صوت ينطلق من الاذاعة يردد للشعب بيانا خطيرا استقبل به الحدث الأكبر ٠٠ وقعت الثورة ٠٠ الا الثورة التى كان يعدها الضباط الأحرار وهم يرقبون فساد الحكم الحزبى والحكم الملكى ، مما سنافرد له كتابا مستقلا ٠

وكان هذا الصوت القوى يقول :

« اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد ، وعدم استقرار الحكم ، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير أكبر على الجيش وتسبب المرتشون والمغرضون فى هزيمتنا فى فلسطين »

« وأما فترة ما بعد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش وتولى أمره اما جاهل أو خائن ، أو فاسد ، حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها ٠ وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم ٠ ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب ٠٠ أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر وسيطلق سراحهم فى الوقت المناسب ، وانى أؤكد للشعب المصرى أن الجيش المصرى كله أصبح يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور مجردا من أية غاية ٠٠

« وانتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب الا يسمح لأحد من

الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف لأن هذا ليس فى صالح مصر ، وان أى عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لهـا مثيل ، وسيلقى فاعليه جـزاء الخائن فى الحـال . وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاونا مع البوليس .

« وانى أطمئن اخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ويعتبر الجيش نفسه مسئولا عنهم ..

والله ولى التوفيق ...

انتهى بيان الجيش الثائر

وانتهت صفحة ضخمة من تاريخ مصر ..

وفتحت صفحات أخرى ..

مطابع

دار الكتاب المصري

٨٢ شارع القصر العيني تليفون ٢٦٥٨٨ .

